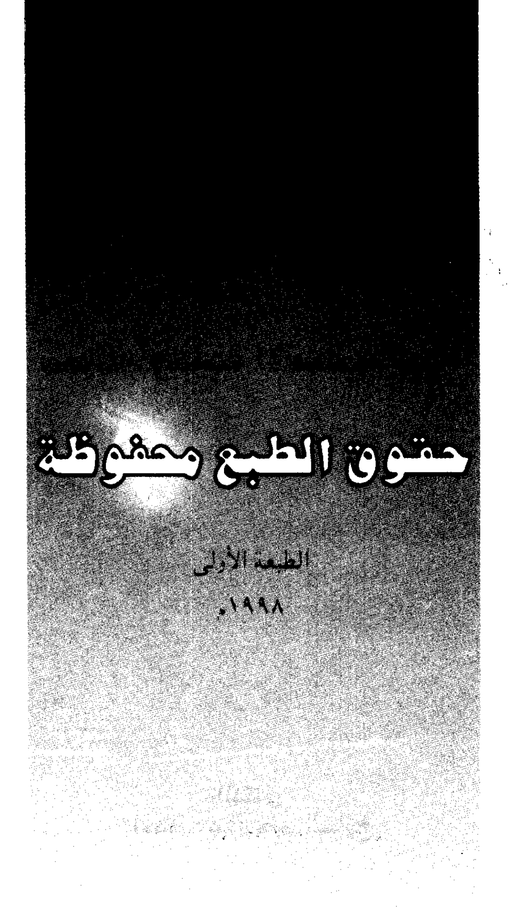
هذا هو الإسلام

سماته ـ وحاجة الإنسانية إليه

الدكتور
أحمد عبدالرحيم السايح

مركز الكتاب للنشر





مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠-فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

قال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

سورة التوبة : الآية رقم ٣٣

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ .

سورة الفتح : الآية رقم ٢٨



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد رسول الله، المبعوث رحمة وهداية للناس أجمعين.

أما بعد

فإن الباحث والدارس لظهور الإسلام وانتشاره، من خلال الأحداث الأولى، والمتأمل فى تلك الأحداث التى سبقت الإسلام، وواكبت ظهور الإسلام، يجد أن العناية الإلهية واضحة كل الوضوح، فى اختيار الرسول ﷺ ليكون رسول الإسلام، ومبلغه إلى الناس.

وواضحة كذلك فى اختيار الأمة الأولى، لحمل رسالة الإسلام، وأمانة الدعوة، ونشر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها.

وواضحة كذلك فى اختيار أرض الجزيرة العربية مكاناً لظهور الإسلام فيها، لتكون منطلقاً للإسلام فى كل الاتجاهات.

وواضحة كذلك. فى اختيار القرن السابع الميلادى، أو الزمن الذى كان لظهور الإسلام فيه.

وواضحة كذلك، فى حاجة الإنسانية لدين يعرّفها بمكانها ومكانتها.

وواضحة كذلك، فى أثر هذه الاختيارات والعوامل فى انتشار الإسلام. ولقد أظهر الواقع الذى مضى، والواقع القائم قيمة هذه الاختيارات والحاجة لظهور الإسلام وانتشاره.

وقد اتسم الإسلام بسمات ، كانت ولا زالت ، عوامل تجذب إلى الإسلام، كل من اقترب منها، أو بحث فيها، أو تعرف عليها.

فلم تعرف البشرية ولن تعرف ديناً جمع بين دفتيه حقائق الحق، وأطراف الخير، وألوان الفضيلة، كما عرفت ذلك عن الإسلام.

ولقد فهم المسلمون الأولون هذا فدرجوا فى مسالك الكمال ، وصعدوا فى مراقى العلا. يشمل الصفاء كل نواحيهم، ويعمهم الحب والتفاهم فى تلاقيهم.

والقارىء للإسلام فى منابعه الأصيلة ، ومصادره الحقيقية، وسماته البارزة . يجده بمنأىً عن كل ما من شأنه إعنات الإنسان وإرهاقه، ويجده أنه يسعى للأخذ بيد الإنسان فى هذه الحياة.

وإذا كان العصر الذى نعيش فيه، هو عصر العلاقات العالمية ، الذى لا يتطلب مواطنا أصح وأصلح من الإنسان، الذى يوقن بالأسرة الإنسانية. فإن الذى لاشك فيه، أن هذا العصر لاتسعده عقيدة أخرى أصح له، وأصلح من عقيدة الإسلام.

وما أحرانا أن نتعرف على سمات الإسلام، ونعرِّف الناس على هذه السمات، وتلك العناية التى اختارت الإسلام، ليكون دين الإنسانية.

وسوف يحظى المستجيبون لدين الله، بكل أبعاده، وآفاقه، من حيث العقيدة، والشريعة، والأصول، والفروع، والخلق، والسلوك، وشتى صور التعايش الإنسانى، والعلاقة الاجتماعية.

والاستجابة للإسلام، تضع أصحابها على الطريق الحق، الذى لايضل من سلكَه. وليس هناك من شىء هو أبر بالإنسان فى حاضره، وفى مستقبله، من أن يعيش الإنسان مع الإسلام، وللإسلام.

د. أحمد عبدالرحيم السايح

القسم الأول

حاجة الإنسانية إلى ظهور الإسلام

- اختيار الرسول ﷺ ليبلغ الإسلام.
- اختيار الأمة الأولى للإسلام .
- عناية الله فى اختيار المكان لظهور الإسلام.
- عناية الله فى اختيار الزمان لظهور الإسلام.
- ضرورة الإسلام.
- أثر العوامل والاختيارات السابقة فى ظهور الإسلام.



اختيار الرسول ﷺ ليبلغ الإسلام

اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسالة الإسلام، من تأهل ليكون خير من يتلقى الوحى، ويبلغه للناس، وتلك سنة الله، مع رسالاته ورسله قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[(١)].

فالله يختار رسله من الملائكة إلى الأنبياء، ويختار رسله من البشر إلى الناس، وذلك عن علم وخبرة وقدرة[(٢)].

ويذكر الطبرى: أن الله يختار من الملائكة رسلاً كجبريل، وميكائيل، اللذين كان يرسلهما إلى أنبيائه، ومن شاء من عباده. ومن الناس كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده من بنى آدم[(٣)].

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[(٤)]، أى: هؤلاء الذين ذكرنا، من الذين اصطفيناهم لذكرى الآخرة، الأخيار الذين اخترناهم لطاعتنا ، ورسالتنا إلى خلقنا[(٥)].

واصطفاء الله للرسل ـ عليهم السلام ـ يتم على مرحلتين: مرحلة تهيئة وتأهيل ، ومرحلة تكليف وابلاغ[(٦)] .

وكتب السيرة والسنة، تروى كثيراً، من الآثار، تشير إلى تشريف الله تعالى باصطفاء محمد ﷺ، وكونه أول الأنبياء خلقاً[(٧)].

---

(١) الحج: ٧٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٥، ص: ٢٥١، ط: كتاب الشعب بالقاهرة، سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ: ٤، ص: ٢٤٤٤، ط: دار الشروق سنة: ١٤٠٢هـ.

(٣) الطبرى. جامع البيان فى تفسير آى القرآن، جـ: ١٧، ص: ١٤٢، ط: الأميرية ببولاق.

(٤) ص: ٤٧.

(٥) الطبرى: جامع البيان، جـ: ٢٣، ص: ١١١.

(٦) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ١١٤، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت.

(٧) الصالحى الشامى. سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، جـ: ١، ص: ٨٩. تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، بالقاهرة، سنة ١٦٩٢.

فقد روى ابن إسحاق عن قتادة مرسلاً ، قال : قال رسول الله ﷺ: «كنت أول الناس فى الخلق ، وآخرهم فى البعث»[1] وقد يكون المراد بالخلق هنا : التقدير دون الإيجاد ، فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجوداً ، ولكن الغايات والكمالات سابقة فى التقدير ، لاحقة فى الوجود[2].

وجاء عن العرباض بن سارية ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «إنى عند الله فى أم الكتاب لخاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته»[3].

ويقول الطيبى: والمعنى كتبت خاتم الأنبياء فى الحال الذى آدم مطروح على الأرض ، حاصل فى أثناء تخلقه، لما يفرغ من تصويره وإجراء الروح[4].

ويقول الحافظ أبوالفرج بن رجب ـ رحمه الله تعالى ـ : «والمقصود من هذا الحديث: أن نبوة النبى ﷺ كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله تعالى، ويخرجه إلى دار الدنيا حياً ، وأن ذلك كان مكتوباً فى أم الكتاب ، من قبل نفخ الروح فى آدم ﷺ»[5] وفسر أم الكتاب: باللوح المحفوظ فى قوله تعالى: ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾[6] ولا ريب أن علم الله قديم ،لم يزل عالماً بما يحدثه من خلقه ، ثم إن الله ـ تعالى ـ كتب ذلك فى كتاب عنده ، قبل أن يخلق السموات والأرض ، كما قال تعالى: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾[7].

---

(١) الديلمى ، الفردوس بمأثور الخطاب ، جـ:٣، ص:٢٨٢ ، رقم الحديث: ٤٨٥٠ ، ط:الأولى، سنة:١٤٠٦هـ ، نشر:دار الكتب العلمية، وابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ:١، ص:٤١٩، ط:البابى الحلبى، بالقاهرة .

(٢) الصالحى الشامى ، سبل الهدى والرشاد، جـ:١، ص:٩١ .

(٣) رواه الأمام أحمد ، فى مسنده ، جـ:٥، ص:١٢٧-١٢٨، جـ:٥ ص:٣٧٩، ط:دار صادر ، بيروت.

(٤) الصالحى الشامى ، سهل الهدى والرشاد ، جـ:١ ص:٩٦ .

(٥) ابن رجب ، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف ، ص:٧٩، ط:مكتبة الرياض الحديثة ، بالرياض .

وانظر : الصالحى الشامى ، سبل الهدى والرشاد ، جـ:١، ص:٩٧.

(٦) الرعد: ٣٩.

(٧) الحديد: ٢٢ .

وانظر : ابن رجب ، لطائف المعارف ، ص: ٧٩، بتصرف .

ويروى الإمام أحمد عن ميسرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قلت يارسول الله: متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[1].

ويقول الإمام أحمد فى رواية منها: وبعضهم يرويه: متى كتبت من الكتابة؟ قال: «كتبت نبياً وآدم بين الروح والجسد». فتحمل هذه الرواية مع حديث العرباض السابق على وجوب نبوته ﷺ وثبوتها وظهورها فى الخارج، فإن الكتاب، إنما يستعمل فيما هو واجب، إما تشريعاً كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[2] أو قدراً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى﴾[3]. وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قالوا يارسول الله: متى وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[4].

وروى ابن سعد عن الشعبى قال: قال رجل : يارسول الله : متى استنبئت؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد حين أخذ منى الميثاق»[5].

وسئل أبو جعفر محمد بن على: كيف صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث؟ قال: إن الله لما أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم[6] كان محمد ﷺ أول من قال. بلى. ولذلك صار يتقدم الأنبياء ، وهو آخر من بعث[7].

---

(١) رواه أحمد ، فى المسند . جـ:٥، ص: ٥٩، ورواه الترمذى ، فى صحيحه ،جـ:٢، ص: ٤٢٥. ط: شركة الحلبى بمصر ، ط: الثانية ، سنة ١٣٩٥هـ.

(٢) البقرة: ١٨٣ .

(٣) المجادلة: ٢١ .

(٤) رواه الترمذى ، فى صحيحه ، كتاب المناقب ، باب فضل النبى ﷺ ، جـ:٥، ص:٥٨٥ .
ورواه الحاكم ، فى المستدرك ، كتاب التاريخ ، باب ذكر مواكبة ﷺ جـ :٢، ص:٦٠٩. وقال حديث صحيح ووافقة الذهبى، ورواه أحمد فى المسند ، جـ : ٥، ص: ٥٩ .

(٥) رواه الدارمى فى سننه ، المقدمة ، ص:٣ ، ط: دار الدعوة فى استانبول ، سنة : ١٩٨١م .ورواه ابن سعد فى الطبقات الكبرى ، جـ١ ، ص ٩٥.

(٦) قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(٧) الصالحى الشامى ، سبل الهدى والرشاد ،ح: ١، ص: ١٠١ .

ومنذ استودع الخليل إبراهيم قلب الصحراء ولده إسماعيل - عليهما السلام - فإن عناية الله ترعى الذين يحملون أمانة الرسالة الخاتمة على يد النبى محمد ﷺ، وتترجم فطرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذه المعانى ، فى صورة الدعاء ، والأمانى، يسأل بها ربه. قال الله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾[1] وما كاد يشتد ساعد إسماعيل - عليه السلام - بعد فترة وجيزة ، حتى يقف إلى جوار أبيه، يؤكدان معاً هذا الأمل الجاد فى خاتم الأنبياء، وفى أمة الإسلام، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾** ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[3].

فالعناية الالـهية قـد هيـأت سـلسلة طيبـة من الآباء الأخيـار، والأجـداد للنبى ﷺ، ليأخذ منها عن طريق الوراثة[4] كثيراً من الخلق والطباع، ذلك لأن الوراثة عامل هام فى تكوين الشخصية فهى تعمل فى أصل النمو، وتدخل من داخل الكائن الحى، وما جاء فى الوراثة، ما رواه البخارى بسنده عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ دخل عليها مسروراً، تبرق أسارير وجهه

---

(١) إبراهيم: ٣٧ .

(٢) البقرة: ٢٧ ـ ١٢٩ .

(٣) التوبة: ١٢٨ .

(٤) حتى لايكون هناك مجال للتقول على نسبه ﷺ وأثر هذا النسب ، وذلك لما ألف الناس من التواصل بين الآباء والأبناء ، وأثر الوراثة فى الذرية .

فقال: «ألم تسمعى ما قال المدلجى لزيد وأسامة - ورأى أقدامهما - فقال: «إن بعض هذه الأقدام من بعض»[1].

وحينما قذف هلال بن أمية زوجته فى شريك بن سحماء - وهى حامل - قال: «أبصروها فإن جاءت به أبيض، سبطاً مضىء العينين. فهو لهلال بن أمية، وإن جاءت به أكحل ، جعداً حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء، قال: فأنبئت أنها جاءت به أكحل جعدا، حمش الساقين»[2]، وهذا دليل واضح، يشير إلى توارث الصفات، والوراثة تنقل الصفات الجسمية والعقلية.

ويرى علماء النفس: أن الذكاء، والطبع يخضعان لقوانين الوراثة[3]، وأن الدراسات الحديثة، فى الوراثة والاستراتيجية، تضع معياراً لقياس السلوك المنتظر للزعماء والقادة، الذين يقودون زمام الأمور فى دول العالم الحديث[4].

وبمقدار ما يتحمله الزعيم من خصائص فى الوراثة والأخلاق، بمقدار ما يتكهن له الدارسون من سلوك وممارسات[5].

وأصبح من المعروف فى معاهد الدراسات الاستراتيجية: أن علم الوراثة، وعلم الأخلاق، من الأصول التى ترتكز عليها الدراسات الاستراتيجية المتعلقة بالتنبؤ لممارسات الزعماء والذين يتولون جديداً مقاليد الأمور فى بلد ما[6].

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب المناقب، باب صفة النبى ﷺ ج:٦، ص: ٥٦٥، ط: دار المعرفة للطباعة والنشر ، ببيروت. ورواه مسلم، فى صحيحه، كتاب الرضاع، باب العمل بالحاق القائف الولد جـ: ١٠، ص:٤١، ط:الثالثة ، دار الفكر ، بيروت ، سنة : ١٣٨٩هـ .

(٢) رواه البخارى، فى مواضع من حديثه مع فتح البارى، منها: كتاب الطلاق. باب قول الإمام (اللهم بين)، جـ: ٩، ص: ٤٦١. ورواه الترمذى فى صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة النور، جـ:٥، ص: (٣٣١ - ٣٣٢)، رقم الحديث: ٣١٧٩ ، وقال: حسن غريب . ورواه أحمد فى مسنده، جـ:١، ص: ٢٣٨- ٢٣٩ ، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٥٧، ٣٦٥

(٣) د. عبدالعزيز القوص، أسس الصحة النفسية ، ص: ٣٧ ، ط: الخامسة القاهرة .

(٤) د. رؤوف شلبى : بيت الرسول وقيمة الحضارية ، ص: ٣٦٠ ، من كتاب السيرة والسنة النبوية ، صفر، سنة :١٤٠٦ هـ: ط: الأزهر .

(٥) راجع المصدر السابق .

(٦) راجع المصدر السابق .

ونبينا محمد ﷺ وإن كان باصطفاء الله له رسولاً خاتماً، فهو أعلى وأكرم من أن يقاس بمقاييس علماء الاستراتيجية الحديثة، غير أنه قد يكون من المقبول علمياً أن ننشر على الناس خصائص نسبه ، الذى اختصه الله به، ليكون ذلك نبراساً فى تفهم القيم الحضارية ، التى أرساها رسول الله ﷺ فى مجالات كثيرة من مجالات الحياة، لأنه أسوة وقدوة[1].

فيكون نسبه ﷺ وما قرره من قواعد القيم الحضارية المنزلة، الأصل الذى ترتكز عليه الحياة الإسلامية فى دنيا المسلمين قاطبة .

ويختص نسب الرسول ﷺ بعدة خصائص فى مقدمتها:

١ - البقاء إلى جوار البيت الحرام ، والتمسك بملة إبراهيم عليه السلام.

٢ - الفروسية.

٣ - شرف النفس.

٤ - حفظ الأسرار.

٥ - العناية والاهتمام بمكارم الأخلاق.

٦ - الرحمة بالضعفاء[2].

وبيان ذلك:

١ - البقاء إلى جوار البيت الحرام:

إن عدنان هو : الجد الذى يثبت إليه نسب الرسول ﷺ علمياً وتاريخياً [3].

لقد ولد لعدنان ولدان:

ـ عك بن عدنان ـ ومعد بن عدنان .

(١) راجع المصدر السابق.
(٢) راجع المصدر السابق .
(٣) ابن قدامة ، النبيين فى أنساب القرشيين ، ص: ٣٦ .

أما عك: فقد نزح إلى اليمن، وتزوج من الأشعريين[1].

وأما معد: فقد استقر بمكة، مجاوراً بيت الله الحرام. الذى رفع قواعده إبراهيم ـ عليه السلام ـ أصل هذه الدوحة الشريفة.

ثم ولد له: نزار، وقضاعة، وقنص.

أما نزار : فقد استقر بمكة.

وأما قضاعة: فقد انتقل إلى حمير فى بلاد سبأ.

وأما قنص: فقد هلك.

ثم كان من نزار أولاده: ربيعة، وانمار، وإياد، ومضر، لم يستقر واحد منهم إلى جوار البيت الحرام، سوى: مضر، ومن خصائص مضر أنه ما رآه أحد إلا قدره وأحبه، فهو صاحب كنف موطأ[2].

فسلسلة النسب الزكى مستقرة حول البيت العتيق ، فهو جوار طاهر فى كنف بيت عتيق.

ثم كان من مضر ولداه: غيلان، والياس.

أما غيلان: فقد أفسد الدين.

وأما الياس: فقد صان ملة إبراهيم، وحافظ على الشرائع التى ورثها البيت الإسماعيلى من جدهم إبراهيم، وإسماعيل عليهما السلام[3].

تقول مصادر السيرة النبوية: إن الياس أول من أهدى إلى البيت الحرام، وكان فى العرب مثل: لقمان الحكيم فى قومه[4].

---

(١) هم : من قبائل كهلان ، من القحطانية ، وهم : بنو الأشعر بن أدد بن زيد من يشجب من غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ . عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب ، جـ:١، ص: ٣٠ .

(٢) د. رؤوف شلبى ، بيت الرسول وقيمة الحضارية ، ص: ٣٦١- ٣٦٢ من كتاب: السيرة والسنة النبوية.

(٣) د. رؤوف شلبى، بيت الرسول وقيمة الحضارية ، ص: ٣٦١ ـ ٣٦٢، من كتاب السيرة والسنة النبوية .

(٤) المصدر السابق .

٢ - الفروسية:

ومن الياس ـ كبير قومه ـ كان ثلاثة نفر: عامر، ولقبه: مدركة، وطابخة، وقسعة .

كان عامر (مدركة) هو : الفارس المقدام الشجاع ، وهو الجد فى السلسلة الشريفة للنبى ﷺ واستحق هذا اللقب لأنه أدرك كل عز وفخر .

أما الآخران: فقد كانا كسولين[1].

٣ - حفظ الأسرار:

ثم ولد له: خزيمة، وهذيل .

وكان خزيمة: أشرف الناس نفساً، فأنجب أربعة: كنانة، وهى التى اصطفاها الله من ولد إسماعيل، وكان أسد، وأسدة، والهون .

وكان كنانة هو جد النبى ﷺ، فقد اختص بأنه يكنُّ ويحفظ أسرار الخلق، وهى صفة أمانة الأسرار للمجتمع[2].

تقول المصادر: قيل له: كنانة، لأنه لم يزل فى كن قومه بستره عليهم، وحفظه لأسرارهم، وكان شيخاً حسناً، عظيم القدر، تحج إليه العرب، لعلمه وفضله وكان يأنف أن يأكل وحده.

ثم كان منه: النضر، وملك، وعبد مناة، وملكان.

وسمى: النضر، لنضارته، وحسن طلعته، وبهائه[3].

٤ - البحث والعناية والاهتمام بمكارم الأخلاق:

ثم كان من النضر: سالك، ويخلد.

يقولون: سمى سالكاً، لأنه سلك أمر العرب.

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) د. رؤوف شلبى ، بيت الرسول وقيمة الحضارية ، ص: ٣٦٣ ، من كتاب السنة والسيرة النبوية .

ومنه: كان فهر، وفهر هذا هو: (قريش)، وسمى بذلك لأنه كان يقرش، يعنى: يفتش عن حاجة المحتاج، ليسدها، ويقيل عثرته وكان أبناؤه من بعده يقرشون أهل الموسم، بمعنى: أنهم يقضون لهم حوائجهم[1].

ومن فهر كان أبناؤه: غالب، ومحارب، والحارث، وأسد، وكان غالب هو: جد النبى ﷺ لأنه كان يغلب على الحق.

ومن غالب كان: لؤى، وتميم.

وكان لؤى هو: جد النبى ﷺ، ومنه كان كعب، ومنه كان مرة، ثم كان كلاب، وكان كعب يجمع قومه يوم العروبة وهو يوم الجمعة، أو يوم الرحمة، ويقال: أنه أول من سمى يوم الجمعة بذلك لاجتماع قريش فيه إليه[2].

وكلاب اكتسبها من كثرة استخدامه لكلاب الصيد، واسمه: (حكيم) وكلاب: مجمع جدى النبى ﷺ لأبيه وأمه، لأنه أنجب قصياً جد النبى ﷺ لأبيه، وزهرة جد النبى ﷺ لأمه[3].

ومن خصائص قصى:

الحجابة: وهى حراسة الكعبة.

الرفادة: أطعام أهل المواسم فى الحج.

اللواء: حق إعلان الحرب وعقد الجيوش.

السقاية: سقاية الحجيج الماء بلا مقابل.

الندوة: الشورى.

ومن قصى كان أولاده: عبد مناف، وهو جد النبى ﷺ وعبدالدار، وعبدالعزى، وعبد بن قصى.

---

(١) أبو الفضل العراقى، القرب فى محبة العرب، ص: ١٤٨، تحقيق إبراهيم حلمى القادرى.

(٢) د. رؤوف شلبى ، بيت الرسول وقيمة الحضارية ، ص: ٣٦٣ ، من كتاب السنة والسيرة النبوية .

(٣) د. رؤوف شلبى ، بيت الرسول وقيمة الحضارية ، ص: ٣٦٣ ، من كتاب السنة والسيرة النبوية .

أما عبد مناف: فقد امتاز فى ظل والده بالوقار والاحترام لذاته، وكان عبدالدار: هزيل المقام، فرأى قصى أن يعطيه شيئاً من الشرف ووزع على أولاده، فأعطى عبدمناف: السقاية، والرفادة، وهى صفات الكرم والجود والسخاء المتكرر الدائم، وأعطى عبدالدار: اللواء، ليرفع من ضعفه[1].

الرحمة والضعفاء:

ثم كان من عبدمناف رجال هم : هاشم، والمطلب، وعبدشمس، ونوفل.

وكان هاشم كريماً يحفظ له التاريخ: أن قريشاً أصابتها مخمصة وهو فى بلاد الشام، فاشترى دقيقاً وكعكاً، وقدم مكة، فهشم الخبز والكعك، ونحر الجزور، وجعله ثريدا، وأطعم الناس، حتى أشبعهم فسمى لذلك: هاشماً .

يقول الكاتبون: كان هاشم يحمل ابن السبيل، ويؤمن الخائف، ثم ورّث هاشم خصائصه فى العدل الاجتماعى إلى المطلب أخيه، ثم ورثها عبدالمطلب بن هاشم من عمه المطلب.

وعبدالمطلب له خصائص أضفت عليه ألقاباً ، فهو : مطعم طير السماء وهو: شبيه الحرث، وهو رجل مجاب الدعوة، كانت قريش تستقى به المطر[2].

ومن عبدالمطلب كان عبدالله، الذى جعل الله منه المصطفى الخاتم نبينا محمداً ﷺ الذى حمل من أرومته هذه الخصائص العلياء:

- الجوار إلى بيت الله العتيق، والبقاء على ملة إبراهيم الحنيف.
- الفروسية والإقدام والشجاعة.
- شرف النفس ، وعلو الهمة .
- حفظ الأسرار، والأمانة.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٤ .

(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ: ٢، ص: ١٦ ـ ١٧.

د. رؤوف شلبى ، بيت الرسول وقيمة الحضارية . ص : ٣٦٤ ، من كتاب : السيرة والسنة النبوية .

- مكارم الأخلاق، وفضائلها.

- رعاية الضعفاء، وحماية المحاويج.

وبهذه الخصائص الوراثية التى تعد قاصدة فى الدراسات الاستراتيجية يكون نبينا محمد ﷺ على السنام، من ذروة المجد والشرف المؤثل، لجميع زعماء العالم قديماً وحديثاً، وإذا فما هَرْطَقَ به قليلو الثقافة ، وضعفاء التفكير، من المستشرقين، وكتاب الغرب الحاقدين على الإسلام والمسلمين، من أمثال: «لاسانس»، و«مستر موير»، إنما هو محض افتراء مزيف، لايعتمد على توثيق من مصدر أمين، ولا مصدر من عقل محترم لنفسه، يعرف أصول النتائج من مقدماتها.

ونحن العرب المسلمين بما لنا من أمجاد فى الفتح الإسلامى والحضارة العالمية، وإسعاد الإنسانية، نثق كل الثقة فى أصول البيت النبوى الكريم الشريف، وفى القيم الحضارية المنزلة، التى تدثرت به والتى انبثقت عنه[1].

ولذلك كان من عناية الله بمحمد ﷺ أن وضعه فى نهاية سلسلة فاضلة من الناس أتته من قبل والديه، فأبوه عبدالله وجده عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف ابن قصى. وأمه آمنة [2] بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة بن كلاب. فهما يلتقيان معاً فى الجد الخامس كلاب بن مرة [3].

وعبدالمطلب هو جد النبى ﷺ وابن هاشم من زوجته سلمى بنت عمرو. وقد شرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، إذ أحبه قومه، وعظم خطره فيهم، وهو شيخ مكة يوم قدوم أبرهة، وهو الذى حفر بئر زمزم، بعد أن هُدِىَ إليها، وهو الذى قدم أحد أبنائه العشرة، للذبح عند الكعبة، وفاء لنذره بأن يقوم بذبح

---

(١) د. رؤوف شلبى ، بيت الرسول وقيمة الحضارية . ص : ٣٦٤، من كتاب : السيرة والسنة النبوية .

(٢) د. رؤوف شلبى ، بيت الرسول وقيمة الحضارية . ص : ٣٦٤، من كتاب : السيرة والسنة النبوية .

(٣) محمد عفيف الزغبى ، مختصر السيرة النبوية ، ص: ١٣ - ٢٤، ط: دار المطبوعات بجدة.

أحد أولاده، إن رزق عشرة ذكور، فلما رُزِقَهم أقرع على الذبيح، فجاء على عبدالله، وكاد يذبحه، لولا نصح القرشيين له، لكنه استبدل بالذبح الغذاء، بناء على نصيحة عرافة خيبر[1].

والذبيح الذى أُفدى هو: عبدالله أصغر أبناء عبدالمطلب ووالد النبى ﷺ وقد اشتهر بالعفة والطهر.

ومما روى فى هذا الباب: أنه مر ذات يوم بعد فدائه على فاطمة بنت مر الخثعمية فقالت له: هل لك أن تغشانى وتأخذ مائة من الإبل؟ فرد عليها بقوله:

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغينه ... يحمى الكريم عرضه ودينه[2]

قال ذلك ولم يلتفت إليها، ثم تزوج من آمنة، نزولاً على مشورة والده، ثم ترك آمنة بعد الزواج بقليل للتجارة، لكنه مات وهو عائد من هذه الرحلة.

وما يجدر أن يذكر: أن نسب النبى ﷺ من جهة أمه عالٍ هو الآخر، إذ يصف ابن هشام آمنة بقوله: «إن آباءها من فضلاء قريش، وسادة بَنى زهرة»[3].

فالنبى محمد ﷺ نخبة بنى هاشم، وسلالة قريش وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله تعالى على الله وعباده.

وأعداؤه ﷺ كانوا يشهدون له بذلك ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك: أبوسفيان بن حرب، بين يدى ملك الروم، «قال ملك الروم لترجمانه: سله. كيف حسبه فيكم ؟ يقول أبوسفيان، قلت: هو فينا ذو حسب[4]. فأشرف القوم قومه،

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ١١٧.

(٢) الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، جـ:١ ، ص:٣٩٢، وعباس محمود العقاد ، مطلع النور ، أو طوالع البعثة المحمدية ص: ١٣٨، طبع ونشر : المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ: ١، ص: ١٢١.

(٤) رواه البخارى، فى مواضع من صحيحه مع فتح البارى، فى كتب بدء الوحى، والجهاد، والأحكام، والإيمان، والشهادات، وفى بدء الوحى، وغيرها، جـ:١ ص:٣١ - ٤٥ . ورواه مسلم، فى صحيحه فى كتاب الجهاد ، باب كتاب النبى ﷺ إلى هرقل ، جـ:٣، ص:١٣٩٣، ١٣٩٧، ١٧٧٣.

وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه ﷺ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]. وما قاله الله ـ تعالى ـ يختص به من يشاء من خلقه، لا ينالها أحد بكسب، ولا يتوصل إليها بسبب ولا نسب، وعلى أنه تعالى لايختص بهذه الرحمة العظيمة، والمنقبة الكريمة، إلا من كان أهلاً له، مما أهله هو من سلامة الفطرة، وعلو الهمة، وزكاء النفس، وطهارة القلب، وحب الخير والحق، وكان أذكياء العرب فى الجاهلية على شركهم بالله ـ تعالى ـ يعلمون: أن الصادقين محبى الحق، وفاعلى الخير، من الفضلاء، أهل لكرامته تعالى، وعنايته»[2].

لقد كان بيت عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف، جد النبى ﷺ لأبيه، وبيت وهب بن عبدمناف: جد النبى ـ عليه السلام ـ لأمه، من أعلى البيوت فى قريش، إذ كان عبدالمطلب بن هاشم سيد بنى هاشم، وكان وهب بن عبدمناف، سيد بنى زهرة، وكان كلا البيتين موسوماً بالشرف، والكرامة، والطهر، والعفاف، ورعاية الدين، والفضيلة.

فكان زواج عبدالله بن عبدالمطلب من آمنة بنت وهب زواجاً موفقاً ميموناً، اتحد فيه عنصر طيب بعنصر طيب، وانضم به أصل كريم إلى أصل كريم، وأصهر بيت عريق فى شرف الأباء، وطهر الأمهات إلى بيت يكافئه بالشرف، والطهارة، فكان من الطبيعى أن تكون ثمرة هذه المصاهرة ثمرة طيبة مباركة، وأن يكون نسل هذا الزواج، نسلاً طاهراً كريماً[3].

وما أجمل قول العقاد: كان بنو هاشم أصحاب عقيدة، وأريحية، ووسامة، وجمال. عرفوا بالنبل، والكرم، والعفة، والهمة، والوفاء، ولم تكن أخلاقهم هذه من مناقب الأماديح التى يتبرع بها الشعراء، أو من الكلمات التى ترسل إرسالاً على الألسنة، ولا يراد بها معناها.

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) محمد رشيد رضا تفسير المنار ، ، جـ:٢، ص:٣٥، ط: الهيئة العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٣م .

(٣) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول، ص:٣٧، ط: الأولى القاهرة .

عبدالله بن حمد الشبانة ، يا أهل الكتاب تعالوا .. إلى كلمة سواء .. ص:١٣٧ - ١٤٠ ، بتصرف واختصار ، ط: الأولى دار الهدى للنشر والتوزيع ، بالرياض ، سنة :١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

وابن هاشم عبدالمطلب: سيد قريش غير مدافع، وكان عبدالمطلب متديناً، صادق اليقين، مؤمناً بمبادىء دينه فى الجاهلية، لأن ثقة الإيمان طبيعية فى وجدانه، وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله، وكان فى الحق نمطاً فريداً بين أصحاب الطبائع التى فطرت على الاعتقاد، ومناقب النبل والإيثار.

إن أسرة النبى ﷺ أسرة عزيزة الآباء والأجداد ، فخرها بالنسب، أعظم من كل فخر، وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة، ثم ينشأ لها من بنيها نبى ينعى على الآباء والأجداد، ما كانوا عليه من ضلالة.

لقد نشأ محمد ﷺ فى الأسرة التى تعطيه خير ما تعطى الأسرة بنيها، ولكنه جاء بالنبوة التى لا يعطيها غير الله، فكانت الأسرة تمهيداً له فيما ورث منها[(١)].

ويروى: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم»[(٢)].

ويقول العباس : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس ، فصعد المنبر، فقال : «من أنا؟» قالوا: أنت رسول الله قال: «أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلنى فى خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً»[(٣)].

والذى عليه أهل السنة والجماعة: أن قريشاً أفضل العرب، وأن بنى هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بنى هاشم، فهو أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً[(٤)].

---

(١) عقاد، الإسلاميات، المجلد السابع، ص: ٣٢٣ ـ ٣٥٤، ط: دار الكتاب اللبنانى بيروت، سنة: ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٢) رواه مسلم ، فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبى ﷺ، جـ:٤، ص:١٧٨٢، ٢٢٧٦.

(٣) رواه الترمذى، فى صحيحه، كتاب المناقب، باب فضل النبى ﷺ، جـ:٥، ص: ٥٨٤، رقم الحديث:٣٦٠٧ وقال: حديث حسن .

(٤) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، المجلد الأول ، ص: ٣٧٠، تحقيق وتعليق: د. ناصر بن عبدالكريم العقل ط:الأولى، سنة:١٤٠٤هـ .

وعن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[1] قال: «من صلب نبى إلى صلب نبى حتى صرت نبياً»[2].

وجاء فى حاشية الجمل على الجلالين: أن أصول محمد ﷺ لم يدخلهم الشرك، ما دام النور المحمدى فى الذكر والأنثى، فإذا انتقل منه إلى من بعده، أمكن أن يعبد غير الله[3].

وجاء فيه - أيضاً -: أى: يراك متقلباً فى أصلاب وأرحام المؤمنين، من لدن آدم وحواء إلى عبدالله وآمنة، فجميع أصوله رجالاً ونساء مؤمنون[4].

وهناك إجماع على: أن نسب الرسول ﷺ ينتهى إلى إسماعيل بن إبراهيم أبى العرب المستعربة.

نسب شريف وآباء طاهرون، وأمهات طاهرات، لم يزل - عليه الصلاة والسلام - ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء، حتى اختاره الله هادياً مهدياً، وعلو المكانة بين العرب، ولا تجد فى سلسلة آبائه، إلا كرماء، كلهم سادة وقادة، وكذلك أمهات آبائه، من أرفع قبائلهن شأناً، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته، كان شرعياً حسب الأصول العربية[5].

ومما يحسن أن نشير إليه: أن هناك مزيتين، فى آباء النبى ﷺ وأجداده ، علينا أن نعرض لهما:

المزية الأولى :

أن الآباء المباشرين من والد وجد، وهكذا إلى النهاية لم ينغمسوا فى الشر، والوثنية على غير عادة معاصريهم، وتلك إرادة الله فى آبائه - عليه السلام -، إذ بقى فيهم هذا الفهم الدينى، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ

---

(١) الشعراء: ٢١٩.

(٢) رواه البزار ، فى مسنده (كشف الأستار عن زوائد البزار - للهيثمى : جـ:٣، ص:٦٢، ط الأولى، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

(٣) الجمل ، الفتوحات الآلهية ، جـ:٣، ص: ٢٩٦، ط: عيسى البابى الحلبى .

(٤) المرجع السابق .

(٥) محمد الخضرى ، نور اليقين ، ص: ١٢، ط: دار القلم ، بيروت تحقيق : عبدالعزيز سيروان .

﴿يَرْجِعُونَ﴾[1] ويذكر العلماء: أن الكلمة الواردة هى قوله تعالى: (لا إله إلا الله) وبذلك فسرها مجاهد وقتادة وغيرهما، وقد بقيت هذه الكلمة، فلا يزال فى ذريته من يقولها[2]، ويوحد الله، ويدعو إلى توحيده[3].

وقد ذكر السيوطى : «أن أجداد النبى ﷺ من آدم إلى إبراهيم، كانوا مؤمنين بيقين»[4]. فلما أتى إبراهيم بولده اسماعيل، قال قبل أن يتركه ، داعياً له: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾[5]. ويقول الطبرى فى روايته عن مجاهد : «استجاب الله لإبراهيم دعوته فى ولده، فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد موته»[6].

المزية الثانية :

وأما عن المزية الثانية، فإن النبى ﷺ ينتسب إلى بطن بنى هاشم، وبنو هاشم بطن ببطن مكة، ويرتبط مع سائر بطون قريش فى قرابة[7]. وتلك سيرة لداعية يظهر بين الناس، إذ يجد نفسه مرتبطاً بقربى مع سائر البطون. وأخرج البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : «أن النبى ﷺ لم يكن بطْن من قريش إلا وله قرابة فيه»[8].

وهكذا كانت تهيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ﷺ قبل ميلاده، فجعل آباءه من خير الخلق خلقاً، وديناً ومسلكاً، وجعل آباءه من بطن، يتصل بكل بطون قريش، اتصالاً قائماً على النسب والقربى.

---

(١) الزخرف: ٢٨ .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، جـ:٧، ص:٢١٢ .

(٣) الزمخشرى، الكشاف، جـ: ٣، ص: ٤٧٤ ، ط: دار المعرفة بيروت .

(٤) السيوطى : الحاوى للفتاوى ، جـ:٢، ص:١٢٦، ط: دار الفكر بيروت .

(٥) إبراهيم: ٣٥.

(٦) الطبرى، جامع البيان فى تفسير آى القرآن: جـ: ١٣، ص: ٢٢٨.

(٧) د. أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص: ١٢١ .

(٨) رواه البخارى ، فى صحيحه كتاب المناقب ، جـ:٤ ، ص: ٢١٧، ورواه البزار، فى كشف الأستار عن زوائد البزار ، كتاب علامات النبوة باب قدم نبوته - صلى الله عليه وسلم -، جـ: ٣، ص: ١١٢. ورواه الطبرانى فى الأوسط .

وكان النبى ﷺ مثال الصدق والأمانة فى سلوكه، حتى اشتهر بهاتين الصفتين، وسماه الناس: بالصادق الأمين، وتجلت عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ به فى هذه المرحلة، فلم يسجد لصنم قط، وكان يلتمس الهدى، متبعاً ما بقى من دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

اختيار الأمة الأولى للإسلام

يذكر العلماء: أن كمال كل نوع إنما هو محصول صفاته الخاصة به وصدور آثاره المقصودة به، وبحسب زيادة ذلك ونقصانه، يفضل بعض أفراده بعضاً، إلى أن بعد أحدهما سماء، والآخر أرضاً .

والإنسان مشارك لسائر الأجسام فى الحصول على الحيز والفضاء والنباتات فى الاغتذاء والنشوء، وللحيوانات فى حيويته بأنفاسه وحركته بإرادته وإحساسه، وإنما يتميز بما أعطى من القوة النطقية وما يتبعها من العقل، والعلوم الضرورية، والأعمال الصالحة المرضية وأهليته للنظر والاستدلال، وترقيه بذلك فى مدارك الكمال، وعلمه بما أمكن واستحال، فإذا كماله إنما هو بتعقل المعقولات، واكتساب المجهولات، وبالأخلاق الحسنة النابعة للأعمال الصالحات، فللإنسان فضل على سائر الحيوانات كلها فى نفسه وجسمه[1].

ولقد كان لظهور الإسلام فى الأمة العربية، دليل على مميزات وضعها الله سبحانه وتعالى فى العرب، واختارهم من أجلها ليكونوا أمة يبعث النبى ﷺ فيها وبلسانها، وينزل القرآن الكريم بلغتها، مراعياً جانب التفوق العربى، فى إعجازه ودقته. ولابد أن تكون هذه الأمة على مستوى ارتباط العالم كله بها، واتجاهه إليها عند كل صلاة وحج، وعلى قدرة تحمل مسؤولية إبلاغ الدعوة إلى كل الآفاق[2].

فأى أمة لها كل هذا فى تاريخ الإنسانية؟

أنها أولاً: الأمة التى يتحقق لنا من استقراء التاريخ: أنها نطفة البشر الأولى[3]، وأنها بدء حياة الإنسان، فإن سلامة الفطرة فى البشرية لاتكون على أتم

---

(١) الألوسى البغدادى، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، جـ:١ ص:١٨، ط: دار الكتب العلمية، بيروت .

(٢) د. أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص: ٩٩ .

(٣) أى: أنهم كانوا أكثر الناس حفاظاً على الأسباب، حتى لاتختلط . أحمد موسى سالم، لماذا ظهر الإسلام فى جزيرة العرب؟ المقدمة ط: دار الجيل ، بيروت

ظهورها بالبداهة، إلا فى هذه الأمة، التى تنطوى فيها الأمم، والتى تنفجر من صخريتها ينابيع الخصائص الأولى، نقية قبل أن تتدنس بصراعات الحياة، وتسقط فى أخاديد القهر ، وتدور فى منعرجاته ومآزقه، وهذه الأمة التى يقرر التاريخ الصحيح ابتداء البشر بها هى : الأمة العربية لاجدال. ضاربين صفحاً من القول الشائع بقدم التاريخ المصرى ، أو البابلى، فكلاهما ليس إلا أثراً من آثار الهجرات العربية القديمة، التى فاض بها قلب الجزيرة على أطراف الوطن العربى[1].

وهى ثانيًا: الأمة التى يقوم الدليل على أن الله ـ عز وجل ـ خاطبها بالفعل، وجعل لسان الحق لسانها، ودعوة الخير فى الناس دعوتها، وكتاب العدل فى البشر كتابها، ولقد قام الدليل الناصع الخالد على أنها هى: الأمة العربية، أمة القرآن، وأمة الإسلام، وأمة البيان[2].

وهى ثالثًا: الأمة التى يثبت بالدليل : أن لها من عناصر البيئة التى تحيا فيها ما يحفظ عليها كمال الفطرة الإنسانية التى نشأت عليها فى قوام البدن، وتقويم النفس، ذلك أن النفس والبدن فى اتحادهما على كمال الفطرة، يؤلفان اتجاه العقل السليم[3].

وقد أشار القرآن الكريم إلى خصائص العرب ، أهلتهم لحمل أكبر رسالة وأبقاها، قال تعالى: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**[4].

جاء فى تفسير الفخر الرازى: ووصفه لذريتـه بـذلك، لا يليق إلا بأمة محمد ﷺ، فعطف عليه بقوله تعالى: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ...﴾**، وهذا الدعاء يفيد كمال حال ذريته من وجهين:

---

(١) أحمد موسى سالم ، لماذا ظهر الإسلام فى جزيرة العرب . ص:١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق . ص١٤٨ .

(٣) المصدر السابق . ص:١٤٨ .

(٤) البقرة: ١٢٩.

أحدهما: أن يكون فيهم رسول ، يكمل لهم الدين والشرع ، ويدعوهم إلى ما يثبتون به على الإسلام.

وثانيهما: أن يكون ذلك المبعوث منهم ، لا من غيرهم[1].

وقال ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما -: ليس فى العرب قبيلة إلا قد ولدت رسول الله ﷺ مضريها وربيعيها ويمانيها[2].

والله ـ سبحانه وتعالى ـ تخير العرب من خلقه، وتخير الرسول ﷺ منهم[3].

قال ابن تيمية ـ رحمة الله ـ: «والذى عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم ، عبرانيهم وسريانيهم، روميهم وفرسيهم، وغيرهم.

وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بنى هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بنى هاشم، فهو، أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً.

وليس فضل العرب ، ثم قريش، ثم بنى هاشم، لمجرد كون النبى ﷺ منهم، وإن كان هذا من الفضل ، بل هم فى أنفسهم أفضل، وبذلك يثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفساً ونسباً»[4].

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الخلق، فاختار من الخلق بنى آدم، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً واختار من قريش بنى هاشم، واختارنى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار».

وعن واثلة بن الأسقع ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى كنانة من بنى إسماعيل، واصطفى من بنى كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم».

---

(١) الرازى ، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، جـ:٢، ص:٧١- ٧٢ . ط: دار الفكر ، بيروت .

(٢) ابن الجوزى ، الوفاء بأحوال المصطفى، جـ:١، ص: ٧٩، ط: بيروت .

(٣) الصالحى الشامى . سبل الهدى والرشاد، جـ١، ص:٢٦٩ .

(٤) ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم، جـ:١ ، ص: ٣٧٠- ٣٧١ .

ويذكر ابن خلدون فضل العرب، فيقول: «وهم أسرع الناس قبولاً للحق والهدى، لسلامة طباعهم عن اعوجاج الكلمات وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة ، المتهىء لقول الخير ، ببقائه على الفطرة الأولى، وبعده عما ينطبع فى النفوس، من قبيح العوائد ، وسوء الملكات»[1].

وأهم ماحفظ ديار العرب من اكتساح غيرها لها من الأمم فى غابر الدهر: «وكون العرب أهل شدة وبأس، وأباة ضيم، لاينامون إلا على الثأر ، ويصبرون على شظف العيش ، ويتبلغون بميسوره، وليست الرفاهية من شأن أكثر المعمور من أرضهم، ولذلك خاب الفرس والرومان والفراعنة والحبشة يوم حاولوا ان يستولوا على اليمن والحجاز، وما إليهما، مقدرين أن جزيرة العرب لاتساوى اكتساحها، وأن من الصعب إجراء الأحكام على أهلها، لبعد المسافات فى فلوات، لا أول لها ولا آخر»[2] .

لقد أفادت البحوث: أن لبيئة العرب ـ عند ظهور الاسلام ـ مقومات لم تكن متوفرة فى غيرها، من بيئات العالم القديم، لقد كانت مبرأة من القهر السياسى، والترف الحضارى[3].

وأهم عوامل المدنية فى جزيرة العرب، كون أهلها عرفوا فى كل العصور معاناة التجارة، ينقلون مع حاصلاتهم حاصلات الشرق إلى الغرب، وحاصلات الغرب إلى الشرق، واشتهروا بذلك. وكانت معرفة العرب بالأقطار المجاورة لاغبار عليها، وكثيراً ما كانوا ينزلون الولايات المجاورة. يساكنون أهلها، كأن تلك البلاد أجزاء متممة لديارهم، على اختلاف بينهم، وبين ساكنيها فى الطبائع والألسن[4].

وأن البحث يقف بنا على صفات إنسانية عديدة، أهلت العرب لتحمل مسؤولية الدعوة الإسلامية، ومن تلك الصفات:

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص: ١٣٢، ط: كتاب التحرير، سنة: ١٣٨٦هـ بالقاهرة .

(٢) محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية، جـ١، ص: ١٢٠، ط: الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة: ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

(٣) د. عبدالعزيز كامل، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية، جـ١، ص: ٦٣٣، من كتاب: البحوث والدراسات المقدمة لمؤتمر السيرة، ط: قطر سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠.

(٤) محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية، جـ ١، ص: ١٢٠.

أولاً: إن الأمة العربية جمعت بين صفات البدو والحضر، ومن هنا: كانت عصبيتهم الحادة، التى جعلت كل فرد يتصور نفسه ملكاً لايخضع لغير قبيلته، ولم تقم لهم بذلك دولة واحدة، وكان الرئيس فيهم كواحد منهم، بل كان يتقرب إليهم بالحيل وتحسين المعاملة، كسباً لودهم، وفوزاً برضاهم عنه[١].

وهذه العصبية فاقت حدها، فانقلبت إلى ضد المطلوب منها. لكن مافيهم من سلامة الطبع وبعدهم قليلاً من البداوة، جعلهم يقبلون الخضوع للدعوة الدينية «على أساس أن الوازع فى هذا الخضوع، لم ينشأ بسبب قهرى بشرى، أو استذلال سلطان، وإنما سببه من داخل أنفسهم كما أنه ليس خضوعاً لفرد أو لقبيلة، ولكنه خضوع لدين الله، الذى يبعد المرء كلية عن التحاسد والتنافس والبغضاء[٢].

وقد لاحظ ابن خلدون طبيعة العرب فى الإباء والشمم فذكر: «أنهم لا يجتمعون إلا بعقيدة دينية، فإذا كان الوازع لهم من أنفسهم ذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المهذب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبى الذى يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذموم الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، ثم اجتماعهم حصل لهم التغلب والملك»[٣].

وهكذا ظهرت الدعوة الإسلامية فى أمة جمعت بين البدو والحضر هى: أمة العرب، فحملتها بكفاءة، وبلغتها إلى الناس أجمعين.

ثانياً: عرف العرب بدواً وحضراً بالشجاعة والجرأة ، والكبرياء العنيد، كبرياء الرحل الحر، حتى صار العرب أشجع الناس[٤]، وأما كون العرب أشجع من غيرهم، «فلأن الشجاعة من الصفات الغريزية، والسجايا الطبيعية، وقوة للنفس معنوية، لاتدرك إلا بآثارهما وغاياتها ولاتعلم إلا بمقتضياتها، وهى: الإقدام فى

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ١٠٦.
(٢) المرجع السابق .
(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص: ١٣٢ .
(٤) د. يوسف خُليف، الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى، ص: ٧٣، ط: الأولى ، دار المعارف، بمصر. ود. على عبدالحليم محمود، عالمية الدعوة الإسلامية، جـ:٢ ص٥٠٦ط: الثانية، سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. الناشر: دار عكاظ للطباعة والنشر.

مواضع الإحجام، وعدم المبالاة بالحياة، وكلما كانت هذه الآثار أعظم، كان مبدؤها أقوى وأتم، والعرب لم تزل رماحهم متشابكة، وأعمارهم فى الحروب متهالكة، وسيوفهم متقارعة، وأبطالهم فى ميادين القتال متنازعة، قد رغبوا عن الحياة، وطيب اللذات»(١).

ويكفى أن نعرف: أن العربى لم يسمح بمرور قوافل أجنبية للتجارة فى أرضه، إلا تحت أسرته، وبعد موافقته، ولقد كان لأيام العرب التى نشبت قبيل ظهور الدعوة، واستمرت طويلاً فى أماكن متعددة، أثر فى تكوين العرب على الشجاعة والتحمل، وقبول المخاطر.

وإن الجيل الذى عاصر ظهور الدعوة، هو: الجيل الذى ولد ونشأ، بين حديث الدم، وصوت الرياح، ولذلك تعد هذه الأيام مدرسة ناجحة فى تخريج رجال الدعوة الاقوياء(٢) .

ثالثاً : وما تمتع به العرب من صفات أهلتهم لأن يكونوا الأمة الأولى للدعوة الإسلامية، ماتمتعوا به من ملامح العلم فى القول والعمل، فقد كان العرب أقرب للعلم من غيرهم، «لأن الحلم إمساك النفس عن هيجان الغضب، كما أن التحلم إمساكها عن قضاء الوطر، والحلم من آثار العقل، وغير منفك عنه»(٣).

وما الكناية فى كلام العرب ولغتهم، إلا حساسية مرهفة، وصيانة للسان من القول البذىء، يستعان بها فى الأسلوب، عوضاً عن التصريح بالقبح وما يستكره(٤) وقد كان عندهم كلمة يقولونها فى مواطن الثورة والغضب، فيسكن الغضب، وتهدأ الثورة، هذه الكلمة هى :(إذا ملكت َفاسجع)(٥) ومن حلمهم العملى: ما روى أن قيس بن عاصم المنقرى كان يحدث أصحابه يوماً. وهو جالس حبواً، فجاؤوا بابن له قتيل، وابن عم له كتيف، فقالوا: «إن هذا قتل ابنك هذا». فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته. ولما فرغ من حديثه التفت إليهم،

---

(١) الألوسى البغدادى، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، ص: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ١٠٧ .

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، ص:٩٩.

(٤) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ١٠٧ .

(٥) أى: إذا ظفرت فأحسن، وإذا قدرت فسهل وأحسن العفو. الألوسى، بلوغ الأرب، ص: ١٠١، وابن منظور، لسان العرب، جـ: ١ ص: ١٠٢..

وقال: اين ابنى فلان فجاء. فقال: يابنى قم إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فادفنه، وإلى أم القتيل فاعطها مائة ناقة، فإنها غريبة. لعلها تسلو عنه[1].

رابعاً: ومما اتصف به العرب وتمتعوا به: الوفاء، وهو يعد دليلاً على سمو نفسياتهم ، واستقامة شجاعتهم، واعتدال حياتهم، فما نقضوا عهداً، أو خالفوا وعداً، وكانوا يرون: أن الغدر من كبائر الذنوب، فحكموا بذلك قوتهم وسيطرتهم على أنفسهم[2]، فمع الشجاعة فى العرب كان الحلم الواسع، والوفاء الرائع، وهاتان الصفتان تجعلان الشجاعة تبذل فى موضعها، وتظهر حين يستدعيها المقام، ولا تبدو فى تهور أو طغيان، وإنما تكون حماية للشرف، وصيانة للمنزلة والعز والسلام[3].

وأن اجتماع الشجاعة، والحلم، والوفاء فى أمة، يجعلها بعيدة عن الاستذلال، وعن الاعتداء، وعن الضرر، وإذا ما اشتهروا بهذه الصفات حازوا الثقة، ونالوا التقدير، واستحقوا التصديق فى كل ما يقولون[4].

وهكذا كان العرب الأمة التى ظهرت فيها الدعوة، فحملتها إلى الناس فى كل أرجاء الأرض، تصحبهم ثقة الناس فيهم، ومعهم فى كل مكان التقدير والتصديق والآمان.

خامساً : لقد كان العرب أكمل الناس فى الفهم، وكانوا لايبارون قوة ذكاء، وإصابة حدس، وحدة ألمعية، وصدق فراسة، يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم، كأن قد شاهدوه، ويصف لهم الحدس الصائب حال الورد قبل أن يروه[5].

سادساً: كذلك قد تمتع العرب بفكر عقلى متقدم، جعلهم يلامسون التوحيد عن قرب، فجميعهم أقر بالإله الأعظم، الذى يعلو كافة الالهة التى هى وسطاؤهم عنده، وشفعاؤهم إليه[6].

---

(١) الألوسى: بلوغ الأرب جـ: ١، ص: ١٠٢.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية ص: ١٠٨.

(٣) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ١٠٧ .

(٤) السابق، ص: ١٠٨ .

(٥) الألوسى، بلوغ الأرب، جـ:١، ص: ١٩ .

(٦) د. محمد رشاد خليل، ملامح من دور الإسلام فى بناء العمارة العربية قبل البعثة المحمدية، ص: ٦٠٧، ط:الأولى، سنة: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

وتعد ظاهرة الحنفاء: دليلاً على مستوى التقدم العقلى عند العرب، فقد خطب الحنفاء فى المجتمعات بأفكارهم، ولم يقف فى وجههم عربى، بل إن المشركين العرب، كانوا يعتزون ببقايا دين إبراهيم - عليه السلام - ويعدون خدمة البيت، وحجيجه شرفاً يورثونه لأبنائهم وأحفادهم[١].

ويبدو سمو العرب جميعاً فى فكرتهم عن الإله الأعظم، حين نقارنهم بسائر الأمم فى إيجاز، ذلك لأننا نرى الروم برغم أن المسيحية دين التوحيد، فإنهم أبعدوها عن حقيقة التوحيد، واشتغل مفكروها بفلسفات جوفاء عقدت الدين، وجردته من بساطته، وجعلت العامة فى حيرة من فكرة الطبيعة الواحدة لذات المسيح، أو الطبيعتين، وقدسية العذراء، وبشريتها، إلى غير ذلك[٢].

واليهودية تحولت إلى مذاهب متناقضة، لايجمعها إلا الإيمان بعنصرية جنس مقدس، هو العنصر اليهودى، ولا يوحدها إلا شعار الخداع لكل البشر، ماعدا اليهود[٣].

والفرس بعد أن كانوا يتقربون للنور والظلمة، على أساس أنهما رمزان للخير والشر، أصبحا يعبدانهما على أساس أنهما اثنان ويعبدون غيرهما من المظاهر الطبيعية[٤].

سابعاً: من الصفات التى تميز بها العرب: انهم أحفظ من غيرهم، فحفظوا على سبيل التفصيل أيام حروبهم ووقائعهم، وما قيل فيها من شعر وخطب[٥].. وعلى الجملة فهم يملكون قوة حفظ خارقة عند الخاصة والعامة، ومع مر الأيام، صار الحفظ ملكة لديهم، توارثوها جيلاً عن جيل[٦].

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية ص: ١٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٠٩ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الألوسى البغدادى، بلوغ الأرب. جـ:١، ص:٣٨ .

(٦) لمعرفة المزيد من خصائص وصفات العرب، انظر: عبدالرحمن الكواكبى، أم القرى، وهو: ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية، ط: الثانية، سنة: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، طبع ونشر: دار الرائد العربى، بيروت .

فالدعوة الإسلامية أثمرت أكلها بظهورها فى الأمة العربية، إذ ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضرية، وأخلاقهم الرفيعة، وشجاعتهم الحليمة الوفية، وذكاؤهم الحاد، وفهمهم الدقيق، وحافظتهم القوية، إذ جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا، فنشطتها وسعت بها، وأزالت منها السلبيات الموروثة، فوجد العرب أنفسهم بعد الإسلام تلقائياً يبذلون حماستهم وقوتهم للدعوة الإسلامية، ويعطون شجاعتهم وإمكاناتهم لأمر رسول الله ﷺ وفى خدمة دعوته، فتحركوا إلى كل مكان من أجل نشرها، تاركين كل ما يهمهم، وأصبح من تعصبهم اندفاعاً لتنفيذ أوامر الدعوة الإسلامية وتعاليمها.

وهذه «الصفات التى اتصف بها العرب دون كثير من الناس ساعدت بغير شك، على أن ينجحوا فى نشر الدين، وأن يذهبوا به إلى حيث شاء الله، ولكن بعد أن هذب الإسلام من أخلاقهم، وأصلح من عيوبهم، وحال بينهم وبين كثير من الشرور التى كانوا عليها. . . فى جاهليتهم»[1].

وهكذا وضح السر فى اختيار الأمة العربية، لتظهر الدعوة الإسلامية فيها أولاً. والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم حيث يجعل رسالته.

* * *

(١) د. على عبدالحليم محمود، الدعوة الإسلامية، جـ: ٢، ص: ٥٠٧ .

عناية الله فى اختيار المكان لظهور الإسلام

من دلائل الحكمة الإلهية العليا : أنه - سبحانه - لما اختار مكة لتكون أماً لبلاد العالم، واختار مسجدها ليكون أول بيت وضع للناس، فقد هيأ بيئتها، ومناخها وطبيعتها، لتكون أصلح مكان فى الأرض، لبناء وثبات عقيدة الإسلام العالمية[1].

وقد اشتهرت مكة منذ القديم بوضعها الخاص المتميز عن سائر المدن، وقد حفظ العرب لها هذه المنزلة، فأحاطوها بما يليق بها من حب وعناية وتقدير، فهى عندهم (أم القرى) وأصل المدائن، وبها الكعبة المشرفة، التى تحمل فى ثناياها ذكرى إبراهيم ـ عليه السلام ـ وترمز إلى الخير المبارك من الله ـ تعالى ـ[2].

ولقد توارث العرب منذ القديم حقيقة تتضمن: أن العرب بسبب الكعبة فى أمن وشبع، لدرجة أنه لما ضاق الأمر ببنى إسرائيل وجُرهم، وهم فى مكة، تفسحوا فى البلاد، وأخذوا معهم بعضاً من حجارة الحرم يعظمونه، ويلتمسون فيه الخير، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة[3].

وتذكر كتب السيرة: أن العرب كانوا يعتقدون أنه ما من ظلم يقع فى مكة، إلا وتنزل العقوبة بالظالم أياً كان[4]، وما أراد مكة أحد بسوء إلا أهلكه الله[5].

وكثيراً ما حذر العرب حكماؤهم، لهذا يقول أحدهم: إياكم والإلحاد فيه (الحرم) فإنه بوار، وأيم الله لقد علمتم أنه ما سكنه أحد قط، فظلم فيه وألحد، إلا قطع الله ـ عز وجل ـ دابرهم، واستأصل شأفتهم[6].

---

(١) عبدالقادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول فى مكة، ص:١٤، ط: دار العلوم للطباعة بالقاهرة، سنة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٧٦ .

(٣) الأزرقى، أخبار مكة، جـ:١، ص: ٤٦، ط:الثانية، ١٣٥٢هـ الناشر : المطبعة الماجدية .

(٤) د. أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية، ص: ٧٦ .

(٥) فؤاد على رضا، أم القرى، مكة المكرمة، ص: ١١٧ .

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ١، ص: ٤٨ .

وكان العرب جميعاً فى الجزيرة العربية يعرفون لمكة، وللكعبة هذه المكانة، فيحيطونها بالجلال والتقدير، ويذكرون دائماً أن أهل مكة أهل الله، ولم يندهشوا كثيراً يوم هلك (أبرهة) وجيشه فى مكة بل قالوا: أهل الله دافع الله عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم[1].

كان هذا التقدير لمكة، أحد أسباب اختيارها لظهور الدعوة، كما أن الموقع الجغرافى للجزيرة العربية على العموم، ولمكة على الخصوص ساعد على نشر الدعوة وإبلاغها . . . ومما يجدر أن نتنبه له أن هناك بعض الخصائص التى يحسن عرضها، لنلتمس من معرفتها: الحكمة التى كانت من وراء اختيار المكان لظهور الدعوة . ويمكن عرض الخصائص على النحو الآتى:

أولاً: أن آخر ما وصل إليه العلم فى الدراسات التى قامت بها أقسام المساحة التصويرية بمراكز البحوث، والتى استخدمت فيها الأجهزة الالكترونية، والآلات الإحصائية ، والحسابات الرياضية، والمنحنيات الاعتبارية لخطوط الطول والعرض، والتى استهدفت تعيين مواقيت الصلاة فى أى زمان وأى مكان، على سطح الأرض، لجميع أيام السنة، هو أن (أم القرى) هى وسط اليابسة فى الكرة الأرضية تماماً، وأن الكعبة الشريفة لذلك هى المركز تحديداً، ولأن الأرض وهى تتحرك حول نفسها، وحول الشمس لاتنقلب على نفسها فإن هذا المركز لايتغير، وتستمر الكعبة المشرفة هى الوسط دائماً[2].

وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾[3]. وقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾[4]. وأم القرى: أصل القرى وهى مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها، لأن فيها البيت، ومقام إبراهيم. والعرب تسمى أصل كل شىء: أم، ومن حولها من أهل البدو والحضر [5] ومن سائر طوائف بنى آدم من عرب وعجم [6]. وسائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة (أم القرى)،

---

(١) المصدر السابق .

(٢) د. عبدالرزاق، أم القرى مركز الوسط الأمين. مقال بسجل العرب المجلد: ٥١، العددان: رجب وشعبان، سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ص:٤١، الباكستان .

(٣) الأنعام: ٩٢ .

(٤) الشورى: ٧ .

(٥) الفخر الرازى، التفسير الكبير ، المجلد :١٤. ص: ١٤٨ .

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٣، ص: ٢٩٤.

لأنها أشرف من سائر البلاد[1]. قال رسول الله ﷺ: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله»[2].

يقول السهيلى - رحمه الله تعالى - :«وفى التفسير أن الله- سبحانه وتعالى- لما قال للسموات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[3] لم يجبه بهذا إلا أرض الحرم»[4].

ويقال - استناداً إلى روايات -: إن موضع البيت أول بقعة وضعت من الأرض. فقد روى البيهقى فى الشعب عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما -، قال: قال رسول الله ﷺ «أول بقعة وضعت فى الأرض موضع البيت، ثم مدت منها الارض، وأن أول جبل وضعه الله - تعالى - على وجه الأرض. أبو قبيس[5]، ثم مدت منه الجبال»[6].

وليس فى الوجود كله مكان حظى بالشرف والطهر والمكانة فى ضمير الإنسانية عبر أجيالها وعصورها المتعاقبة كما حظى المسجد الحرام ومن ثم جمل التاريخ به، واحتفى حفاوة لم تعهد لغيره فى دنيا الناس .

قال تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[7].

وحسبنا هذه الآية وثيقة لتاريخ البيت فى تلك البقعة ، التى سماها الله: المسجد الحرام، وسماها: البيت العتيق. فأى مسجد ذاك؟ وأى بيت هو؟

---

(١) المصدر السابق جـ:٧، ص:١٧٩ .

(٢) رواه أحمد فى مسنده، جـ:٤، ص: ٣٠٥ . ورواه الترمذى، فى صحيحه، كتاب المناقب ، باب فضل مكة، جـ:٥، ص:٧٢٢ وقال: حديث حسن غريب صحيح .

(٣) فصلت: ١١ .

(٤) السهيلى، الروض الأنف، جـ:١، ص:١٢٨ .

(٥) أبو قبيس، هو: الجبل الشرقى المشرف على الصفا . والأزرقى : أخبار مكة، جـ:٢، ص: ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٦) رواه البيهقى ، فى شعب الإيمان، عن ابن عباس، ولم ينسبه للسيوطى فى الدر المنثور، جـ:٢، ص: ٢٦٦ إلا إليه .

(٧) آل عمران: ٩٦، ٩٧ .

هو الكعبة التي جمع الله لها وصف المسجدية والحرمة والبيتية فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾[3].

وإن فى وصفه بالعتاقة لإيذاناً بالأصالة فى الشرف، وتأكيداً بأنه أول بيت وضع فى الأرض للعبادة .

فالبيت الحرام: هو النقطة الوحيدة التى تميزت دون سائر بقاع الدنيا، وتمركزت فيها وحدها ركائز الحق، وتغلغل فى أعماقها جوهر التوحيد، وكأنها تفردت لتمثل بؤرة للضوء ، صالحة لإشعاع الهداية فى الضمير الإنسانى[4].

ثانياً: فإن البحث الموضوعى يبرز لهذه البيئة ، مقومات لم تكن متوفرة فى غيرها من بيئات العالم القديم، وإن كانت لها ـ كأى بيئة أخرى ـ مشكلاتها التى ينبغى عليها أن تقابلها .

فلقد كانت الجزيرة العربية متوسطة بين قارات العالم القديم . كانت مفتوحة على إفريقيا من الجنوب الغربى، والشمال الغربى، ولها بها صلات برية وبحرية عبر سيناء والبحر الأحمر، ومضيق باب المنتدب، وخليج عدن، وبحر العرب، وظلت هذه الصلات قائمة عبر التاريخ، وكانت على صلة بأرض الروم فى ديار الشام وقتئذ، وما وراءها فى الغرب والشمال الغربى، وكانت على صلة بأرض فارس وما وراءها براً وبحراً إلى قلب آسيا، وأقطارها الموسمية فى الجنوب والشرق[5].

---

(١) البقرة: ١٤٩-١٥٠ .

(٢) المائدة: ٩٧ .

(٣) الحج: ٢٩ .

(٤) د. أحمد عبدالرحيم السايح، مكانة الحرمين فى الإسلام، بحث ألقى بمؤتمر قدسية الحرمين، الذى عقد بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية بالقاهرة، من :٢٣- ٢٥ ربيع الأول، سنة: ١٤٠٨هـ الموافق: ١٥-١٧نوفمبر سنة: ١٩٨٧م وقد نشرته مجلة الجندى المسلم فى العدد الرابع والخمسين، ص: ٢٤-٢٩، الصادرة فى شهر ذى الحجة، سنة ١٤٠٩هـ - الموافق: يوليو ١٩٨٩م من السنة السادس عشر.

(٥) د. عبد العزيز كامل، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية، جـ:١، ص٦٣٢، من البحوث والدراسات التى قدمت لمؤتمر السيرة والسنة الثالث الذى عقد بقطر.

ولهذا تعد الجزيرة العربية بموقعها الجغرافى سرة العالم لأنها تقع فى وسطه، وتتصل بكل أجزائه وأقاليمه. ففى شرقها: توجد الدولة الفارسية، وفى شمالها: توجد الدولة الرومانية، وفى غربها: توجد مصر والحبشة، وفى جنوبها: توجد الهند، وغيرها. وقد ساعد على التغلب على عوائقها الطبيعية من مرتفعات وبحار: أن العربى كان على خبرة كاملة بشعابها، وطرق مواصلاتها[1].

وقد انعكس هذا على علاقات السلالات البشرية فيها، فكانت من أنسب الأماكن وقتئذ، إن لم تكن أنسبها جميعاً للقاء السلمى، والتعايش بين البشر، كانت ـ أيضاً ـ وسطاً من حيث المكان، ولم تكن الجزيرة العربية منطقة نائية، كالشرق الأقصى، أو جنوب أفريقيا، أو غرب أوربا[2].

ثالثاً : تقع مكة والحجاز بوجه عام فى نطاق منطقة الحرارة القصوى، ويرجع الجغرافيون ذلك إلى: أن قسماً كبيراً من الجزيرة العربية يقع فى منطقة الزهو المدارية، ذات الضغط العالى، والمطر القليل، والقسم الآخر يقع فى حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة، التى تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب[3].

ولقد أدى هذا الوضع: إلى حالة جدب شديدة، نشأت من قلة المطر، وندرة سقوطه، لدرجة أنه لايسقط المطر فى بعض أماكن الجزيرة إلا كل ثلاث سنوات، أو أربع، وبجانب قلة المطر لاتوجد أنهار فى الجزيرة تمد الأرض بالرى، وتعطى للناس معاشهم وأسباب الحياة، هذا الجدب الصعب جعل الناس يتجهون إلى السماء، ضاجين بالاستغاثة ضارعين بالدعاء[4].

وقد ذكر الباحثون: أن العرب تأتيهم الأمطار فى أوقات، وتنقطع عنهم فى غيرها، فكانوا لذلك شديدى التعلق بها، وتراهم كثيراً ما يقلبون وجوههم فى السماء، وذلك من أعظم المذكرات التى تذكرهم بالله وحاجاتهم إليه[5].

(١) عطية صقر، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص:٩٨-٩٩، ط: الأولى مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع، سنة: ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص:٨٢.

(٣) د. عبدالعزيز كامل، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية، جـ١، ص:٦٣٢.

(٤) د. يوسف خُليف، الشعراء الصعاليك.. ص: ٦٢.

(٥) علوى بن طاهر الحداد، القول الفصل فيما لبنى هاشم وقريش والعرب من الفضل، جـ:٢، ص:١٤٦، ط:الأولى، الجزائر سنة: ١٣٤٤هـ

رابعاً : فإن حالة الجدب - المذكورة - جعلت الغالبية فى العرب بعيدة عن الترف والنعيم ، منغمسة فى الفقر والحاجة ، وهذا الوضع بدوره جعل الطبقة الثرية قليلة العدد، مشهورة بالاستعلاء على الناس، والاستغلال لبقية الفقراء والمحتاجين، وكان من مفاسدها: أن نشرت الربا الفاحش بمكة، وجعلت الفائدة أضعاف المال الأصلي. وقد صور القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى - وهو ينهى المؤمنين عنه-: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴿١٣٠﴾ ﴾[1].

يقول المفسرون: كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله، زاد فى الأجل، حتى يستغرق بالقدر الطفيف مال المدين كله[2] وأيضاً: فلقد أطبق أغنياء مكة على جميع الشؤون الاقتصادية بها، فاشتروا الرقيق واستعبدوا الفقراء فى توجيه قوافل التجارة الضخمة، وهذا وضع يجعل الفقراء يستجيبون تلقائياً لدعوة عادلة، قائمة على المساواة، وتحريم الظلم وإحساس الفرد أياً كان، ويندفعون إلى مساعدة هذه الدعوة التى تمنوها لخلاصهم، واستشعروها من قبل، فى أنفسهم وخيالاتهم.

ومن هنا كان الفقراء ينصتون للدعوة، ويتدبرونها . . . أما المترفون الأثرياء، فهم أعداء كل إصلاح، وهم معارضون للرسالات دائماً، حفاظاً على وضعيتهم واستغلالهم[3]. لكن سرعان ما انهارت الطبقة المترفة أمام الدعوة، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً بعد الفتح.

يقول ابن خلدون: «إن الترف يبدو فى بدايته قوة، لكنه فى النهاية ضعف يمضى ولا أثر له»[4].

والمعروف عند الناس: أن الترف مفسدة، وأنه يميل بالقوى إلى الدعة، لما يتعود عليه أثناء الترف من حياة راغدة لينة[5].

---

(١) آل عمران: ١٣٠ .

(٢) الزمخشرى، الكشاف، جـ:١ ص:٤٦٣ .

(٣) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص:٧٩ .

(٤) ابن خلدون، المقدمة. ص: ٤٩٢ .

(٥) فؤاد على رضا، أم القرى، مكة المكرمة، ص: ١١٥ .

خامساً: لقد أدى هذا الجدب ـ الذى أشرنا إليه ـ بالعرب وأهل مكة، إلى أن يبحثوا عن وسيلة للعيش، فكانت التجارة، وقد نظموها فى رحلتين :

إحداهما: إلى الشمال صيفاً .

وثانيهما: إلى الجنوب فى أثناء الشتاء.

وأدى اختلاط التجار العرب بالروم والفرس والهنود والأحباش، خلال جولات التجارة: أن أخذوا كثيراً من نظمهم، ونقلوها إلى الجزيرة العربية وقد اشتملت الحياة العربية على سائر النظم والعقائد[1].

ويلحظ أن مكة ضمت العدد العديد، من الملل والأعراف، بسبب وقوفها فى مكان تلتقى فيه جميع الطرق الآتية من كل الجهات، فالطريق الغربى الذى يبدأ من ظفار جنوباً، وينتهى عند تيماء، يمر بمكة. والطريق الشرقى الذى يبدأ من ظفار جنوباً، وينتهى عند صور بلبنان يتصل بمكة بواسطة طريق عرضى يبدأ من مكة، وينتهى عند القطيف. وتتصل مكة ـ أيضاً ـ بالبحر الأحمر عن طريق مينائها جدة، وبذلك كانت مكة معبراً رئيسياً للقوافل الآتية من الشمال أو الجنوب فتأثرت بأوضاعهم[2].

وهذا الأمر ساعد على وضع الأسس الإصلاحية التى لا تختلف من مكان إلى مكان، وتناسب كل الأجناس، وتناقش كل المعتقدات على اختلافها.

سادساً: أن البيئة المكية بيئة طاردة نافية لمن يقيم فيها، ويدل على هذا المعنى تسمية مكة (بكة) فى القرآن. وهو اسم مشتق من البك، وهو الطرد والنفى، سميت بذلك، لأنها تبك المقيمين فيها. وتدفعهم إلى غيرها من البلدان والأقطار[3].

وإنما كانت مكة طاردة، لقسوة الحياة فيها، فى الأحقاب البعيدة من التاريخ، فقد وصفها إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وهو يودع ولده إسماعيل، وأمة هاجر

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٨٠ .

(٢) د. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك. . . .، ص: ١٢٥.

(٣) عبد القادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول فى مكة، ص: ١٥ .

عند البيت الحرام، قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾[1] فهى بيئة مقفرة متحجرة الأرض، كثيرة الجبال، ملتهبة الجو، منخفضة المكان، تحيط بها الجبال من كل جهاتها، فإذا تسعرت الشمس، كانت نيرانها مسلطة على مكة من كل أقطارها، فالصخور على أرضها، ومن حولها تلفح الأجساد، إلى جانب اللهب المسلط على أهلها، من أشعة الشمس المباشرة لرؤوسهم من فوق، فلا ماء، ولا زرع، ولا ثمر. ومن ثم فلم تكن مكة بلداً يهاجر إليها الغريب، إلا لأسباب مادية بحتة. أما قريش: فقد كان منصبها اللغوى والدينى سبباً رئيسياً فى بقائها فى مكة[2].

فالمادة وحدها، أو الضرورة وحدها، هى التى كانت تتحكم فى بقاء سكان مكة فى مكة، فى تلك الأيام البعيدة، أما أن تكون مكة أرضاً صالحة لنماء الأفكار الإنسانية، وتفاعلها مع غيرها من الأفكار الفلسفية التى كانت فى تلك العصر، فهذا شيء أبعد مايكون فى التصور وفى الواقع، فالفكر ـ ولاسيما الفلسفة ـ لا يمكن أن ينمو إلا فى بيئة مستقرة ورفيقة بالإنسان[3].

سابعاً: لقد فرضت الصحراء على العرب طباعاً وأخلاقاً خاصة تناسبهم، وألزمتهم بتقاليد لايستطيعون عنها حولا، ثم صارت لهم على مر السنين جبلة وفطرة، وصارت لهم عنوانًا بين الناس ، وصقلتهم الحروب التى اكتوت الجزيرة بنارها ردحاً من الزمن، ونستطيع أن نزعم بأن تلك الحياة الجاهلية الضنكة، والحروب التى اشتعلت، قد صهرتا ذلك المجتمع وتقاليده . . . فنشأت وتكونت مجموعة من القيم والمثل، تعارف عليها المجتمع، وآمن بها، واحترمها والتزم بها[4].

---

(١) إبراهيم: رقم: ٣٧ .
(٢) عبدالقادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول فى مكة؟ ص:١٥، ١٦ .
(٣) السابق، ص: ١٦، بتصرف .
(٤) د. عفيف عبدالرحمن، المثل والقيم. ص: ١٢٧، من مجلة: مجمع اللغة العربية .

ثامناً: فإن التأخر الاقتصادى فى الجزيرة تسبب فى وجود طبقة عرفت بطبقة الصعاليك، وقد اتخذت هذه الطبقة لنفسها مراكز فى الخلاء الواسع(١). ووجود هذه الطبقة دليل على ضيق موارد الجزيرة حتى مع وجود موارد التجارة... ومن هنا: نستطيع فهم السبب فى الهجرات(٢) التى خرجت من الجزيرة العربية فى أفواج متتابعة، إلا أن ثقل القوة فى العالم، وتمركزها آنذاك فى دولتى الفرس والروم اللتين استولتا على جميع الجهات المحيطة بالجزيرة العربية، حبست القبائل فى مكانها، الأمر الذى أدى إلى توسيع هوة الخلاف بين القبائل بسبب القنص والصعلكة، فقامت المنازعات المتكررة بينهم، وقد استفادت الدعوة الإسلامية من هذ الوضع، فلم تصطدم بتكتل واحد، يطغى بقوته، بل كان هناك دائماً صوت مع النبى ﷺ من القبائل أثناء ضعف المسلمين وقلتهم، واستفادت الدعوة كذلك بأن صفت ما بين العرب من خلاف، وأزالت الاضطرابات الموجودة فيهم، فتوحدوا.

تاسعاً: يرى كثير من أهل الدراسة: أن الجزيرة العربية أحطيت بحواجز طبيعية منيعة، إذ وجدت المياه فى ثلاث من جهاتها والجهة الرابعة كانت مرتفعات وسهولاً فى الشمال. وهى حواجز تحتاج فى عبورها إلى تدريس وتمرس شاق، مايتعلمها العربى إلا لحاجته، أما غيره: فليس له إلى ذلك حاجة... وبذلك وقفت هذه الحواجز كسد قوى أمام المجموعات الغازية، من الفرس أو الروم(٣).

---

(١) الأردنى، المجلد: ١٣-١٤، ذو الحجة، ط: الأردن.

(٢) د. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى، ص: ١٣٤.

أما هجرات الفتوحات الإسلامية: فقد كانت أسبابها ودوافعها تنطلق من الإيمان بالإسلام، وتبليغ الرسالة، وحباً فى أن يكون كل مهاجر ينطبق عليه قول الرسول ﷺ: «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم». فهجرة الفتوحات الإسلامية غير الهجرات التى حدثت فى الجزيرة العربية قبل الإسلام إذ أن الدافع مختلفة. وأثبتت الدراسات: أن هجرة المسلمين لتبلغ الإسلام لم تكن أسبابها اقتصادية، بدليل، العربى الذى كان له ثراء عريض فى مكة، وهو: (ضمرة بن جندب) حينما علم بهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، قال: احمولنى إليه، وكان مريضاً لا يستطيع المشى، وقد حملوه حتى مات فى الطريق، واختلف أهل المدينة فى شأنه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]، وبهذا لاتنسحب هذه الهجرات على هجرة المسلمين، لنشر الإسلام وتبليغه فى كافة أصقاع المعمورة فيما بعد. ابن كثير، تفسير القران العظيم ج: ٢، ص٣٤٦- ابن الأثير، أسد الغابة، جـ: ٣، ص: ٦١.

(٣) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٨٢.

وقد ترتب على ذلك: أن الغزاة لم يستطيعوا الوصول إلى سرة الجزيرة العربية، فاحتفظ العربى بسجيته وفطرته، ولم تداخله تناقضات الفكر، ولا متاهات الفلسفة والجدل.

ولو قارنا سائر الأماكن، بالمكان الذى اختير لظهور الدعوة الإسلامية، لوجدنا تلك الأماكن غير صالحة، لأن تظهر الدعوة فيها.. فالفرس والروم ملكا قوة سياسية وعسكرية، استعملت فى العنف والقسوة، كما أن سائر الأمم فى هذا العصر كانت مهتمة بأفكار دينية خاصة بها... ولم يحدث أن جمعت واحدة منها ما جمعته الجزيرة العربية من مختلف الملل والعقائد. كما أن كافة الهيئات حرمت أبناءها من النشاط الذى اكتسبه العربى، بسبب خصائص بيئته، وأيضاً: فإن النزعة الدينية كانت راقية عند العرب، بسبب مكة (أم القرى)، والكعبة، كما أن الجزيرة العربية تقع فى وسط العالم المعروف آنذاك مع صيانتها بالحواجز[1].

فالمكان الذى ظهرت فيه الدعوة الإسلامية، أحاطه الله بمجموعة من الظروف البيئية، جعلته مكاناً ملائماً للدعوة الإسلامية[2].

* * *

---

(١) محمد حسنين هيكل، حياة محمد، ص: ٧١، ط: السابعة، دار القلم، بيروت.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٨٥.

عناية الله فى اختيار الزمان لظهور الإسلام

إن عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ التى تجلت فى اختيار المكان الأول لظهور الدعوة، تدفع بالباحث والمفكر إلى تلمس بعض مميزات الزمان، الذى ظهرت فيه الدعوة الاسلامية، للوقوف على بيان فضل الله وكمال عنايته ـ جل شأنه ـ.

ففى أوائل القرن السابع، وعلى حين فترة من الرسل، ظهرت الدعوة الإسلامية، هداية للناس أجمعين. . . وأول مايطالع الباحث فى الإشارة إلى عناية الله -سبحانه وتعالى-: قول الرسول -ﷺ-: «بعثت من خير قرون بنى آدم، قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه»[1].

والمراد بالبعث -كما يقول العلماء-: «تقلبه فى أصلب الآباء من الأبعد إلى الأقرب فالأقرب[2].

ولايخفى على أحد: أن العلم يتعلق بسائر الحيثيات التى تحتاجها الدعوة، لكى تصل إلى هدفها، ومن بين هذه الحيثيات المختارة؛ الزمن الذى ظهرت فيه الدعوة، إذ لم يكن العالم كله فى تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء، ولا يقال فيها بالإجمال، إلا أنها حالة فساد وانحلال. فلا حالة للعلم، ولا للسياسة، ولا للأخلاق، ولا للمرافق العامة، لا توصف بتلك الصفة، إلا وتغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات.

وإذا نظرنا إلى الأحوال فى جملتها، وجدنا أنها هى الأحوال التى تنادى فى كل مكان بالحاجة إلى الدعوة الدينية.

إن ظاهرة واحدة، كانت تلف تلك الظواهر جميعاً فى طياتها وهى فقدان الثقة بكل شىء، ولا معنى لذلك فى كلمة موجزة، إلا أن الثقة هى المطلوبة، وأن الإيمان هو دواء هذا الداء الذى استشرى فى كل مكان[3].

---

(1) رواه البخارى، فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب المناقب، باب صفة النبى ﷺ، جـ: ٦، ص:٥٦٦.
ورواه أحمد، فى المسند، جـ: ٢، ص: ٣٧٣-٤١٧. ورواه ابن سعد، فى الطبقات الكبرى ج: ١، ص: ٢٥.

(2) أبو الطيب البخارى، عون البارى لحل أدلة صحيح البخارى جـ: ٥، ص: ٣٧، ط: مطابع قطر الوطنية، سنة: ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(3) العقاد، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، جـ: ٧، ص: ٢٣٦، ط: دار الكتاب اللبنانى، سنة: ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

الحالة الدينية :

كانت حالة الناس قد وصلت من الفساد الى النهاية، وبلغت البشرية الدرك الأسفل من الانحطاط، وغشيت العالم كله ظلمات كثيفة، من الكفر، والجهل، والفجور، وغير الناس وبدلوا فى الدين، وحرفوا كثيراً مما أنزل الله على رسله من الكتب، وعبدوا من دون الله آلهة شتى. فالبوذيون كانوا يعبدون «بوذا» والهندوس كانوا يعبدون البقر، والمجوس كانوا يعبدون النار. وكانت أمم تعبد الملائكة والجن، وأمم تعبد الصور والتماثيل، وأمم تعبد آثار الموتى وأرواحهم. وكانت أمم تعبد مظاهر الطبيعة وتقدسها، منهم، من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأنهار، ومنهم من يعبد الحجارة[1]، ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ** ﴾[2] ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ** ﴾[3] وتفرق أهل كل دين مذاهب وشيعاً، واشتد بينهم الخلاف والجدل، حتى غدا الدين الواحد خليطاً من المذاهب المتناقضة، وسادت الخلافات والخرافات والأوهام، وشاعت الإباحية والفوضى، وارتكبت الفواحش باسم الدين[4]. ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[5].

وكان العرب أسوأ الناس حالاً، وأشدهم إمعاناً فى الجهالة والضلالة، فقد أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً، وعبدوا العديد من الأصنام والأوثام والأنصاب والتماثيل، والأشجار، وكثبان الرمال، وعبدوا الملائكة والجن، واعتقدوا أن الهواء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والحجارة تتصرف فى أمورهم، وفى مستقبل حياتهم وكان إيمانهم بالله إيماناً مشوشاً مضطرباً، يعتقدون أنه الإله الأكبر، الذى يخلق ويرزق، ويحيى ويميت، ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾[6].

---

(١) محمود الحسينى، الدين المقارن، ص: ١٤٣.

(٢) البقرة: ١١٣.

(٣) التوبة: ٣٠.

(٤) أمين دويدار، صور من حياة الرسول ﷺ ص: ١٠٦، ط: الأولى، القاهرة.

(٥) الروم: ٤١.

(٦) العنكبوت: ٦١.

ولكنهم يؤمنون بأن هناك آلهة أخرى، تخلى لها سبحانه عن بعض التصرفات كشفاء المرضى، ومنح الذرية، وإنزال الغيث، وتصريف الرياح، وإبعاد المجاعة،وكشف الضر، وجلب الخير. وأن هؤلاء الآلهة وسائط بينهم وبين الله، يتوسلون بهم إليه فى طلب ماينفعهم، ودفع مايضرهم، ويستشفعون بهم لديه فى التجاوز عن ذنوبهم، والعفو عنهم[1].

حالة الإمبراطورية الرومانية:

إذا ذهب الباحث إلى البلاد المجاورة للبلاد العربية، ليتعرف على أحوالها قبل بعثة محمد ﷺ فلا يجد إلا اضطراباً سياسياً شاملاً، وفوضى دينية عامة، وانحلالاً اجتماعياً فاشياً.

فالإمبراطورية الرومانية كانت فى القرن السابع الميلادى مفككة الأوصال، وكانت قد قسمت إلى إمبراطوريتين: إمبراطورية شرقية عاصمتها: القسطنطينية، وإمبرواطورية غربية عاصمتها: رومية. وكانت علامات الضعف وامارات التفرق، بادية فى كل من الإمبراطوريتين. وكان ذلك بسبب تنازع الأحزاب السياسية، والفرق الدينية[2].

لقد حل الدمار بالإمبراطورية الرومانية، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكانت حضارتها قائمة على أكتاف الفقراء، الذين كانوا يعملون لحساب الأغنياء، فتاريخ هذه الدولة عبارة عن: إهمال، وفساد، واختلال، وهرج، ومرج، وفوضى عمت جميع فروع الحكومة، وقد تخاطفت أجزاءها الأمم الضعيفة، وفتكت بها ثورات القائمين بخدمة القصر، وأخضعها محبو الظهور، من رجال الجندية، فظهرت بها الجرائم وأعمال النهب والسلب، واختفت آثار الثقافة والكرامة الشخصية[3].

---

(١) أمين دويدار: صور من حياة الرسول ﷺ ص: ١٠٧.

(٢) حامد عبد القادر، الإسلام وظهوره، ص: ٧٥، ٧٦. وعمر رضا كحالة، العالم الإسلامى، جـ: ١، ص: ٩٧ ـ ٩٨.

(٣) المكتب الفنى بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول ﷺ، ص: ٣٥، ط: وزارة الأوقاف المصرية، سلسلة مكتب الإمام رقم ٥٢، ربيع الأول، سنة ١٣٨٩هـ.

لقد ساءت الأحوال الاجتماعية والسياسية فى جميع أنحاء الممالك الخاضعة للمسيحية، فقد حال النظام القائم فى تلك الجهات، دون حرية التفكير، وحرية الحكم على الأعمال، ولم يتورع أصحاب أتباع المسيح الخاضعون لسلطانه، أن يشوهوا وجه العصر، ويجعلوه عصر اضطهاد وإزهاق للأرواح، وذبح كل ثائر أو خارج على الكنيسة الرسمية(١).

يضاف إلى ذلك: أنه لم تبق نحلة ـ فى هذه الإمبراطورية ـ من النحل الكثيرة، إلا حكمت على مناقضيها بالمروق، وتعددت هذه النحل بين «الأريوسية»، و«النسطورية»، و«اليعقوبية»، و«الملكائية». على تباعد الأقوال فى الطبيعة الإلهية، ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها. ويأتى النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية، فيقضى على البقية من الثقة والطمأنينة، ولا يدع ركناً من أركان العقيدة بعيداً من الجدل والاتهام(٢).

حالة الإمبراطورية الفارسية :

لم تكن الإمبراطورية الفارسية قبل الإسلام، بأوفر حظاً، ولا أحس حالاً، من الإمبراطورية الرومانية، فقد كانت فى حروب دائمة داخلية وخارجية، وكانت تنافس الإمبراطورية الرومانية، فى امتلاك آسيا، وبسط النفوذ على سكانها، وكثيراً ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح وينهبون أموالهم، وأحياناً كانت تدور الدائرة على الفرس، فيغلبهم الروم، ويقتلون منهم، ويأسرون، ويخربون ديارهم، ويضمون أملاكهم إلى أملاكهم، وكذلك كان القياصرة والأكاسرة متنازعين، لايكفون عن المقاتلة إلا قليلاً(٣).

وفى أوائل القرن السابع الميلادى: اشتبكت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية فى حروب، كانت سبباً فى ضعفهما معاً، وضعف فارس بوجه خاص(١).

---

(١) حامد عبد القادر، الإسلام وظهوره، ص: ٨٠.

(٢) العقاد: المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، جـ: ٧، ص: ٢٤١. وعمر رضا كحالة، العالم الإسلامى (العرب قبل الإسلام ـ البعثة المحمدية) جـ: ١. ص: ٩٨.

(٣) عمر رضا كحالة، العالم الإسلامى، جـ: ١، ص: ١٠١. والمكتب الفنى بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ص: ٣٦.

وفى الفترة التالية، حدثت بفارس اضطرابات، وفتن داخلية، وتنافس على العرش عدد من الأكاسرة، فكان الواحد منهم يولى، ثم يعزل، بعد مدة قصيرة، ومن المعروف أن ستة منهم تولوا العرش فى أشهر قلائل. وذلك بتدخل الجنود، ورجال الحرس الإمبراطورى، الذين أطلقوا أيديهم، وكانوا أصحاب التصرف المطلق، فى شؤون الدولة، فكانوا هم الذين يولون الأكاسرة، ويعزلونهم كما يشاءون، وبذلك سقطت هيبة الملك، وقلت قيمة العرش، وعمت الفوضى، وانتشر الفساد وساءت حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية، إلى درجة لاتطاق[٢].

ثم كانت الطامة الكبرى فى عهد قباذ ابن كسرى أنوشروان الذى حضر بعثة النبى ﷺ وتلقى رسالته بالسخط والوعيد، ففى عهد قباذ ظهر (مزدك) داعية الإباحية والفوضى، فى الأموال والأعراض، ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثنوية إلى التوحيد، أو مايشابه التوحيد، وقال كما قال (مانى) من قبله: «أن العالم كله فى قبضة الله إله النور، وإله الظلام» غير أنه زاد عليه: أن النور يفعل بالقصد والاختيار، وأن النور عالم حساس، والظلمة جاهلة عنها»[٣].

وبالرغم من نتائج المصلحين الذين اجتهدوا غاية الاجتهاد فى تطهير الديانة المجوسية من الوثنية، والمراسم الهيكلية، لم تزل عقيدتهم جميعاً فى الأرواح والشياطين حائلاً بينهم وبين التوحيد، فإن موالاة الأرواح، ومحاذرة الشياطين تسوقهم إلى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار، عدا الإلهين الأقدمين: إله النور وإله الظلام[٤].

حالة الهند:

وأما فى الهند، فقد انتشر مذهب إباحة النساء، بواسطة دعاة أقوياء «وقد بلغ من الفحش أن الكاهن الهندى كان يحظى بالعروس فى اللقاء الأول، لينشر عليها وعلى زوجها البركة والنعمة، وكانت الأناشيد التى تنوء بالمنكرات والفضائح، تلقى

(١) المكتب الفنى بوزارة الأوقاف، جوانب من حياة الرسول، ص: ٣٦.
(٢) حامد عبد القادر، الإسلام وظهوره، ص: ٨٨.
(٣) العقاد، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، جـ:٧، ص: ٢٢٧.
(٤) المصدر السابق، الجزء نفسه، ص: ٢٣٨.

فى الاحتفالات العامة، فتمد مستمعيها من الغواية بأسباب، وتفتح لهم من الآثام كل باب»[1].

حالة بلاد العرب:

كانت حالة العرب قبل الإسلام طوائف متنازعة، وقبائل متباغضة وديانات متنافرة، ونحلاً متحاسدة، ولم تستطع اليهودية، ولا النصرانية - بالرغم من نشاط دعاتهما - أن تجمع شملهم، وتؤثر فى نفوسهم، وكانت أطراف الجزيرة العربية، لقمة سائغة فى أفواه المغيرين من الأجانب، فقوى نفوذ الأكاسرة فى الحيرة، وما حولها، وظهر سلطان الروم فى الشام وبلاد الغساسنة، ودخل الأحباش ثم الفرس بلاد اليمن، وكان هؤلاء الأجانب يحرضون أنصارهم من العرب على أعدائهم، ومن يناصرهم من العرب فكان العربى يعادى أخاه العربى ويقاتله، وبريق دمه، لا لسبب سوى الانتصار للأجانب[2].

وقد ظلت بلاد اليمن محلا للنزاع، ومسرحاً للقتال، قروناً متعددة وكانت الحروب تقع لأسباب دينية، وغير دينية، بين يهود خيبر، ونصارى الأحباش، ومجوس فارس[3] والأمة العربية كانت قبائل متخالفة فى النزعات خاضعة للشهوات. فخر كل قبيلة فى قتال أختها، وسفك دماء أبطالها، وسبى نسائها، وسلب أموالها...تسوقها المطامع إلى المعامع، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات»[4].

ويضاف إلى ما سبق: أن نظام حياة العرب، كان قائما على الظلم ظلم القوى للضعيف، وتحكم القادر فى العاجز، وكان اعتمادهم على القوة وحدها، فكانت الإغارة، والسلب، والنهب، والأخذ بالثأر، وحب الانتقام، هى العلاقة التى تربط بين القبائل بعضها وبعض، حتى صارت الحرب نظامهم المألوف، وحياتهم المعتادة، وكانت مناقشة تافهة، تكفى لإشعال حرب طاحنة، وثارات يتوارثها الخلف عن السلف، وكان القتال إذا اشتعلت ناره، دام عدة سنين، وقد يدوم عشرات السنين،

---

(١) محمد جاد المولى، محمد المثل الكامل، ص: ٦٤، ط دار إحياء الكتاب العربى، بمصر.

(٢) حامد عبد القادر، الإسلام وظهوره، ص: ٧٧.

(٣) المكتب الفنى بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ص: ٣٧.

(٤) محمد عبده، رسالة التوحيد، ص: ١٨٠، ط: دار الهلال، سنة: ١٢٨٢هـ.

حتى غدا تاريخهم فى الجاهلية، سلسلة من الحروب الداخلية، لاتكاد تنتهى، ولم يكن لهم نظام جامع، ولا حكومة موحدة، بل كانوا قبائل متفرقة، كل قبيلة تؤلف وحدة قائمة بذاتها، مستقلة فى نظامها، وتقاليدها، وأحكامها[1].

ومن مظاهر الظلم فى حياة العرب: أن المرأة عندهم، لاتكاد تبرز حتى يعرف فيها طالع الشؤم ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ** ﴾[2].

ولعل الأبيات الثلاثة التالية لاحدى البدويات، تعبر تماماً عن هذه الحالة، عندما وضعت أنثى وغضب زوجها، فامتنع من المجىء إلى بيته، وأقام عند الجيران، اشمئزازاً، فقالت زوجته معتذرة:

ما لأبى حمزة لا يأتينا	يقيم فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا	والله ما ذلك فى أيدينا
فنحن كالأرض للحارثينا	ننبت ما قد غرسوه فينا[3]

تستقبل شر استقبال، تورث، ولاترث، وتملك ولا تملك، وكان البعض القليل ممن يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه[4] إلى غير ذلك من مظاهر الظلم، والاستبداد، والإذلال، وكانت الأنثى على العموم مجلبة الحزن، ومظنة العار والفقر[5].

تلك أحوال كانت فى العرب والروم والفرس وغيرهم، وهذه الأحوال التى

---

(١) أمين دويدار، صور من حياة الرسول، ص: ١٢.

(٢) النحل: ٥٨، ٥٩.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ: ٣، ص: ٤٨٢، ترجمه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه: أحمد أمين، ، أحمد الزين، إبراهيم الإبيارى، ط: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة سنة ١٣٦١هـ ١٩٤٢. والجاحظ، البيان والتبيين، جـ: ١، ص: ١٨٦، ط: مصر سنة ١٣٤٥هـ - ١٩٢٦.. ود. نايف محمود معروف، طرائف ونوادر من عيون التراث العربى، الكتاب الأول، ص: ١٨٣ - ١٧٤، ط: دار النفائس.

(٤) صبرى عبد الرؤوف، وأحمد السايح، المرأة المسلمة وقضايا العصر، ص: ٥، ط: الأولى، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة، سنة: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٥) أمين دويدار، صور من حياة الرسول، ص: ١١٢،

عرضنا لها بإيجاز، كانت مقدمات، والمقدمات لاتأتى بنتائجها على وتيرة الداء الذى يتبعه الفناء، ولكنها مقدمات العناية الإلهية التى تدبر الدواء للداء المستحكم على غير انتظار وبغير حسبان، عالم إذا صح أن يقال عنه: أنه كان ينتظر شيئا من وراء الغيب، فإنما كان ينتظر عناية الله.

واذا كنا عرضنا لأحوال العرب والفرس والروم والهنود، فإنه يجدر بالباحث أن يتعرف على أهم خصائص العصر الذى ظهرت فيه الدعوة الإسلامية. والدراسة والبحث يقفان بنا إلى أن هذا العصر قد تميز بالخصائص الآتية:

أولا: تعدد *الصراع*:

فقد ساد العالم فى هذا الزمان صراع هام، فلم تخل أمة أو منطقة منه، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة، أو بينها وبين غيرها، وأهم ماتميز به هذا العصر: هو تكرار الصراع تكراراً متلاحقاً، فمنهزم اليوم ينتصر غداً، وهكذا دواليك، من غير توقف وغالبا ما كان الصراع بسبب سياسى، أو اقتصادى، أو دينى، تبعا لاختلاف البيئات.

ففى البيئة العربية، لم ينشأ صراع بسبب السلطة، خصوصاً بعد أن وزع (قُصى) الأعمال بين القبائل، وجعلها فيهم وراثية، وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد فى أكثر الأحيان[1].

وإذا ذهبنا نبحث عن الصراع فى البيئة الرومانية، وجدنا أن الصراع ينحصر فى الدين والسياسة، وفى الفرس كان الصراع هو الدين، وفى الحبشة كان السبب كذلك هو الدين، وفى الهند كان هو نظام الطبقات إلا أنه مع تنوع أسباب الصراع، فإن هناك أسباباً كانت موجودة فى سائر الأمم، من أمثال: ظاهرة الرق[2].

لقد كانت دولتا العالم: دولة الفرس فى الشرق، ودولة الرومان فى الغرب، فى تنازع وتجالد مستمر، دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة وأموال هالكة[3].

ومما يذكر أن الصراع الداخلى ساد سائر الأمم، فى الدولة الرومانية الشرقية فقد

(١، ٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٨٧.
(٣) محمد عبده، رسالة التوحيد، ص: ٧٧.

قامت ثورات عدة، أشهرها: ثورة الزرق والخضر فى أثناء حكم (جستنيان) سنة: ١٥٣٢م، التى طالبت بإقصاء وزير المالية، وإجراء تعديلات كثيرة، وقد قضى «جستنيان» على هذه الثورة بإهراق دماء كثيرة،وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً[(١)].

وفى الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية، وقامت ثورات عدة وحروب كثيرة، من أشهرها فى بلاد الغال «فرنسا» إذ ظهر الصراع على أشده... وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس، الذى استمر مدة طويلة، وكذلك حرب البسوس، وحرب حاطب بين الأوس والخزرج، وقد استمرت إلى قبيل الإسلام[(٢)].

ومع الصراع الإقليمى وجد الصراع الدولى بين الفرس والروم، إذ اشتبكت الإمبراطوريتان، الفارسية والرومانية، فى حروب كانت سبباً فى ضعفهما[(٣)].

إن الصراع بكافة أشكاله وصوره، يؤدى حتما إلى تغيرات اجتماعية ومن المتغيرات التى يمكن أن تحدث بعد أى صراع، ظهور قوى جديدة وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة.

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا، لأن القوى الجديدة التى ظهرت فى مكة ممثلة فى الحنفاء والحكماء، كانت ركيزة لانطلاق الدعوة.

ثانيا: تفتح الأذهان على خطورة هذه الصراعات:

إن التفتح الذهنى يجعل المتصارعين لايتعصبون لشىء معين، ويبحثون عن أية قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع، كما أن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص، والهروب مما هى فيه. وذلك لأن الانفتاح الذهنى وذوبان التعصب الأعمى، يفيدان الدعوة فى كثير، فبالذهن الصافى، تفهم التعاليم والأفكار، وبذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغيض يقف فى طريقها، كما أن فكرة البحث عن قيمة راقية، وخلاص للضعفاء، بدأت تأخذ وضعاً مطرداً.

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٨٨.

(٢) المصدر السابق ص: ٨٨.

(٣) حامد عبد القادر، الإسلام وظهوره، ص: ٨٩.

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ماسبقها بالشمول والعمق، إذ انتشرت فى العالم كله بشكل مستمر ومتجدد، كما أنها لامست سائر حياة الناس، وعاشت فى نفوسهم وأحلامهم، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة، على مستوى هذا الشمول وهذا العمق[1].

ومن هنا: فإن الإنسان لايعدو الحقيقة، حين يذكر: أن صراع ذاك العصر، كان من حكمة ظهور الدعوة فيه، وجلت حكمة الله القدير ـ وحاشاه ـ أن يختار زماناً غير ملائم للدعوة، أو يكون اختياره لهذا الزمان بالذات غير مقصود، لأن الحقيقة الثابتة بكل إتقان ودقة، والمتعلقة بكل شىء تنبع من قوله تعالى:

﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ الآية﴾[2].

ثالثا: النضج الفكرى:

شاهد القرن السادس الميلادى تطوراً عقلياً فى كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس، حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية إلى مرحلة بلغ فيها الإنسان أشده، وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده[3]. ولعل المراد من النضج العقلى المذكور: هو وصول الإنسان الى التفكير الكلى المنظم، الذى يستنتج من المحسوس، ومن القضايا العقلية، أشياء أخرى غيرها، وينظر للحياة نظرة فيها الرضا، القائم على التحليل والنقد، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة، ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم، ذلك أن طفولة الإنسان، كانت تقوم على المحسوس فقط، إذ تبهر بالعجائب، وتسحر بالظواهر الخارقة[4].

فالنضج العقلى قد ساد العالم كله، وقد تجلى هذا الواقع فى نقد ظهر فى كل مكان، متجهاً إلى الناحية الدينية وأوهامها، ففى العالم المسيحى الواسع، بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لاتتفق مع الطبيعة العقلية، من أمثال: المناداة بألوهية المسيح، وتركيبه من طبيعتين مع إصرار هذه الأصوات على مذهب الفطرة، القائل:

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٨٩، بتصرف.

(٢) الرعد: ٨.

(٣) محمد عبده، رسالة التوحيد، ص: ٢٢٥.

(٤) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٩١.

ببشرية المسيح، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة، وقد اختاره الله -سبحانه وتعالى- ليكون رسولاً نبياً من قبل الإله الواحد، وأحاطه بالحواريين دفعاً إلى تصديقه فى دعواه، ومادفعهم إلى هذا الرأى إلا عقلهم الذى أبى التصديق بما هو وهم وخيال(١).

ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم، لوجدنا أن الهنود قد أيدوا ثورة «بوذا» على الهندوكية(٢) فى بعض تعاليمها، ومحاولتها تبسيط العقائد والاهتمام بالأخلاق، والعودة إلى الفطرة(٣).

وفى الجزيرة العربية -وبالرغم من تعمق القوم فى تقديس الأصنام وتعظيم الحجر- فإن النضج الذى اتسم به العصر، بدأ يظهر فى العرب، إذ اتجهوا بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام(٤).

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلى عند العرب، ظاهرة الحنفاء الذين أخذوا يحللون بعمق وفهم، فساد ما عليه الناس، ويبينون الحاجة إلى دين يعرف بالخالق والطريق إليه(٥).

رابعا: انتظار رسول جديد:

كان للنضج الذى ساد العالم، وكثرة الصراع وتنوعه قبيل الدعوة أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يوم ذلك، والنقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال النقد فى هذه العقائد، التى توجه النقد إليها ومن هنا: صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبى من العرب، يصلح فساد هذا العالم، ويضع الحقيقة الفاصلة فى مسألة العقيدة، والسلوك وكل ما يسنده الناس إلى الأصنام ويطلبونه منها، وقد وصل هذا الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد، لدرجة أن اليهود فى المدينة «يثرب» كانوا ينتظرون هذا النبى على وجه اليقين، وكثيرا ماذكروا لجيرانهم من الأوس،

---

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) الهندرسية، وهى لفظ يطلقه الأوربيون على ديانة الهنود.

(٣) د. محمد عبد المنعم الشرقاوى، ملامح الهند وباكستان، ص: ١٤٣، ط الأولى، دار المعارف بمصر، سنة: ١٩٥٢م.

(٤) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٩٣.

(٥) المصدر السابق، ص: ٩٥.

والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبى ﷺ فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم، وتملك الناس، وقتل الأوس والخزرج، قتل عاد وارم[1].

والقرآن الكريم يقص ما كان منهم فى هذا الشأن، بقوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾[2] أى: كانوا من قبل مجىء هذا الرسول، بهذا الكتاب، يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، ويقولون: انه سيبعث نبى فى آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وارم[3]. وكانوا يقولون: «اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان، الذى نجد نعته وصفته فى التوراة. ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا. فنقتلكم معه قتل عاد وارم»[4] وكانوا يسألون العرب عن مولده، ويصفونه بأنه نبى من صفته كذا وكذا، ويتفحصون عنه، والآية نزلت فى بنى قريظة والنضير، فقد كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج، برسول الله قبل البعث»[5].

ورأى اليهود له وزنه عند جيرانهم قبل البعثة، لأنه قد اشتهر عنهم معرفتهم ببعض أسرار الوحى وعلاماته. فلقد روى أن مشركى مكة لما بعث محمد ﷺ: أرسلوا وفداً منهم يسأل اليهود عن رأيهم فى هذا الرسول الذى أتاهم، ودعاهم بدعوته[6].

ولم تكن هذه المعرفة مخصوصة بيهود المدينة وحدهم، فلقد انتشر خبرها فى أماكن كثيرة، ووصلت إلى أقصى الشمال، لدرجة أن سلمان الفارسى، حينما أراد أن يترك المجوسية، ويبحث عن الدين الحق ليعتنقه، سمع من يقول: أنه قد أظل زمن نبى، وهو مبعوث بدين ابراهيم -عليه السلام- يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل، وبه علامات لاتخفى، يأكل الهدية ولا يأكل

---

(١) المصدر السابق، ص: ٩٣.

(٢) البقرة: ٨٩.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ١ ص: ١٧٨.

(٤) الزمخشرى، الكشاف، جـ: ١ ص: ٨١.

(٥) الرازى، التفسير الكبير، جـ ٣، ص: ١٩٤.

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ: ١ ص: ٣٢٠.

الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة» وليس ذلك بكثير على علماء اليهود والنصارى، لأنهم: ﴿ ... يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ... ﴾[1].

يقول ابن كثير فى تفسيره: وهذه صفة محمد ﷺ فى كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم[2].

وكما وصل خبر ظهور نبى إلى أقصى الشمال، وصل كذلك إلى أقصى الجنوب، فقد روى أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير، أفضى سيف ابن ذى يزن لعبد المطلب، بما علمه من كتبه من أن نبياً سوف يظهر فى العرب، يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة[3].

وهكذا ظهرت ملامح وطوالع النبوة فى عقول الناس، وفى كثير من الأماكن وهذه الملامح والطوالع فى حد ذاتها تمهد للدعوة، وتدعو إلى استماعها بشوق، خصوصاً وقد حدثت أحداث كثيرة، جعلت الناس ينتظرون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر للدعوة الإسلامية، وظهورها فى العالمين.

* * *

(١) الأعراف: ١٥٧.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٤٨١.
(٣) الأزرقى. أخبار مكة، جـ: ١ ص: ٩٤ ـ ٩٦، بتصرف.

ضرورة الإسلام

إن الإنسان آية الله فى خلقه، طبعه ربه على هذا النحو العجيب وفطره على هذه الصبغة الفذة، مقترنة بعديد من الغرائز والميول، وحينما تشده الأولى إلى زكاة النفس، واستواء الفطرة، وقصد السبيل، فإن الثانية تشده إلى النقيض تماماً بتمام، وبين هذا وذاك يتطلع الإنسان ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقه، وقصد سلوكه، ويجعله على طول الخط سوى المنهج، قويم السبيل، زكى الباعث، نبيل المقصد، متعلقاً بمعالى الأمور، نائيا عن سفْسَافها، يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه، فلا يجده إلا فى رحاب الإيمان بالله، وأحضان الطاعة له، وظلال القرب منه.

والإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر فى هذا الكون الهائل، فلابد له من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه فى هذا الكون، الذى يستقر فيه[1]، فلابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهى ضرورة فطرية، شعورية، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة ومتابعة بعثها، لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها.

ومن هنا: كانت حاجة الإنسان إلى العقيدة حاجة فطرية، مركوزة فى فطرته، ومغروسة فى شعوره، ومخلوطة بدمه وعصبه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقى ويحار، ويفقد الاستقرار[2].

هذه الحاجة الفطرية فى الإنسان إلى الدين، هى التى يتحقق بها إدراك الإنسان لحقيقة مقامه فى هذه الحياة، ورسالته وعمله ودوره[3].

---

(١) د. أحمد السايح، العقيدة فى الإسلام، مجلة جوهر الإسلام العدد الثانى والثالث، ص: ١٦، من السنة الثانية ١٣٩٦هـ، تونس.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أحمد محمد جمال، الدين فطره وميثاق، كتاب ندوة المحاضرات لموسم حج سنة: ١٣٨٩هـ، ص: ٢٠٠، ط: رابطة العالم الإسلامى، بمكة المكرمة.

وقد أودع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الإنسان ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى فى الوجود[1] وندبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق، التى يراها الحس والعقل والوجدان، فى الآفاق وفى النفس، وفى كل شىء[2] . ففى الأرض آيات للمؤمنين، وفى السماء مثلها وأعظم. فالفطرة الإنسانية السليمة، هى التى تتوجه إلى الكون بروح منفتحة تكشف ما فيه من قصد وتصميم وإبداع، وتنتهى إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه، ومن خلال هذا التصرف تتحدد علاقة الإنسان بربه ـ عز وجل ـ[3].

فالإنسان لاغنى له عن الدين، لأنه يحسه فى نفسه، شعوراً ووجداناً ويشير إلى هذا الشعور ما رواه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»[4].

وقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[5].

ففى هذه الآية: بين الله -تعالى- أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلاً بعد نسل، على هيئة ذر، وذلك قبل خلقهم فى الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلاً لهم: ألست بربكم، فأجابوا: «بلى شهدنا» بذلك، فالله -سبحانه وتعالى- أشهدهم على ربوبيته، حتى لايقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين، أو غير عالمين[6].

---

(١) قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ النحل: ٧٨.

(٢) قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ فصلت: ٥٣.

(٣) د. عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، ص: ١٦و ط: الثالثة مؤسسة الأنوار بالرياض، سنة: ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٤) رواه البخارى، فى موضع من صحيحه مع فتح البارى. جـ: ٣، ص: ٢١٩.

(٥) الأعراف: ١٧٢، ١٧٣.

(٦) ابن كثير تفسير القرآن العظيم، جـ: ٣، ص: ٥٠٠ ـ ٥٦٠.

فالإيمان بالله فطرة فطر الناس عليه، وإنما يضلون عنها بعض الوقت، أو كل الوقت، ثم يعودون إليها ولو عند فراق الحياة، أو عند نزول الكوارث والأحداث، فقد كان فرعون يدعى الألوهية، ويقول لقومه: ﴿ ... أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[1]. وسام بنى إسرائيل سوء العذاب، وكفر بموسى، وإله موسى، ولكنه عندما أدركه الغرق، قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[2].

والمشركون بالله، والكافرون به، فى كل الأجيال، كانوا يعبدون الأصنام ويستقسمون بالأزلام. فإذا مسهم الضر فى البر أو فى البحر، لجؤوا إلى الله يدعونه ويسألونه النجاة ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾[3].

ومن هذا يتبين: أنه يوجد فى طبيعة تكوين الإنسان استعداد فطرى لمعرفة الله وتوحيده، فالاعتراف بربوبيته متأصل فى فطرة الإنسان، وموجود فى أعماق روحه، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده. «فالاعتراف بربوبية الله وحده، فطرة فى الكيان البشرى، فطره أودعها الله الخالق فى هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودهما ذاته. وحكم ما تستشعره فى أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى»[4].

والوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لايسعه إلا أن يطيع ربه فى ولاء لايشوبه استنكاف، ولايطاله تأب بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله يهتف فى البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر، وهتاف العابد تجاه قدسية المعبود بما سجله الحق في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[5].

---

(١) النازعات: ٢٤.
(٢) يونس: ٩٠.
(٣) يونس: ١٢.
(٤) سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ ٣، ص: ١٣٩١.
(٥) فصلت: ١١.

والإنسان وإن كان يساوق الكون فى العبادة بفطرته، فإنه ينبغى عليه أن يفوقه منزلة، وأن يعلوه فيها درجات، تتناسب وتركيبه، وتكوينه المتميز بالعقل والإرادة، والاختيار، والميول، والنزعات، والرغائب.

بيد أن الإنسان من طبعه أن ينسى أحياناً، وأن يغفل، وأن يجحد أحياناً، وأن يكفر، لأن امتزاج الروح بالجسد، وانشغال الإنسان بمطالب جسده، ومطالبه المختلفة، التى تستلزمها حياته فى الدنيا، وعمارة الأرض، قد جعلت من معرفة الإنسان بربوبية الله، واستعداده الفطرى للتوحيد، عرضة لأن تطمره الغفلة، ويغمره النسيان، ويطويه اللاشعور فى أعماقه، ويصبح الإنسان فى حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطرى، ويبعد عنه النسيان، ويبعثه من أعماق اللاشعور فيظهر جلياً واضحاً فى الإدراك، والشعور، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الانسان مع الكون وتلك فطرة فطر الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لافكاك لهم منها، ولا شذوذ لهم عنها[1].

فعاطفة التدين أو الاعتقاد بدين من الأديان أمر غريزى، ويشترك بين الناس عامة فى كل عصر ومكان، فإنه لم تخل جماعة من الناس فى أى زمان، من عقيدة دينية على نحو ما ـ «وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد فى الماضى السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات وعلوم وفنون، ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير دين»[2] إذ لابد فى حياة الناس من نظم تلم شتاتها، وترفه حياتها، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم، ويعيش الناس فى ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل، فى أمن وسلام، وقد كرم الله الإنسان بالعقل لكنه أودع فيه نفسا أمارة بالسوء، وهو يعيش فى صراع بين عقله الهادى إلى الصلاح، ونفسه الأمارة بالسوء، فكان من تمام نعمته عليه أن وضع له النظم التى توصله إلى التغلب على النفس وسد منافذ الشيطان إليها، فحمله أمانة التكليف، وأخذ عليه العهد، بأن يعبده، ولا يشرك به شيئاً، وأمده بهداية الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ[3].

---

(١) د. محمد عثمان نجاتى، القرآن وعلم النفس، ص: ٤٧: بتصرف يسير، ط: دار الشرق، بالقاهرة سنة: ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٢) د. محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص: ٧، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة سنة: ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م.

(٣) د. شوكت محمد عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ص: ١٢٦، ط: دار الرشد، بالرياض، سنة: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

اذن «لكى تتحقق الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشادا للملأ الأعلى: ﴿..إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ...﴾ [١] كان لابد لقوة الخير فى الإنسان من مدد يعينها ويقربها على سد منافذ الشر والطغيان»[٢].

ومن هذا يتبين: أن الدين للإنسان من الشؤون الضرورية التى لاحياة له إلا بها[٣] والله -سبحانه وتعالى- قد خلق الناس ولم يتركهم وشأنهم، بل اختار لهم نظماً وأحكاماً، تسعدهم فى الدنيا والآخرة، وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان، والمكان، والمجتمع، وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته، لعدم قدرته على القهر الذى يحمل الناس على كمال الطاعة، ولهذا جعل الله -سبحانه وتعالى- فى كل أمة رسولاً منها، وأيده بالمعجزات، وأمده بتعاليم السماء، لينشر الخير، ويعالج الشر ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [٤] و قد شرع الله -تعالى- لخلقه مايناسب حالهم، ويتلائم مع ظروف حياتهم، وقوة إدراك عقولهم، وقوة احتمالهم[٥].

وإذا كان الدين والتدين أمراً غريزياً وفطرياً فى الإنسان، فى كل زمان -كما عرضنا- فإن الدين الإسلامى هو: الدين الحق، الذى رضيه الله -تعالى- للناس جميعاً. والآية الكريمة التى عدت الدين عند الله الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلام ..﴾[٦] .تعنى: مجموعة المبادىء الإسلامية وتعاليم الإسلام... فالإسلام مر بمراحل كبيرة عبر أنبياء الله ورسله، إلى أن انتهى من المرحلة المتكاملة فى رسالة محمد ﷺ التى جاءت إلى الإنسانية كلها. إذن رسالة الإسلام هى الإسلام الشامل للإنسانية فى وحدة إيمانها بالله، قال تعالى: ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً...﴾[٧] ولهذا كان الإسلام يشتمل على

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص: ٩، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة: ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

(٣) المصدر السابق، ص: ١٤.

(٤) النساء: ١٦٥.

(٥) د. شوكت عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ص: ١٢٧.

(٦) آل عمران: ١٩.

(٧) المائدة: ٣.

امتداد زمانى فى المعتقد الدينى، ويعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها، ويشتمل على شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعاً، ويشتمل على شمول يضم الأديان كلها، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها»[1].

فالديانات وإن تعددت فى الفروع والتكاليف والأعمال، فقد اتحدت فى المصدر الذى صدرت عنه، وهو الله -تعالى- واتحدت -أيضا- فى الأصل الذى دعت إليه، وهو التوحيد.

فالقدر المشترك بين الرسالات جميعاً هو: تصحيح العقيدة أولاً، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة فى تلك البيئات، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...** ﴾[4].

ولقد جاء الإسلام فى جانبه الإيمانى، يؤكد هذه الأسس، التى أكدها كل نبى، ولكنه فى الجانب الذى يستتبع الشريعة، جانب الالتزام والعمل، كان الإسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات.

وهذا الطابع الشمولى الملتقى فى أسس العقيدة، والمتكامل فى التشريع، هو الذى جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر. ولعل هذا هو السر الذى جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذى جاء به رسول الإنسانية محمد ﷺ[5].

وكلمة الإسلام، وفى الإطار اللفظى تعنى: التسليم والخضوع، وفى مفهوم الدين يراد منها: التسليم والخضوع لله وحده، لاشريك له، وبهذا المعنى أطلقت

---

(١) د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ص: ٣٠، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٢) النحل: ٣٦.

(٣) الأنبياء: ٢٥.

(٤) الشورى: ١٣.

(٥) د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ص: ٢٨ - ٢٩.

على كل من آمن بالله، وسلم لأمر الله، فأتباع كل نبى، وكل من يدين لله من الأديان السماوية. هم مسلمون بهذا المعنى[1].

ووحدة الإيمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة، لاتقبل الجدل، أو التشكيك، ولايغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمنى بين الأنبياء، الذين أرسلهم الله إلى عباده[2].

فالإيمان بالله -سبحانه وتعالى- ليس غريزة فطرية، بل هو ضرورة فالدين عنصر ضرورى، والإنسانية بحاجة إليه، للكمال النفسى، والروحى. «فالإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان، والعقيدة، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة، محقق لمصالح الفرد والجماعة، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق، فليس ديناً فقط، ولكنه دين ونظام وحياة، لاتنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان، عن الصلة بين الإنسان والإنسان، وهو ينظمها جميعاً.

فالعقيدة الإسلامية ضرورة للإنسان، وذلك لرفع مستواه والمحافظة عليه من الإنحراف المادى والإلحادى.

ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدنى بطبعه، ومعنى ذلك أن الإنسان بفطرته، يميل إلى التعارف والتعايش مع غيره، ولذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ التعارف بين الناس من أهم أسباب خلقه لهم، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[3] هذا التعارف ليس مقصوداً لذاته، وإنما جعل أولا غذاء لطبيعة الإنسان، وثانياً: وسيلة للتعارف على كل ما فيه إسعاد البشرية، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها فى جانبها المادى والفكرى. يبين ذلك المفكر محمد عبدالله دراز، فيقول: «أنه لا قيام للحياة فى الجماعة، إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم

---

(١) المصدر السابق، ص: ٢٩ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص: ٢٩.

(٣) الحجرات: ١٣.

بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وهذا القانون لاغنى له عن سلطان نازع ووازع، يكفل مهابته فى النفوس، ويمنع انتهاك حرياته[1].

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر ـ دون أن نجانب الصواب ـ: أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافىء قوة التدين، أو تدانيها فى كفالة احترام شرع الله وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة، والطمأنينة فيه. والسر فى ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها شىء لايقع عليه سمعه ولابصره، ولا يوضع فى يده، ولا فى عنقه، ولا يجرى فى دمه، ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنسانى روحانى اسمه الفكر والعقيدة. وقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها»[2].

وليست قوانين الجماعات، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة، تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل. فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن، أو العقوبة المالية، لايلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

والقانون إما إلهى أو وضعى: لأن لكل حضارة شطرين: شطراً روحياً، وشطراً مادياً، فالشطر المادى الذى يعتمد على الحس والعقل وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالشطر الروحانى أو النظرى.

والشطر النظرى: العقيدة والأخلاق، والتشريع، ونظام المجتمع[3] ولذلك جاءت العقيدة الإسلامية كاملة هادية للعقل فى الجانب النظرى، فشملت التشريع، والأخلاق، ونظام المجتمع، ومن خصائص الوحى فيما يتعلق بالتشريع: أنه هاد للعقل، وكما أن الدين هاد للعقل،كان لابد فى استخدام العلم، من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية، وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد ذلكم الرقيب هو: العقيدة، والإيمان.

(١، ٢) د. محمد عبد الله دراز، الدين، ص: ٩٨.

(٣) د. عبد الحليم محمود ، الإسلام وتنظيم المجتمع، ص: ٥، ط: دار الكتاب العربى، بمصر.

ولايخفى على أهل العلم: أن من الخطأ المبين أن يظن بعض الناس أن فى نشر العلم والثقافات وحدها ضماناً للسلام، والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى [1] ذلك «أن العلم سلاح ذو حدين، يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير»[2] فكما يستعمل للخير، يستعمل كذلك للشر، فلابد للعلم من تربية عالية، وتوجيه سديد، وايمان راسخ بوجه المجتمع، وذلك أن وظيفة العلم محصورة فى الجانب الحسى المحض. فهو يقف عند حدود لا يتجاوزها، بينما وظيفة الدين فى الحياة ذات مجال رحب. فالإسلام بما حواه من هداية إلهية، وتشريعات سماوية، يكفل للمجتمع الإنسانى، كل عوامل السعادة، والأمن، والاستقرار، ولايكون ذلك عن تشريع وضعى، يضعه فرد، أو جماعة معينة، ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره، ونضح عقله، لايمكن أن يحيط بكل مايوفر للإنسانية أمنها واستقرارها.

لقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالدين الإسلامى، وهو خاتم الرسالات الإلهية، ، ماهو حق وخير، فى مجتمع شؤون الحياة، فهو لم يترك الانسان سدى، بل بين له الرشد من الغى، ووضعه على الجادة الصحيحة، والطريق السوى، فيما يختص بالعقيدة، والسلوك الفردى والاجتماعى، والعلاقات التى تربطه بغيره من الناس جميعاً، فالدين الإسلامى فيه صلاح الناس جميعاً حتى الذين لم يرزقوا حظاً وافراً من التفكير العقلى السليم، ولذلك كان الوحى الإلهى رحمة عامة لجميع الناس، ولهذا نرى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية[3].

والله الذى خلق الانسان، وركب فيه طبائعه ونوازعه، هو الخبير بكل أدوائه والعليم بوسائل شفائه، هو وحده الذى يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والنظم ما يحقق لها أسباب السعادة، وجميع وسائل الأمن والاستقرار، وذلك بالدين الذى يدعوها إليه، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به، يحملهم على الأخذ بتعاليمه، ويدفعهم إلى التحلى بالفضائل، ويحول بينهم وبين ارتكاب الرذائل، وليس هناك وراء الدين شىء يهيمن على النفوس، غير نظام خالق النفوس[4].

(١، ٢) د. محمد عبد الله دراز الدين، ص: ٩٩.

(٣) د. محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص: ٨.

(٤) د. محمد حسين الذهبى (الدين والتدين) دراسة بمجلة البحوث الإسلامية جـ: ١، ص: ٥٤، الصادرة سنة ١٣٩٥هـ ـ ط: دار الإفتاء والبحوث بالرياض.

فالإسلام نظام ربانى، يقوم على مبادىء سياسية، رضيها الله لعباده دستوراً يقودهم فى دنياهم إلى حياة كريمة، ويعدهم فى أخراهم لميراث جنة عرضها السماوات والأرض.

فالإسلام هو الرابطة التى جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم الآخر ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح فى الأرض، على أساس قوى متين، من ربط العبد بخالقه[١].

فهو إذن مطلب إنسانى رفيع. يغذى جانب الروح، ولاينسى حاجة العقل، وبعبارة أخرى: هو مطمع العقل، وغاية الروح، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية تجعل منه غذاء ضرورياً لقوى النفس، وعصارة مقومة لحيويتها توجد له وظائف اجتماعية، لايكون موضوعها الفرد، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل[٢].

وهكذا يتبين للباحثين والدارسين: أن العقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية، فى مختلف ملكاتها ومظاهرها. ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين، من طبيعة الإنسان نفسه، فقد خلقه الله - تعالى - ومنحه طبيعة الكائن المتكيف، وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى الدين نبتة فطرية أصيلة ركبت فيه، وفطر عليها، ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتى داخل النفس، يدفع الإنسان إلى مراقبة الله، الذى يعلم السر وماتخفى الصدور. فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملاً لجميع القوى المختلفة: الجسمية، والروحية والنفسية، والخلقية، والاجتماعية.

فالدين يزكى النفس، ويطهرها، ويحول دائماً بين الإنسان، وبين نوازع السوء والضلال فيه، وذلك أنه يشعر دائماً بمراقبة الله له فى كل شىء. ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله، والبعد عن الشر، وهذا مبلغ ماينبغى أن تسعى الإنسانية إليه.

فالإنسانية بحاجة إلى الدين، لأنه جزء من فطرة الإنسان وطبيعته ولايمكن لإنسان عاقل أن يستغنى عن جزء من فطرته وكيانه، فهو الوسيلة الوحيدة التى نأمن

---

(١) محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص: ١٨.

(٢) د. محمد عبد الرحمن بيصار، العقيدة والأخلاق وأثرهما فى الحياة الفرد والمجتمع، ص: ٩٢، ط: الرابحة، الأنجلو المصرية، بالقاهرة.

مخاطرها، ونضمن نتائجها، لتحقيق الحياة الإنسانية. . . فالدين يقيم نظاماً يدعو إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم دستوراً حكيماً يحفظ للإنسان إنسانيته، كما يحفظ له نفسه وماله.

وكما أن حاجة الإنسانية إلى الدين لحفظ النفس، والمال، والعرض كذلك فان الإنسانية فى حاجة إلى الدين، لتربية الإنسان الذى كرمه الله -تعالى- فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيم﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾[2].

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسانية إلى العقيدة نزعة فطرية ركبت فيه، وفطر عليها. ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين بأنه الحياة، وبأنه النور الذى يضىء للسالك الطريق، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد، ولسعادة المجتمع لابد من العقيدة الصحيحة، التى تنير الطريق، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة، والجماعة للفرد.

ولقد كان لهذه العقائد والأصول والمبادىء الإنسانية، التى قام الإسلام عليها. ولما قام عليه هذ الدين من المساواة والعدالة والاحسان، كان لذلك أثر بالغ فى سرعة انتشاره، وحسن تقبل الناس له فى أقطار العالم المختلفة كما كان ذلك من العوامل الحاسمة، والأسباب القوية، فيما أدركه الإسلام من عز، ومجد، وسلطان، سعد به العالم الذى عاش تحت لوائه[4].

---

(١) التين: ٤.

(٢) الإسراء: ٧٠.

(٣) الأنعام: ١٢٢.

(٤) د. محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص: ١١٤، ط: السادسة، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية، مطبعة الفيصل، سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

فمن طبيعة المنهج الذى يرسمه هذا الدين ومن حاجة البشرية لهذا المنهج نستمد يقيننا الذى لايتزعزع فى أن المستقبل لهذا الدين المتعطشة إليه البشرية جمعاء.

فالعقيدة هى أساس قيام المجتمع، وأساس صلاحه أو فساده، بل هى أساس بقائه واستمراره، فهذا الدين فى حقيقته النقية المصفاة، له أثره المبارك فى تهذيب النفس، وإسعاد الإنسان، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير... إن الدين ضرورة من ضرورات الإنسانية الراشدة، لاتغنى عنه فكرة عقلية ولاتنظيم وضعى[1] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾[2].

لقد كان الإنسان فى الماضى يعبد ما لاينفع، ولايضر، وكان يخاف من كل شىء، فجاء الدين الحق، ودعا الناس إلى التحرر من خوف غير الله وماعداه مخلوقاً، وبهذا تغيرت نظرة الإنسان إلى كل شىء.

إن العقيدة الإسلامية تقوى الاتصال بالله، وتبعث فى النفس اطمئناناً يقوى عزيمة المؤمن، فلا يصل إلى نفسه اليأس، ويتغلب على مصاعب الحياة بقوة الإيمان.

وإن الباحث: إذا تأمل أحوال الإنسانية فى هذا العصر، فسوف يجد أنها فى أمس الحاجة إلى الإسلام.

فالحضارة الغربية وصلت إلى أعلى مستوى من الرقى العمرانى، والتقدم العلمى الهائل، ولكن قصة البشرية -برغم التقدم الحضارى- فيها مساوئ كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضاعت عقولهم. فقد أطلقت الحضارة الغربية حرية الإنسان، وحررت غرائزه المكبوتة، وتحولت الحريات إلى انحراف فى الغريزة، وإلى شذوذ فى الطبيعة، وإلى عدوان على حريات الآخرين، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط.

ومن تعاسة الحضارة المادية، أنها عكست كرائم النعم، والملكات التى أنعم الله بها على الإنسان عكساً أسقط الإنسان فى وديان الهلاك والدمار وسقط بالإنسانية

---

(١) محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص: ٢٣.

(٢) النساء: ١٧٤، ١٧٥.

دون عالم الحيوان، فراجت خسائس العادات، وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح، والشذوذ فى السلوك، وظواهر الخنفسة والهيبيز، والارتخاص، والابتذال، والخلاعة[1].

لقد تقدمت العلوم بلا ريب، ولكن هذه الحضارة التى علمت الناس كيف يسبحون فى الماء بالغواصات الجبارة، وكيف يطيرون فى الفضاء، وفى الهواء، وفوق السحاب، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها، وشعوبها كيف يسيرون على الأرض فى طريق الخير بغير عوج والتواء، أو تعثر.

إن الغرب اليوم فى حيرة بالغة، وقلق واضطراب شاملين، وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم، وأصبح الضمير هناك لايطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو نظام، فلم يعد يجد اليقين الذى ينبىء إلى ظله، فى جو من الهدوء والراحة والاستقرار[2].

والبشرية اليوم فى مفترق الطريق، فهناك اضطراب فى الأفكار وحيرة فى الاتجاهات، وزعزعة فى النظم، وخواء من العقيدة، أصبح يجرفها دولة بعد دولة، وشعباً بعد شعب، إلى هاوية المادية «وعلى كل فقد وقع المحذور، وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها، وبكل ماتتضمنه هذه الكلمة من عقيدة، ووجهة نظر، ونفسية، وعقلية، وأخلاق، واجتماع، وعلم، وأدب، وسياسة، وحكم، وكان ذلك تدريجياً، وكان أولاً ببطء، وعلى مهل، ولكن بقوة وعزيمة. فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون فى الكون، نظراً مؤسساً على أنه لاخالق ولا مدبر، ولا آمر، وليس هناك قوة وراء الطبيعة، والمادة تتصرف فى هذا العالم، وتحكم عليه، وتدبر شؤونه، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعى، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكى بحت، وسموا هذا نظرياً علمياً مجرداً»[3].

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص: ١٩١- ١٩٢، ط: مكتبة دار اللواء بالرياض، سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢) د. محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص: ٢٦.

(٣) أبو الحسن الندوى، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، ص: ١٧٨، ط: دار الكتاب العربى، بيروت، سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

وليس الحال فى الشرق والبلاد العربية، بأحسن من الغرب، فقد انحرف الكثير عن الدين فى غير قليل من شؤون الحياة[1] لقد تأثرت بعض المجتمعات بالغزو الحضارى الغربى، وليس ذلك التأثير فى الجانب العلمى، والصناعى، والعمرانى، ولكن ـ للأسف ـ وفى أسوأ المساوىء وأصبح البعض يقلد الغرب فى كل ما هب ودب، وما من ظاهره من الظواهر العفنة، ولا موضة من موضات العصر، إلا ولها فى بعض المجتمعات صدى واهتمام.

لقد أفلست الحضارة الغربية، برغم التقدم العلمى الهائل الذى وصلت إليه، وبدأ الإنسان الأوربى يهرب من حضارته، لأنه لم يحس فى ظلها بالسعادة، ولم يحس فى مجتمعه بالأمن والأمان والاطمئنان، فقد انتشرت عصابات القتل، والخطف، والتخريب، والإرهاب، وتفاقم خطر الجريمة، وازداد عدد المجرمين، وامتلأت البلاد بجماعات العربدة والفجور، وأقيمت نوادى العراة، وأبيح فى غير استحياء الشذوذ الجنسى، إلى غير ذلك.

وأخيراً لهذا وغير هذا: لجأ الغربيون إلى الهروب من معتقداتهم الدينية، ومذاهبهم الاقتصادية، بل من كل حضارتهم التى افتتنت بالعلم والعقل، فأصبحت شقية عمياء لاتبصر، طارت بحضارتها إلى الفضاء، وانحدرت بالشباب الغربى إلى مدارك السفالة والانحطاط، ليعيشوا فى حياة الجنس والخمر، ونوادى العراة.

والشيوعية فى الشرق وفى الغرب قد أعلنت فشلها، وبات الناس فى جحيمها يئنون جوعاً، ويبكون توجعاً، ويتألمون من شدة الكبت، وفقدوا كل كرامة وكل شيء.

وهكذا يهرب الأوربيون من نظمهم الوضعية، ويهرب الشيوعيين من جحيم الاشتراكية.

وهكذا تعجز النظم البشرية، والقوانين الوضعية، عن تقديم أى عون للإنسان، أو الأخذ به إلى الطريق السليم، مما يؤكد ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية، لأن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه ـ عند التطبيق ـ قوة فعالة ومؤثرة، بل إن فاعلية الإسلام شملت حياة الأفراد، وحياة الجماعات من جميع الجوانب.

---

(١) د. محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ص: ٢٧.

أثر العوامل السابقة فى ظهور الإسلام

العوامل التى عرضنا لها فى موضوع ظهور الإسلام، وحاجة الإنسانية إليه، كان لها الأثر الواضح فى ظهور الإسلام، وإقبال الناس عليه، والدخول فى دين الله أفواجاً.

ونحن نوقن أن حكمة الله لايدركها بشر، وفى الوقت نفسه نلمس أن فى مقدور البشر أن يعلنوا شيئاً من هذه الحكمة، على حسب ما يظهر لهم خصوصاً بعد ماتتكشف بعض أسرار الحكمة.

لقد أظهر الواقع الذى مضى زمنه، قيمة هذه الاختيارات فى ظهور الاسلام ولذا يجدر أن نتعرف على أثر هذه العوامل فى ظهور الإسلام عاملاً عاملاً، لتتضح الرؤية، ويتحقق الهدف.

أولاً: أثر اختيار الرسول ﷺ ليبلغ الإسلام فى ظهور الإسلام:

لقد عرفنا أن النبى ﷺ ينتسب إلى بطن بنى هاشم، وهم بطن يقطن مكة، ويرتبط مع سائر بطون قريش فى قرابة. فعروبة النبى ﷺ ثابتة موطنا وجنساً ولغة، ولقد أكد القرآن الكريم هذا فى آيات كثيرة، فقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[1] يشير إلى أن مكة هى قرية النبى وموطنه، إذ أضاف القرية إلى غيره ﷺ[2]. وقد دفع الله عن كثير من أهل مكة العقوبة فى الدنيا، لبركة وجود الرسول نبى الرحمة[3]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ...﴾[4] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ

(١) محمد: ١٣.
(٢) أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ١٢٠.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ١٧، ص: ٢٩٤.
(٤) الجمعة: ٢.

﴿الأُمِّي...﴾[1] يشير إلى عروبته ﷺ لأن الأمية صفة للعرب، في مقابلة أهل الكتاب وهو أمي منهم[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾[4] يشير إلى لغة النبي ﷺ العربية التي نزل بها القرآن الكريم، فجعلها أكث رسوخاً.

وهذه العروبة المكية، تعطى للدعوة الإسلامية قوة معينة، لأن مكة هي أم القرى وبها الكعبة، وقد درج الناس والعرب على تقديرها، والمشاركة في مواسمها الدينية والتجارية والأدبية، ويعدون هذه المشاركة واجباً تجاه مكة وأهلها القرشيين الذين ينظمون أمور الكعبة، ويحرسون الحجيج، ويطعمونهم، وهم لجوارهم للكعبة أهل الله، يعرفونه فيدافع عنهم، ويخصهم بالفضل من دون الناس[5].

وبنو هاشم بطن من أوسط بطون قريش، ويتصل بهم ﷺ جميعاً، وتلك ميزة لداعية يظهر فيها، إذ يجد نفسه مرتبطاً بقربى مع سائر البطون، وهذا ماكان.

ولقد أخرج البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ «أن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا وله قرابة فيه».

والقربى النسبية تدفع بدورها إلى الوحدة، والاتجاه النفسي الواحد، وتجعل رأى الفرد منها مسموعاً مطاعاً، خصوصا في عصر كثرت فيه التكتلات القائمة على العنف والقوة، لدرجة أن عرب مكة جاءوا في البداية، وفي هدوء إلى أبي طالب، وشكوا إليه أمر محمد ﷺ بأنه: «سب الهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا وضلل آباءنا»[6] وبهذا كان في نظرهم يفرق، ولايجمع، وبذلك تضعف قوتهم، وكان الأمل أن يكونوا ومعهم محمد يداً واحدة حتى ولو جعلوه أغناهم أو ملكاً عليهم[7].

---

(١) الأعراف: ١٥٧.
(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٢٩٤.
(٣) يوسف: ٢..
(٤) مريم: ٩٧.
(٥) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية ص: ١٢١.
(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ: ١، ص: ٢٧٧. ومحمد حسين هيكل، حياة محمد، ص: ١٤٦.
(٧) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ: ١، ص: ٢١٣ ـ ٣١٤. ومحمد حسين هيكل، حياة محمد، ص: ١٥٣.

لقد كان من التوضيحات الإلهية للعرب وأهل مكة: أن الله بعث فيهم رسولاً منهم، وقد كرر القرآن الكريم ألفاظ (من أنفسهم) و(منكم) و(منهم)، وذلك فى معرض مخاطبتهم، إذ يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ..﴾[1] و يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ...﴾[2]. وقال تعالى: ﴿... جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ...﴾[3]، وكونه ﷺ منهم وفيهم، لايقتضى اختصاصه بهم، وإنما الذى تقتضيه هذه الإشارات (من أنفسهم) و(منكم) و(منهم) أن يكون العرب هم أولى الناس باتباعه، وأسرعهم الى ذلك، فهو أشد الناس حنوا عليهم، وأكثرهم أملاً فى هدايتهم، لارتباطه بهم بأكثر من طريق، وله أعمام، وأخوال، وعمات، وخالات، من سائر بطون مكة[4] كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ...﴾[5].

فهذه الآية الكريمة: تدل فى صراحة على وجود أعمام، وعمات، وأخوال، وخالات، له فى مكة، وأنه تزوج من بناتهم من المهاجرات بعد الهجرة، وبالبحث فى زوجات النبى ﷺ القرشيات، نجد أنهن لسن من بنات بنى هاشم ولكنهن من بقية البطون، فعائشة من بطن «تيم»، وحفصة من بطن «عدى»، وأم حبيبة من بطن «بنى أمية»، وأم سلمة من بطن «بنى مخزوم»، وسودة من «بنى زمعة»، وزينب من «بنى أسد».

فثبت بذلك أن القرابة كانت موجودة بين بطون مكة، وبين بنى هاشم، وأن للنبى ﷺ أخوالاً، وخالاتٍ، وأعماماً، وعماتٍ، من سائر البطون، لذا جاء الأمر

(١) التوبة: ١٢٨.
(٢) آل عمران: ١٦٤.
(٣) النحل: ١١٣.
(٤) ابن القيم، زاد المعاد، جـ: ١، ص: ٢٦ ـ ٢٧، ط: المطبعة اليمنية بمصر.
(٥) الأحزاب: ٥٠.

من الله لرسوله ﷺ بأن ينذر الأقربين، قال تعالى: ﴿وأَنذرْ عَشيرَتكَ الأَقْرَبين﴾[1] فدعا محمد عشيرته إلى طعام فى بيته، وحاول أن يحدثهم، داعياً إياهم الى الله[2]. ثم انتقل محمد ﷺ بعد ذلك بدعوته من عشيرته الاقربين إلى بطون أهل مكة، بطناً، بطنا[3].

قال تعالى: ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾[4] فهم أقرباؤه، لايطلب لهم إلا الخير والمصلحة، وعليهم ألا يعصوه، وهو لايسألهم خيراً أو مقابلاً. وكل مايرجوه أن يؤدوا حق القرابة الموجودة بينهم وبينه.

ولقد كان لهذه القرابة أثرها الواضح، فى استجابة العرب لدين الإسلام، إذ عرفوه بأنه صاحب النسب الرفيع العالى، ومن هنا لايأتى للناس إلا بما يأخذ بأيديهم إلى الصلاح. وعرف أقرباؤه أنه منهم وإليهم، وهم أولى الناس باتباعه والاهتداء بما جاء به من عند الله -سبحانه وتعالى- فكانوا أسرع الناس قبولاً للحق والهدى.

ثانياً: أثر اختيار الأمة للإسلام فى ظهور الإسلام:

لقد كان اختيار الأمة الأولى للإسلام له أثره الواضح، فهؤلاء العرب لم يلبثوا طويلاً فى عنادهم، بل آمنوا بالدعوة والقرآن، وأسلموا أمرهم لله، فصنع منهم فى وقت قصير لايذكر، خير أمة أخرجت للناس، تتحلى بمكارم الأخلاق، وعظائم السلوك، وتسعى فى كل مكان لهداية البشر على نهج القرآن الكريم، يقول مصطفى صادق الرافعى ـ رحمه الله ـ: «فالقرآن الكريم بتمكنه من فطرة العرب على وجهه المعجز، قد نزل منهم منزلة الزمان فى عمله وآثاره، لأن الذى أنزله وقدره بحكمته إنما هو خالق الزمن نفسه، فهدم نفوس العرب، وكان هدمه بناء جديداً جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها»[5].

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٦، ص: ١٧٦ ـ ١٨١. والسيوطى، الدر المنثور، جـ: ١٦، ص: ٣٢٤ ـ ٣٢٩.

(٣) محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص: ١٤٢. ومحمود شاكر، التاريخ الإسلامى، جـ: ٢، ص: ٦٤، ط: المكتب الإسلامى بيروت، سنة: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٤) الشورى: ٢٣.

(٥) مصطفى الرافعى، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: ٨٦، ط: الخامسة دار الكتاب العربى، بيروت، سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

إن الدعوة الإسلامية أثمرت أُكلها بظهورها فى الأمة العربية، إذ ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضارية، وأخلاقهم الرفيعة، وشجاعتهم الحليمة الوفية، وذكاؤهم الحاد، وفهمهم الدقيق، وحافظتهم القوية، إذ جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا، فنشطتها وسمت بها، وأزالت منها السلبيات الموروثة، فوجد العرب أنفسهم ـ بعد الإسلام ـ تلقائياً يبذلون حماسهم وقوتهم للدعوة الإسلامية، ويعطون شجاعتهم وإمكاناتهم لأمر رسول الله ﷺ وفى خدمة دعوته. فتحركوا إلى كل مكان، من أجل نشرها، تاركين كل مايهمهم، وأصبح تعصبهم اندفاعاً، لتنفيذ أوامر الدعوة الإسلامية، وتعاليمها، وكان لهم من استعدادهم ما جعلهم يستفيدون بالدعوة، ويفيدونها[1].

ولقد كان للبيئة العربية فى شبه الجزيرة أثرها الكبير فى الحركة العربية لاسيما من الناحيتين: الاجتماعية والسياسية، ولقد اتصل ذلك بالبيئة فى معناها الأعم والأشمل، من ظروف الأرض، والمناخ، والنبات، بل والحيوان أيضاً[2].

ولقد كان جلياً فى حكم التاريخ، وبنزول القرآن كله فى جزيرة العرب، أن هذه الخصائص التى نهض بها بيان العرب، وبنت أخلاقهم، وانتهت إلى حكمتهم، لم تكن مما توفر لأمة فى غير جزيرة العرب، حتى نزل القرآن الكريم، وحتى انطلق لها صحابة الرسول الكريم، فى مد الإسلام للتحرير وإشراقه للتنوير والتغيير، فكان حفظ القرآن بتعلم لغة العرب، والجهاد حول القرآن، والجهاد بالقرآن، طريق الإثبات لهذه الخصائص الإنسانية من خلال حركة التعريب الواسعة، التى صاحبت انتشار الإسلام[3].

فالعرب قد جمعوا بين فصاحة اللسان، وحكمة العقل، وجرأة القلب، لقد اجتمعت الفصاحة والبلاغة فى القول إلى حد الارتجال، ونطقوا بالحكمة السائرة، التى توارثها الأجيال من بعدهم، تلك الحكمة البعيدة عن الخرافة والوهم، وإنما هى خلاصة تجارب الحياة، والتى تعبر عن الإنسان فى كل مكان وكانوا رجال حرب، لا تضارعهم أمة فى شجاعتهم وبسالتهم، ومن هنا: اجتمعت لهم الأصول العميقة لمواهب الإنسان كلها[4]. مما كان له أثره فى انتشار الإسلام فى المشارق والمغارب، إذ قام العرب بدورهم فى تعريف المجتمعات المختلفة برسالة الإسلام.

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ١١٣.

(٢) د. سليمان حزين، المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية، جـ: ١، ص: ٣٨٧ ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٢م.

(٣) أحمد موسى سالم، لما ظهر الإسلام فى جزيرة العرب؟ ص: ٣١٩.

(٤) عبد القادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول فى مكة؟ ص: ٤٦، ٤٧.

ثالثاً: أثر عناية الله فى اختيار المكان لظهور الإسلام:

لقد كان لعناية الله - سبحانه وتعالى - فى اختيار المكان لظهور الإسلام أثر واضح فى انتشار الإسلام فيما حول مكة، قال تعالى: ﴿ ...وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا... ﴾[1] وهكذا يتقرر من الآية الكريمة أن أم القرى هى مركز الوسط الأمين، لأنها تنذر بما نزل فيها من حولها، إذ لو كانت غير ذلك، وفى جانب وإلى ناحية، ما كان الوجود من حولها[2].

لقد كان بحق هذا المركز الوسط مصدر إشعاع وأمن حول أم القرى، وكان العالم حول أم القرى، فانطلقت الرسالة الإسلامية، لتنير السبيل وتهدى الضال.

لقد اختار الله - تعالى - هذا المكان العالمى «مكة» وأقدس وأقدم بيت هناك «الكعبة» لتكون مناخاً لظهور الإسلام على يد محمد ﷺ[3].

وإعداد أول بيت وضع للناس، ليكون منطلقاً ومناخاً لحياة آخر دين خاتم للرسالات والديانات قبل ظهوره، يتفق تماماً مع عهد الله - تعالى - المأخوذ على أنبيائه، لنصرة دين الاسلام، قبل ظهور محمد ﷺ إلى عالم الدنيا، بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[4].

فالمكان الذى ظهرت فيه الدعوة أحاطه الله بمجموعة من الظروف جعلته مكاناً ملائماً للدعوة الخاتمة، لكى تنطلق فى كل اتجاه، وقد انطلقت الدعوة الإسلامية هنا وهناك، فكان صداها فى كل الأنحاء.

وترجع أهمية المكان: إلى أن الجزيرة العربية، ملتقى مواصلات هام بين بقية أجزاء آسيا وإفريقيا، التى تواجه أوروبا[5].

---

(١) الأنعام: ٩٢.

(٢) د. عبد الرزاق، أم القرى مركز الوسط الأمين، ص: ٤١، مقال بمجلة العرب بباكستان، العدد الصادر فى رجب، وشعبان، من السنة الحادية والخمسين.

(٣) عبد القادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول فى مكة ٢، ص: ٨.

(٤) آل عمران: ٨١.

(٥) د. محمد مصطفى النجار، عرب الجزيرة بين الجاهلية والإسلام، ص: ٤، ط: دار الطباعة المحمدية.

وأثر الموقع الجغرافى الذى بدأت منه الحركة العربية الإسلامية سواء فيما يتصل بالبقعة التى نزل فيها الإسلام من الجزيرة العربية (الحجاز) أم بالنسبة للجزيرة العربية، التى توسع منها العرب، وانتشر الإسلام إلى العالم الخارجى فقد كان لنزول الإسلام بالحجاز بالذات -دون غيره من سائر أجزاء الجزيرة العربية، وأركانها- أثره البعيد، والباقى على مر الزمن، بل أثره من حيث توحيد الجزيرة العربية فى حركة واحدة، مما ميز الإسلام على غيره من الأديان السماوية السابقة فى المنطقة، كذلك كان لارتباط الإسلام بمكان الجزيرة العربية، والموقع الجغرافى لهذه الجزيرة أثره البعيد والباقى على مر الزمن فى انتشار الإسلام شرقاً وغرباً، بالبر والبحر[1].

رابعا: أثر عناية الله فى اختيار الزمان لظهور الإسلام:

لقد عرفنا ـ ونحن نتحدث عن عناية الله فى اختيار الزمان لظهور الإسلام ـ أن هذا الزمان ساد فيه صراع عام، وحروب متوالية، «ولاشك فى أن الحروب المتوالية المحلية والعالمية، والخصومات المتتابعة، المذهبية والعقيدية، والتغيرات المتلاحقة، القومية والعنصرية، كل ذلك قد مهد للإسلام طريقه الفطرى فى الأرض»[2] ولعلنا ندرك بوضوح أن الزمن[3] عامل خارج عن ماهية الإسلام، لا صلة له بجوهره، ولكنه ذو أثر فعال فى دفع عجلته، والدعاية لرسالته فإن احتكاك المسلمين بغيرهم بسبب هذه الصراعات والحروب، كان مدعاة لتبادل الآراء وتداول النقاش، واستعراض ما له من مزايا، وأخلاق، وتقاليد.

إن صراعات هذا الزمن تميزت بالشمول والعمق، ولذلك كانت نهايتها أمينة صادقة على مستوى هذا الشمول وهذا العمق.

ومما يجدر أن نعرض له فى إيجاز، أن هذا الزمن حظى بوجود الحكماء من العرب، وكان الطابع العام لهؤلاء الحكماء هو البحث عن الدين المستقيم والتطلع إلى الهداية السماوية.

---

(١) د. سليمان حزين، المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية، جـ: ١، ص: ٢٨٦.

(٢) على عبد الرحمن الأمين، بحث بالمؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر جـ: ١، ص: ٣٥١.

(٣) وبيان ذلك: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى اختار الإسلام ليكون فى هذا الزمن الذى أشرقت فيه رسالة الإسلام، ولما كان الناس فى هذا الزمن لهم ما وصفنا. كان للزمن أثر كبير فى انتشار الإسلام، فكان عاملاً مهما.

وحكماء العرب هؤلاء هم: العلماء الذين كان يرجع إليهم فيما يعرض من مشاكل، وهم فى الجملة أعظم العرب حظاً فى الثقافة[1].

واذا كان ـ ماسبق ـ يعد من الجوانب المحدودة برغم كثرته، فإن قريشاً قد غمرتها روحانية، ففكرت فى أمر الدين وقداسته، والبيت وحرمته، وبعد تأمل وترو ابتدعت رأى الحمس. والحمس: جمع أحمس، والأحمس: الشديد الصلب فى الدين والقتال[2].

لقد وصل النضج الفكرى فى هذا الزمن، إلى مستوى يناسب ظهور الإسلام الذى جاء ليرتقى بالإنسان إلى معالم الحق، ويأخذ به إلى علائم الكمال المنشود.

لقد كانت الإنسانية تتطلع زمناً طويلاً الى دين جديد، عادل، رحيم. وكان هذا الدين هو الإسلام.

لقد أفلست نظم الإنسان السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وأدت الى صراع فى كل بقعة من بقاع الدنيا، مما جعل الإنسانية تتطلع إلى مايقيم لها إنسانيتها، ويحفظ لها كرامتها.

لقد كانت سنن الاجتماع البشرى، قد بلغت بالإنسان أشده، وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده، فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب.

خامساً: أثر حاجة الإنسانية إلى الإسلام فى ظهور الإسلام:

الدين يجىء فى إثر الدين، والرسول يتبع الرسول، وكل دين له ناسه المحدودون، وزمنه الموقوت، حتى بعث محمد ﷺ بدين للناس جميعاً، والإنسانية عامة، وذلك حين قضت الضرورة المطلقة بإرساله ليخرج العالم كله، ما كان يتخبط فيه، من ظلم، وضلال، وباطل[3].

ولولا هذه الضرورة المطلقة، ما اتصلت السماء بالأرض، برسالة جديدة هذا الاتصال الذى هو خرق لقوانين الطبيعة. ولا يكون إلا عند حاجة البشرية الملحة المتلهفة لدين جديد.

---

(١) د. عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفى فى الإسلام، جـ: ١، ص: ٣٨، ص الاولى، الأنجلو المصرية سنة: ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

(٢) المصدر السابق، جـ: ١، ص: ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) د. محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ص: ٢٢، ط: دار الفكر العربى، بيروت. ص: ٢٥.

نعم. كان العالم فى حاجة ملحة لدين جديد، بعد أن خفت صوت الرسل السابقين، وضاعت معالم الرسالات الإلهية، التى أرسلها الله لعباده، لا فرق فى ذلك بين بلاد العرب، إذ يوجد بيته المحرم، وبلاد الروم المهد الثانى للمسيحية، وفارس، إذ كانت المانوية، والزرادشتية، والمزدكية، وغير هذه البلاد وتلك من أقطار العالم المختلفة، فكان من الطبيعى أن يستتبع هذا الفساد فى العقيدة، وتلك الفرقة فى الدين، والاضطهاد للخارجين على مذهب الدولة، والانحلال فى الأخلاق، والفساد فى الإدارة، والظلم فى المجتمع.

وهذه الوجوه من الفساد، كان لها بلا ريب أثرها فى تقبل الإسلام فى كثير من نواحى الإمبراطورية الرومانية، بقبول حسن بين المسيحيين أنفسهم، إذ وجدوا فيه متنفساً لهم، ومُخلصا مما كانوا فيه من عنت وكرب[1].

نعم: كان من رحمة الله -كما يقول الإمام محمد عبده- بأولئك الأقوام «أن يؤدبهم برسول يوحى إليه رسالته، ويمنحه عنايته، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم، التى أظلت رؤوس جميع الأمم»[2].

إن الحالة الدينية فضلاً عن الحالة الاجتماعية الظالمة، التى كانت عليها الأمم قبل الإسلام، كانت تتطلب إنقاذاً سريعاً، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل، فكان هذا المنقذ هو الإسلام[3].

والإنسانية فى عصرنا هذا أشد ماتكون حاجة إلى الدين الإسلامى فإن التقدم العلمى المادى الذى غزا الفضاء، لم يستطع أن يحقق للناس السعادة والطمأنينة التى ينشدون، بل زادهم تكالباً على المادة، وتنافساً جشعاً جر إلى حروب.

فالذى نرجوه إذن لإصلاح هذا العالم، الذى نعيش فيه، بعد أن أفلست كل نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبعد أن ظهرت فيه فلسفات تدعو لإنكار وجود الله، والتحلل من المسؤولية، وفاضل الأخلاق[4].

---

(١) د. محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية، ص: ٢٢، ط: دار الفكر العربى، بيروت. ص: ٢٥.

(٢) محمد عبده، رسالة التوحيد، ص: ١٨١.

(٣) د. محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ص: ٢٦..

(٤) د. محمد موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ص: ٢٢.

إنه لاشيء غير هذا الدين الإسلامى، فلا خلاص للإنسانية إلا بالرجوع إلى الدين الحق، ولن نجد هذا الدين -كما أنزله الله- واضحاً ميسراً، خالياً من الغموض والتعقيد، سليما من التعريف والتبديل، إلا فى الإسلام خاتم الرسالات الإلهية، فهو دين الروح والمادة، والقلب والعقل، والفرد والجماعة، والدنيا والآخرة[1].

فإلى هذا الإسلام فى عقيدته وشريعته، فى عباداته ومعاملاته، فى نظمه، واخلاقه، ندعو البشرية كلها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[2].

هذا الدين لايزال العالم فى حاجة شديدة إليه، ولاخلاص للإنسانية مما تعانيه إلا بالإيمان به، فهو الآمر بالمعروف، والناهى عن المنكر، والداعى إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم.

وبعد:

فهذه حقائق علمية مسلمة:

- اختيار الرسول ﷺ ليبلغ الإسلام.
- اختيار الأمة الأولى للإسلام.
- عناية الله فى اختيار المكان لظهور الإسلام.
- عناية الله فى الزمان لظهور الإسلام.
- حاجة الإنسانية إلى الإسلام.
- أثر العوامل والاختبارات السابقة فى ظهور الإسلام.

هذه الحقائق الأصيلة، قد بينت لنا فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده، ورحمته بهم، فكان ظهور الإسلام، ظاهرة تجمع بين العقيدة والحركة فى حيوية،

---

(١) محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص: ٢٤.

(٢) النساء: ١٧٤، ١٧٥.

ولاينضب نبعها، كما تفردت تلك الظاهرة بالجانب الروحى، والعقدى، الذى تمثل فى الإسلام ديناً واحداً، وعقيدة أقوى فى تماسكها، وتقارب مذاهبها من أية عقيدة قائمة.

علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن عباده لاينتفعون بمدد، سوى الدين وهو المدد الذى فطره الله فى قوله للملأ الأعلى منذ التدبير فى خلق الانسان وجعله خليفة فى الأرض: ﴿ **إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ...** ﴾ [1] قد وضعه الله أساساً لحياة الإنسان منذ خلقه، وعلق به عمارة هذه الدنيا: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[2].

هذا المدد هو الهداية السماوية، التى تعهد الله بها عباده، وآمنت به الأرواح الصافية المؤمنة بمهمة الإنسان فى هذه الحياة.

وكان مما طلب إبراهيم وولده إسماعيل من ربهما فى إسعاد ذريتهما ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾[3] طلبا منه ذلك، وهما يعلمان أن ذريتهما لاتخلو من تفكير عقلى، تستطيع أن تتخذ منه منهج حياتها، وتنظيم شؤونها، لعلمهما أن الفكرة الإنسانية مهما سمت، ومهما تجرد أصحابها من الأغراض، فهى بمكان من الضعف.

وعلى هذا الأساس تعهدت العناية الإلهية، الإنسان فى جميع أطواره، ترشده إلى وسائل الإصلاح، التى يحتملها استعداده، فأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وسارت فى هذا السبيل، حتى وصل الإنسان إلى درجة من الاستعداد العقلى والنضوج الفكرى، والتفتح الذهنى، لرسالة عامة خالدة، تضمنت بنصوصها وإشاراتها جميع مايحتاجه الإنسان.

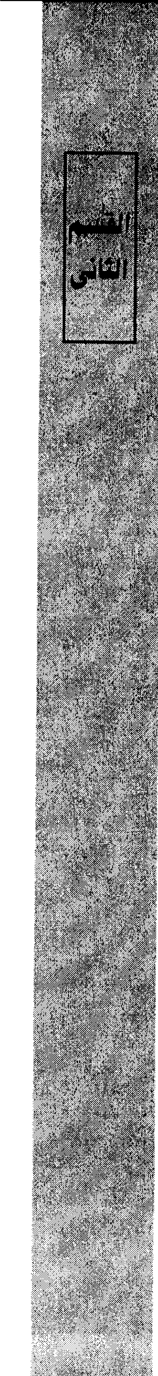
وبهذه الرسالة الخالدة، بعث الله محمداً ﷺ بعد أن هيأ له الزمان، والمكان، واصطفاه، واختاره، وأنزل القرآن الكريم بعد أن جعل العرب أهلاً للغة القرآن، ليبلغوا الناس القرآن، وينشروا فى الأرض الإسلام، وبه أكمل الله هدايته، وأتم على عباده نعمته، وكان محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل.

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) البقرة: ١٢٩.



عوامل ذاتية اتسم بها الإسلام

- الفطرية
- العالمية
- الاستمرارية
- الشمولية
- الإعجاز القرآني
- العدالة
- اليسر والسماحة
- الوضوح
- الكمال



الفطــرية

لما كانت الفطرة، فطرية الإسلام، عاملاً من العوامل الذاتية فى الإسلام، التى دفعت الناس إلى الإقبال على الإسلام، كان علينا أن نجلى مفهوم الفطرة فى مفاهيم أهل اللغة، ومفاهيم أهل الاصطلاح.

يقول ابن منظور: فطر الله الخلق يفطرهم: خلقهم وبدأهم. والفطرة الابتداء والاختراع. وفى التنزيل العزيز: ﴿الْحَمْدُ للَّه فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]. قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: ماكنت أدرى ما فاطر السموات والأرض، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أى: أنا ابتدأت حفرتها[2].

وذكر ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: أنه سمع أعرابياً يقول: أنا أول من فطر هذا، أى ابتدأه[3]. والفطرة ـ بالكسر ـ: الخلقة[4]. قال الشاعر:

هون عليك فقد نال الغنى رجل   فى فطرة الكلب لابالدين والحسب[5].

وفى القرآن الكريم جاء على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[6].

والفطرة مافطر الله عليه الخلق من المعرفة به[7].

يقول الراغب الأصفهانى: وفطر الله الخلق، هو إيجاده الشىء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال. فقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [8] إشارة منه تعالى إلى ما فطر، أى: أبدع وركز فى الناس من معرفته تعالى. وفطرة الله: هى ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان[9]، لأن

---

(١) فاطر: ١.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٦، ص: ٥١٩.

(٣) ابن منظور لسان العرب جـ: ٥، ص: ٣٤٣٣ مادة (فطر).

(٤، ٥) المرجع السابق جـ٥ ص: ٣٤٣٣.

(٦) الأنعام: ٧٩.

(٧) ابن منظور لسان العرب جـ٥ ص: ٣٤٣٣ مادة (فطر).

(٨) الروم: ٣٠.

(٩) الراغب الأصفهانى، المفردات فى غريب القرآن ص: ٣٨٢ ط: دار المعرفة بيروت.

من معانى الفطرة ذلك الإقرار بالرب، نتيجة الميثاق، الذى أخذه الله من ذرية آدم -عليه السلام ـ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ..﴾[1]. فهذا يعنى: أن الخلق مجبولون على المعرفة بالله، فهو شىء يجدونه فى أنفسهم، لايستطيعون له دفعاً، وإذا أصابتهم ضراء دعوا الله ورفعوا إليه أكفهم، فمن أين جاءهم هذا التوجه إلى الخالق، وأنه هو الذى يستطيع رفع الضر؟ إنها الفطرة المركوزة فيهم، ولولا أن فى النفس قابلية لمعرفة الله ومحبته، والذل له، لما استطاع التعليم والتذكير أن يؤثر فيها، فقوة المحبة لا تأتى من الخارج، وإنما هى شىء فى الداخل. ولما دعا الرسل أقوامهم إلى عبادة الله، دعوهم إلى من يعرفونه، ولم ينكر دعوتهم أحد[2].

وأما إنكار فرعون، فهو إنكار العارف، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...﴾[3] وكما قال له موسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾[4].

وبعض العلماء يذكر أن المراد بالفطرة: الإسلام، ويستدل هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[5].

يقول ابن كثير: فسدد وجهك، واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، التى هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التى فطر الله الخلق عليها، فإنه ـ تعالى ـ فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما فى قوله تعالى: ﴿...وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ..﴾[6].

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) محمد سليمان، من مشكاة النبوة، مقال بمجلة البيان، العدد السابع عشر ص: ٢٠، الصادر فى شعبان ١٤٠٩هـ عن المنتدى الإسلامى بلندن.

(٣) النمل: ١٤.

(٤) الإسراء: ١٠٢.

(٥) الروم: ٣٠.

(٦) الأعراف: ١٨٢. وانظر ابن كثير تفسير القرن العظيم جـ ١ ص ٣٢٠.

ويقول الزمخشرى فى تفسيره: «فقوم وجهك له، وعدله غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين، واستقامته عليه، وثباته واهتمامه بأسبابه، فإن من اهتم بالشىء، عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه، مقبلاً به عليه»[1].

و(فطرت الله) أى: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله، والفطرة: الخلقة، ألا ترى إلى قوله: ﴿**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾ والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه، ولامنكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح، حتى ولو تركوا، لما اختاروا عليه ديناً آخر[2].

ويقول سيد قطب: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**﴾ أى: واتجه إليه مستقيماً فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة، التى لاتستند على حق، ولاتستمد من علم، إنما تتبع الشهوات والنزوات بغير ضابط ولادليل. أقم وجهك للدين حنيفاً مائلاً عن كل ماعداه، مستقيماً على أمره دون سواه[3].

﴿ ... **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**... ﴾[4] وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية، وطبيعة هذا الدين، وكلاهما من صنع الله وكلاهما موافق لناموس الوجود، وكلاهما متناسق مع الآخر فى طبيعته واتجاهه، والله الذى خلق القلب البشرى، هو الذى أنزل إليه هذا الدين، ليحكمه ويصرفه، ويشفيه من المرض، ويقومه من الانحراف، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير والفطرة ثابتة، والدين ثابت، فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة، لم يردها إليه إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة، فطرة البشر، وفطرة الوجود»[5].

فأنت ترى من خلال تفسير ابن كثير، والزمخشرى، وسيد قطب: أن الفطرة هى الإسلام.

---

(١) الزمخشرى الكشاف جـ: ٣، ص: ٢٠٤.

(٢) الزمخشرى الكشاف جـ: ٣، ص: ٢٠٤ بتصرف واختصار.

(٣) سيد قطب فى ظلال القرآن جـ ٥ ص: ٢٧٦٧.

(٤) الروم: ٣٠.

(٥) سيد قطب، فى ظلال القرآن جـ٥ ص: ٢٧٦٧.

عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة عجماء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا ﴿...فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ...﴾[1] . قالوا يارسول الله: أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

فالرسول ﷺ يرشدنا إلى أن تغيير هذه الفطرة يقع بتأثير الوالدين، أو تأثير البيئة، ولذلك شبه المولود بالبهيمة العجماء، التى تولد سليمة، مجتمعة الخلق، لاتغيير فيها ولا تشويه، ولكن الناس يغيرون خلقها بعدئذ، فيشقون آذانها أو غير ذلك، فالفطرة لو تركت دون تأثير خارجى، سواء من الوالدين أو غيرهم، وأزيحت عنها العوائق من الشبهات والشهوات، فهى تقتضيه بذاتها لدين الإسلام[2].

ويقول أحد المفكرين: وعامة السلف، وجمهور المحدثين، على أن المراد بالفطرة فى الحديث: الإسلام. وقالوا: إن فطرة الله التى فطر الناس عليها هى: الإسلام، وذكر هذا عن كثير من السلف فى تفسير الآية السابقة[3] . قالوا: دين الله هو الإسلام، والأدلة على ذلك كثيرة:

أولا: أن الرسول ﷺ لما ذكر هذا الحديث سألوه عن أطفال المشركين، فقال لهم: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[4]. فلو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام، لما سألوه عن ذلك، لأنه لم يكن هناك مايغير تلك الفطرة، ما داموا بين أبوين كافرين، وقوله ﷺ: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه»: يبين أنهم يغيرون الفطرة التى ولدوا عليها.

ثانيا: لقد شبه الرسول ﷺ ذلك بالبهيمة التى تولد مجتمعة غير مجدوعة، لانقص فيها، ثم يطرأ عليها النقص بعد ذلك بجدعها فعلم من ذلك أن التغيير وارد على الفطرة السليمة.

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) محمد سليمان، من مشكاة النبوة، مجلة البيان، العدد السابع عشر ص ٢٠ بتصرف.

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ سورة الروم آية ٣٠.

(٤) يقول ابن منظور فى كتابه «لسان العرب» تعليقًا على هذا النص النبوى يذهب إلى أنهم إنما يولدون على ما يصيرون إليه من إسلام أو كفر. ولسان العرب، جـ ٥، ص: ٣٤٣٤. مادة (فطر).

ثالثاً: الحديث مطابق لما فى الآية الكريمة: ﴿... **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[1] و هذه الآية وصف الله بها الدين الذى أمر نبيه بأن يقيم وجهه له فى قوله: ﴿...**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**...﴾[2] ثم قال: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ**﴾. والإضافة هنا: للمدح والتشريف، فعلم أنها فطرة ممدوحة، لامذمومة: ويؤيد هذا كله الروايات الأخرى التى فسرت الفطرة بأنها: الحنيفية، وبأنها هذه الملة، يعنى: الإسلام.

رابعاً: لو كانت الفطرة هنا شيئاً غير الإسلام، لكان الرسول ﷺ قد ذكر الإسلام فى جملة ماذكر من الأديان التى تفسد الفطرة بالتحول إليها، ولقال: «فأبواه يهودانه وينصرانه أو يسلمانه» ولكنه لم يذكره، لأنه الدين الذى تتغير الفطرة بتحولها عنه، وليس بتحولها إليه[3].

وإذا كانت الفطرة تقتضى الإسلام، فهذا يعنى: طروء الكفر، وأنه ليس هو الأصل فى النفس البشرية، وقوله تعالى: ﴿**لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾ أى: لاتبديل لدين الله، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**...﴾[4].

أخرج ابن كثير فى تفسير هذه الآية قول قتادة: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ قال: «كانوا على الهدى جميعاً ثم اختلفوا فيه»[5].

وأما ماجاء فى سورة الكهف فى قصة موسى -عليه السلام- والرجل الصالح الذى قتل الغلام، فلا يعنى هذا: أن كفر هذا الغلام كان موجوداً حين الولادة، لذلك جاء فى الحديث الصحيح: «أن الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً، ولو بلغ لأرهق أبويه طغياناً وكفراً» [6] . فقوله (طبع) أى طبع فى الكتاب، أى: قدر

(١، ٢) الروم: ٣٠.

(٣) د. محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر فى الفكر الإسلامى ص ٢٣٤، ط: مطبعة الحلبى بالقاهرة سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٤) البقرة: ٢١٣.

(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٥.

(٦) رواه مسلم فى صحيحه فى موضعين، كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر جـ ٤ ص: ١٨٥٢، وكتاب القدر باب كل مولود يولد على الفطرة، جـ: ٤، ص: ٢٠٥٠، ورواه الترمذى فى صحيحه، تفسير سورة الكهف جـ٤، ص: ٣٧٤. وقال: حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود فى سننه، كتاب السنة، باب القدر جـ٤، ص ٢٢٧.

وقضى، فهو مولود على الفطرة السليمة، ولكن يتغير بعدئذ فيكفر، كما أن البهيمة التى ولدت جمعاء، وقد سبق فى علمه -سبحانه وتعالى- أنها تجدع، كتب أنها مجدوعة بجدع يحدث لها بعد الولادة[1].

وقد قتل الصحابة فى سرية من السرايا أولاد المشركين، فأنكر عليهم رسول الله ﷺ ذلك، فقالوا: أليسوا أولاد المشركين فقال: «أليس خياركم أولاد المشركين؟»[2] . .ثم قام فيهم خطيباً فقال: «ألا إن كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه»[3].

فهذا يبين أن الكفر طرأ بعد ذلك[4].

وما ينبغى معرفته فى ذلك: أن الرسول ﷺ إذا قال: «كل مولود يولد على الفطرة» يعنى: على الإسلام أو الحنيفية فليس المراد أنه خرج من بطن أمه، وهو يعلم هذا الدين ويعرفه، لأن الله يقول: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[5]. ولكن المراد أن فطرته موجبة ومقتضية لمعرفة كل ما هو حق، ومحبة كل خير، ونفس الفطرة تستلزم الإقرار بالحق، ونشدان الخير، ولهذا فقد استدل بالفطرة السليمة على معرفة الخالق ـ سبحانه ـ، والإقرار بربوبيته، لأن معرفته رأس الخير كله، وموجبات الفطرة تحصل بعد ذلك شيئاً بعد شىء، بحسب درجة استعداد الطفل لتحصيل ألوان المعارف، وحرصه على ذلك وبحسب كمال فطرته، إذا سلمت من المعارض[6]، فالفطرة الطبيعية تتجلى فى الطفل صريحة، دون تكلف أو تصنع[7].

---

(١) محمد سليمان، من مشكاة النبوة، مجلة البيان، العدد: ١٧، ص: ٢١.

(٢) رواه أبو دواد فى سننه، كتاب السنة، باب فى ذرارى المشركين، جـ٥، ص: ٨٤. رقم الحديث ٤٧١١. ورواه أحمد فى مسنده جـ٢ ص: ٢٦٦، ٢٩٣، ٤٧١.

(٣) رواه بهذا اللفظ أحمد مسنده جـ٣ ص: ٣٥٣. ورواه مسلم فى صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة جـ٤، ص: ٢١٤٨.

(٤) محمد سليمان، من مشكاة النبوة، مجلة البيان، العدد ١٧، ص: ٢٢.

(٥) النحل: ٧٨.

(٦) د. محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر ص: ٢٣٥.

(٧) د. على عبد العظيم، إن الدين عند الله الإسلام، ص: ٢٥ ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

وإذا كان من البدهيات فى حس كل مسلم ومسلمة أن خالق هذه الفطرة هو منزل هذا القرآن، وهو الله -تعالى- فمن الطبيعى أن نعلم يقيناً أن هذا الدين لابد أن يكون موافقاً للفطرة، إذ يستحيل أن يكون فى دين الله أو شرعه أمر يخالف ويعارض مافطره عليه، فالحكيم العالم بما خلق، ومن خالق، يضع الشريعة المناسبة له، والملائمة لخلقه، وكل أمر شرعى يخطر فى بالك أنه يعارض الفطرة، فيجب أن تعلم أنه لايخلوا من احتمالين:

الأول : أما أنه أمر شرعى ولايخالف الفطرة الصحيحة المستقيمة فمخالفته للفطرة وهم.

والثانى: واما أن يخالف الفطرة فعلاً، ولكنه لايكون أمرا شرعياً، وإن نسبه الناس إلى الدين بغير علم ولاهدى[1].

ومن الخصائص الأساسية للعقيدة الإسلامية: أنها عقيدة الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها، فعندما دعا الإسلام البشر جميعًا إلى الإيمان بالله والعبودية له وحده، كان لهذه العقيدة صدى فى أعماق فطرة الإنسان[2]... فهى مخالفة لفطرة الانسان، وحينما جاء الإسلام موافقاً للفطرة الإنسانية السليمة دخل الناس فى دين الله أفواجاً، لأنه تعامل مع رصيد الفطرة المكنون، وهو رصيد ضخم هائل لاتقف أمامه أى قوة، حين يستنقذ، ويجمع، ويوجه، ويطلق فى اتجاه سليم مرسوم[3].

وحسبنا فى بيان هذا أن نشير إلى: أن الإسلام فى ناحية العقيدة لايأمر إلا بعبادة إله واحد، لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك فى الملك فلم يقل بإلهين اثنين متشاكسين، كما قالت الثنوية، حين زعم دعاتها: أن الحياة صراع بين إله الخير وإله الشر، وليس فيه شىء من الأسرار المسيحية مثل «سر التثليث» و«سر القربان» وتحوله إلى لحم المسيح ودمه، هذه الأسرار التى لايصل أحد من رجال المسيحية أنفسهم

---

(١) سليمان بن فهد العودة، نداء الفطرة لدى الرجل والمرأة، ص ٩ ط: الرياض سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

(٢) د. السيد رزق الطويل، العقيدة فى الإسلام ص ٨٧، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٣) سيد قطب، هذا الدين ص: ٥٠، ط: سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

إلى أن يدركوها إدراكاً عقلياً صحيحاً، ولهذا يطلبون من أتباعهم الإيمان بها، دون محاولة فهمها، ولكن هيهات، وفكرة الوساطة فى المسيحية بين الله وعباده فكرة لايستسيغها العقل ولايرى لها ضرورة، ولايعرف لها غاية، فإنه لا معنى لتوسط رجل من رجال الدين بين الله، وبين أحد من الناس، والله العليم بكل نفس ولا حجاب بينه وبين أحد من خلقه، ولهذا يرى الإسلام أن لكل واحد أن يتجه لله مباشرة بعقله، ويرفع إليه رجاءه بلا وسيط من رجال الدين[1]، وفى هذا جاء فى القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾[2]، وكذلك فكرة أن الإنسان ولد وجاء إلى هذه الحياة مثقلا بالخطيئة الأصلية التى لايستطيع منها فكاكاً، وتقول بها المسيحية، ونعرفها نحن من كتبها التى بين أيدينا، وهم يعنون بها أن الإنسان يولد وعليه وزر خطيئة آدم ـ عليه السلام ـ جده الأعلى حين خالف عن أمر ربه، وأكل من الشجرة التى حرم الله قربانها، وبذلك يحملونه وزراً لم يجنه، ويجعلونه يعيش طول حياته وهو رازح تحت أثقال هذه الخطيئة المزعومة، ومن ثم يطلبون من الإنسان أن يؤمن بعقيدة الصلب والفداء، أى: صلب المسيح الإله، تفدية للبشر مما لحقهم من هذه الخطيئة الأصلية[3].

وكيف يستطيع عقل الإنسان أن يؤمن بأن «الإله» ـ كما زعموا ـ يتمكن منه أعداؤه فيصلبونه وهو يستغيث، ولا مغيث له، على حين يقول القرآن الكريم ـ كتاب الإسلام ـ عن آدم عليه السلام: ﴿...وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[4]. كما يقرر أنه ليس للإنسان إلا ماسعى، وأنه لاتزر وازرة وزر أخرى، كما يقرر من ناحية أخرى: أن الإنسان يولد بريئاً من كل ذنب أو خطيئة، وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، وأن من يعمل مثقال ذرة شراً يره، وأن الله ـ تعالى ـ أمره هو القوى العزيز، فلا ينال منه أحد[5].

---

(١) كان على الدكتور محمد يوسف موسى الذى نقلت عنه هذا النص من كتابه الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ألا يستعمل عبارة رجال الدين فى الجانب الذى يخص المسلمين لأنه لا يوجد فى الإسلام رجال دين، وإنما علماء دين.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) د. محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ص ٤٣.

(٤) طه: ١٢١، ١٢٢.

(٥) د. محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص: ٤٣.

وفطرية العقيدة دليل واقعيتها ورسوخها، وتقبل الناس فى يسر لها كما أنها عنصر هام فى تأثيرها فى الأخلاق والسلوك، وحوار القرآن الكريم للمشركين، وتقديم هذه التساؤلات لهم:

- ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ... ﴾[1].
- ﴿ ... أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ... ﴾[2].
- ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ... ﴾[3].
- ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ... ﴾[4].

يؤكد أن لهذه التساؤلات صدى فى أعماق الناس، يدفعهم إن استقامت فطرتهم إلى الجواب السديد[5].

فالإسلام دين الفطرة دون منازع، أى: أنه الدين الذى يتلاءم كل الملاءمة مع الخليقة، ومن هنا صح لنا ولغيرنا أن نسميه دين البشرية، وماكان الإسلام ليسمى دين البشرية اعتباطاً أو تحمساً، ولكن ما جاء به هذا الدين من دستور يقبله العقل، وهداية يستنير بها القلب، وعمق يرتكز عليه الإيمان، وتطور يصلح لكل زمان ومكان، وشريعة تنظم أحوال المجتمع، ومساواة تربط بين جميع الناس، وتأمين للنفس البشرية يجعلها تطمئن إلى حياة أخرى، تلقى النعيم بقدر ماقدمت من خير - مع فضل الله ورحمته - كل ذلك وغيره جعل الإسلام أقرب إلى طبيعة النفس البشرية ديناً ترتضيه وسراجاً تهتدى به، وصمام أمان يرد على النفس طمأنينتها إذا هزها ريب، أو اعترتها شكوك[6].

والحقيق أن فى فطرة الإنسان فراغاً لايملؤه علم وثقافة، ولا فلسفة وإنما يملؤه الإيمان بالله - جل وعلاه - [7] فاعتقاد الأفراد والجنس الإنسانى بأسره فى الخالق،

---

(١) إبراهيم: ١٠.

(٢) النمل: ٦٠ : ٦٤.

(٣) النحل: ١٧.

(٤) لقمان: ١١.

(٥) د. السيد رزق الطويل، العقيدة فى الإسلام ص: ٨٨.

(٦) د. مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص: ٣٩، ط: البابى الحلبى بمصر، سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

(٧) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة فى الإسلام، ص: ١١، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

اعتقاداً اضطرارياً، قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده، ومهما صعد الإنسان بذاكرته فى تاريخ طفولته، فلا يستطيع أن يحدد الساعة التى حدثت فيها عقيدته بالخالق، تلك العقيدة التى نشأت صامتة وصار لها أكبر الآثار فى حياته، فقد حدثت هذه العقيدة فى أنفسنا، ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا[1].

«فالطفل حين ولادته لايكون لديه إدراك لهذا الأمر، ولاتعقل له ولا إرادة، فى تحصيله، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[2]. ولكنه يولد وفى فطرته قوة تحصيل النافع، وكلما ازداد الطفل علماً وإرادة حصل له من معرفته بالخير، وطلب النافع، بحسب ذلك العلم والإرادة، وهذا مشاهد فى حياة الأطفال، قبل بلوغ سن الإدراك والتمييز، فانهم يحبون النافع لهم، ويهربون من الضار، بحسب كمال تمييزهم أو ضعفه، وكل ذلك يحدث فيهم على التدريج شيئاً فشيئاً، إلى أن يصل إلى الحد الذى ليس فى الفطرة استعداد لقبوله، كمعرفة الغيبيات، وقضايا الألوهية، فتتوقف الفطرة عن قبول ذلك، ما لم تهتد بما جاءت به الرسل الذين بعثوا لتكميلها»[3].

ولاشك أن النفوس يحصل لها من العلوم بحسب ماتكتسبه منها، وإذا لم يكن فى النفوس قوة تقتضى معرفة هذه العلوم، لما استطاعت أن تعلم شيئا منها، ولعل أكبر دليل على ذلك: أننا لو قمنا بمحاولة لتعليم الإنسان والحيوان، لما حصل للحيوان من العلوم مثل مايحصل لبنى آدم منها، مع أن السبب فى الموضعين واحد، فالإنسان يشارك الحيوان فى الإحساس والنمو والحركة الإرادية، ولكن الحيوان ليس بقابل لما يقبله الانسان من المعارف، ولولا أن فى الفطرة قوة تقتضى اختصاص الإنسان بذلك لما حصل له من العلوم مايميزه عن الحيوان[4].

ويذكر الباحثون: أنه إذا ما اشتد الجوع بالإنسان، فإنه بفطرته يبحث عن الطعام، ليسد جوعه، وإذا مابرح به الظمأ فإنه بدافع من فطرته يبحث عن الماء

(١) محمد فريد وجدى، دائرة معارف القرن العشرين، جـ١ ص: ٣١٤. ط: الأولى بمصر.

(٢) النحل: ٧٨.

(٣) د. محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩. ود. أحمد غلوش الدعوة الإسلامية ص ١٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٣٩.

ليروى غلته، وإذا ما اشتد عليه البرد، فإنه بسوق من فطرته يتلمس مايدفع به البرد عن نفسه، وأما ما يتكون فى نفسه، من خيالات وعواطف وأفكار، فإنه يعمل فكره باحثاً عما يعبر من خلاله عنها، من كلمات أو إشارات بإلحاح من فطرته، وفى النفس الإنسانية مطامح روحية، وأشواق غيبية، لابد للإنسان وأن يبحث عما يشبعها ويقنعها، وذلك أمر فطرى أيضاً[1].

إن من فطرة الإنسان أن يبحث عن وجود خالق، وأن تجذبه فطرته للعبادة، وأن توقد الشوق فى نفسه، وتنبه عقله للحاجة إليها، وقلما تجد أحداً لايلقى ذلك فى نفسه[2].

فالنفوس لا يمكن أن تكون خالية عن الشعور والإرادة والحركة، لأن هذه المعانى من لوازم كونها نفساً، فالشعور والإرادة من لوازم حقيقتها ولا تتصور النفس إلا أن تكون شاعرة ومريدة، ومادامت هى مريدة وشاعرة، فلابد لها من مطلوب مراد ضرورة كونها مفطورة على ذلك، وكل مراد فإما أن يراد لنفسه أو يراد لغيره، والنفس لها مرادات كثيرة ومتنوعة، غير أنها على كثرتها، لابد أن تنتهى إلى مراد واحد، تكون إرادتها له بذاته لا لغيره، منعاً للتسلسل فى العلل الغائية، وذلك المراد لنفسه هو الخير والحق، الذى يتمثل فى معرفة الله أولاً، باعتباره حقيقة الحقائق، وواهب كل خير، ثم معرفة النافع للنفس ثانياً ولاتخلوا كل نفس عن هذا اللون من المعرفة، لأن ذلك من لوازم كونها نفساً وعلى هذا الأساس المغروز فى طباع كل بنى آدم، كانت مخاطبة القرآن للناس على سبيل التفكير[3].

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية، وقبولها بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها، لا كبتها وقمعها[4].

لقد جاء الاسلام موافقاً لطبيعة الإنسان، مراعياً رغباته، غير متنكر لضروراته، يكرم دوافع جسده، وحاجات شهوته، لايعاديها ولايستقبحها ولايدمر نفس الإنسان

(١، ٢) د. يوسف محيى الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص: ٥٩، ط: دار العاصمة بالرياض سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨.

(٣) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، جـ٤، ص ٩٦، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط: الأولى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م. وابن القيم، شفاء العليل، ص ٢٨١، ط: مكتبة المعارف بمصر.

(٤) د. يوسف محيى الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص ٣٦، بتصرف.

ولايحارب فطرته، باسم الروحانية والسمو، والتطهر والملائكية، والترفع على الشهوات الهابطة، إن الإسلام جاء ليأخذ بيد هذه الدوافع ليجندها، ويوظفها فى سبيل عمارة الأرض، وبقاء البشرية، ودوام الحياة يعترف بإنسانية الإنسان، وبحاجاته الفطرية، ويوجهها إلى الله، ويربطها بطاعته، وهى تدرك أوطارها وتلبى آمالها، يجمع فى آن واحد بين رغبات الجسد وأشواق الروح، وغايات الحياة، بتناسق وتوافق بديع[1].

ويمتاز الإسلام عن غيره من الأديان بأن النفس متى ارتضته وآمنت بروحه، واطمأنت إلى تعاليمه، لاتحيد عنه أو ترتضى غيره بديلاً، ذلك لأنه أقرب إلى طبيعة النفس البشرية، ولذلك فإننا لم نجد مسلماً خرج عن إسلامه إلى غير الإسلام، إلا فى حالات نادرة، لايكاد يحسب لها حساب، فهذه فرنسا ـ على سبيل المثال ـ قد احتلت الجزائر منذ سنة ١٢٤٥هـ-١٨٣٠م وظلت مائة وثلاثين سنة، حاربت فيها الإسلام حرباً لاهوادة فيها، وبثت المبشرين فى جميع أصقاع تلك البلاد، فما استطاعوا أن يخرجوا غير مسلم واحد عن دينه، أى أن مائة وثلاثين سنة من هدم الإسلام، والتنصير المسيحى، لم تستطع أن تخرج من الإسلام إلا مسلماً واحدًا[2]، وماذلك إلا لأنه أوفق دين للخليقة، وأنسب عقيدة للإنسان، بينما نرى كل يوم عشرات من أبناء الديانات الأخرى، إلى يومنا هذا يدخلون فى الإسلام، راضين متحمسين، ومن هنا كان فضل الإسلام على الشعوب عظيماً، لقد مدن الإسلام كثيراً من الأمم، بل ما من شعب اعتنق الإسلام إلا وسار فى مدارج الحضارة، وآية ذلك واضحة فى جزيرة العرب نفسها، التى انتقلت بعد إسلام أهلها إلى أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتنشر راية العرفان والإيمان، خفاقة فى جميع أنحاء المعمورة ولم يعرف للعرب من الانتصارات الباهرة، والفتوحات الرائعة ماقد عرف لهم قبل إسلامهم[3].

ومن ثم «فنشر الإسلام وسيادة عقيدته، قديماً وحديثاً فى أسرع وقت وبأيسر جهد، إنما يرجع إلى واقعية هذا الدين، وبساطة عقيدته، ولم يشهد التاريخ تحولا

(١) د. يوسف محيى الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص: ٣٦، ٣٧.

(٢، ٣) د. مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص ٣٩، ٤٠.

جماعيًا لأمم وشعوب، كانت فى ذروة الحضارة، كما شهد فى الإسلام، إذا اعتنقته جماعات بأسرها، مرحبة بعقيدته السمحة، ومبادئه الواقعية، واجدة فيه الخلاص الأكبر من جاهلية توبق النفس، ووثنية تزهق الروح، وركام يطمس الفطرة»[١].

إن الإسلام دين الفطرة، عقيدته تستمد ضياءها، وصفاءها، وتألقها، من وهج الفطرة التى رأها الله، طاهرة ناصعة، ولقد تعجب إذ ترى الدول الصليبية تنفق أموالاً طائلة على التبشير «التنصير» بالنصرانية وتحويل المسلمين عن إسلامهم، تساند ذلك بالوسائل العلمية، ولكنها وبرغم الجهود المضنية لاتظفر على المدى الطويل، باجتذاب أحد إلى النصرانية أو استهواء جماعة إلى الكفر، وأنا أقصد الذين تمكنت منهم عقيدة الفطرة. . أما الذين يعيشون فى فراغ عقيدى، فهم المرتع الخصب لأهداف الدول الصليبية، مما يدعو الأمة الإسلامية، بل يوجب عليها اعداد الدعاة ومواجهة التحديات، ومما لايكاد يخفى: «أن الفطرة فى الإسلام ليست تفكيراً خالصاً، ولاشعوراً محضاً، إنها مزيج من التفكير والشعور، والدين قد جاء يخاطب الفطرة كما يخاطب الفكر والشعور معاً، يخاطب العقل والقلب جميعاً، والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده فى الوصول إلى عقيدة راسخة، وفكرة كلية واضحة، تفسر هذا الوجود، وتحل ألغازه. قد جاوزوا بالعقل حدوده واختصاصه، وأهملوا جانباً مهماً فى الفطرة الإنسانية، هو جانب الشعور والوجدان، جانب العقل. كما أغلقوا على أنفسهم بابا واسعاً، ما كان أحوجهم إليه، وما أضل سعيهم بغيره، هذا الباب هو: باب الوحى»[٢].

ولابد لنا من أن نتبين الفرق بين الفطرة والتقليد، فالتقليد نوع من التبعية للآخرين. . . أما الفطرة: فنور موثوق به، فى داخل الإنسان، يحتوى على ضمان أحقيته فى ذاته. وكل الأدلة الخارجية كونية أو عقلية، إنما هى منبهات على هذه الفطرة، ولايصرف الإنسان عن عقيدة الفطرة، إلا أهواء غالبة، أو نزوع إلى تقليد الأباء والأجداد، وبهذا كانت مهمة رسل الله كافة فى جميع الأعصار، هى تحويل

---

(١) توفيق محمد سبع، واقعية المنهج القرآنى، ص ٨٢ ـ ٨٤، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

(٢) د. يوسف محيى الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة ص ٦١، ٦٢.

الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق، وكان نداؤهم الأول إلى أقوامهم: ﴿ ... أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ... ﴾[1]. ﴿ ... اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[2]. فالكون ومافيه من نظام، وأحكام، وتناسق، وإبداع، ليس هو وحده الشاهد، وانما هناك شاهد آخر، هو الشعور المغروس فى النفس الإنسانية، وهو شعور فطرى، فطر الله الناس عليه، وهو المعبر عنه بالغريزة الدينية.

فالعقيدة الإسلامية عقيدة الفطرة، تتناسق تعاليمها مع الفطرة السليمة البعيدة عن الأهواء، ويجد العقل المستنير فى تعاليمها: الحق والخير، لأنها منزلة من عند الخالق العالم بما خلق. «وعلى ذلك فالإسلام لايعتمد فى ثبات تلك العقيدة، وغرس شجرتها فى القلب على مجرد التلقين، ولايريد من الناس أن يعتنقوها عن تقليد، بل لابد من قبولها عن فهم ونظر وبحث وإدراك»[3].

وللفطرة الصحيحة معالمها الواضحة، وسماتها البارزة، وأنوارها الساطعة والحق واحد لايتعدد، لأنه خط مستقيم، والخط المستقيم هو: أقصر طريق بين نقطتين، ولذلك لايكون إلا واحداً، ولعل أول معلم فى دين الفطرة هو: أن يعرف الإنسان ربه معرفة واضحة صادقة. والتوحيد الذى هو حق الله على عباده غرسه الله فى طبائع الناس، يخرج به كل مولود، ولايميل عنه إلا من حاد عن الجادة، وانصرف عن سلامة الخلقة.

لقد جاء الدين الإسلامى مقراً بالفطرة، غير متنكر لها، وجاء هذا الدين موافقاً لهذه الفطرة فى عقائده وأحكامه، ولذلك سمى دين الفطرة. وجاء الدين منظماً للفطرة، ففتح أمامها الأبواب والطرق السليمة، التى تلبى حاجتها وتشبع جوعها، لئلا تنحرف إلى غيرها. وجاء الدين ـ أيضاً ـ مزكياً للفطرة موجهاً لها نحو الأفضل والأطهر[4].

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) الأعراف: ٥٨، ٥٩. وذكر القرآن الكريم هذا القول على لسان نوح وصالح وشعيب ـ عليهم السلام ـ.

(٣) د. مصطفى عبد الواحد خصائص العقيدة الإسلامية ص ١١٦، (ندوة محاضرات العالم الإسلام بمكة المكرمة سنة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

(٤) سلمان بن فهد العودة، نداء الفطرة لدى الرجل والمرأة ص: ٩ ـ ١٣ بتصرف واختصار.

وبعد هذا البيان فى كون عقيدة الإسلام هى: عقيدة الفطرة والحياة، فقد حدد الإسلام ذلك بآيتين، وأولى الآيتين: ذكرت الفطرة بحروفها، فى قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّم...**﴾[1]. فالآية - كما ترى - تشير إلى عقيدة الفطرة التى طبع عليها الإنسان.

وثانى الآيتين، قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...**﴾[2]. فإذا جمعنا بين آية الحياة وآية الفطرة، وعطفناهما معاً على قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿**...إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ...**﴾[3]. يكون المعنى المحصل من مجموع الآيات الثلاث: أن الإسلام هو دين الفطرة والحياة، ولهذا كانت الفطرة عاملاً مهماً من العوامل التى فتحت الطريق أمام الإسلام، ليملأ القلوب، وجعلت الناس يقبلون على الإسلام أفراداً وجماعات.

* * *

(١) الروم: ٣٠.
(٢) الأنفال: ٢٤.
(٣) آل عمران: ١٩.

العقيدة بالدين حاجة روحية، ضرورية لصلاح البشر فلا يختص بها فريق من الناس، دون باقى البشر، لذلك كانت الحاجة ماسة إلى دين عالمى، يكون دعوة إلى جميع شعوب الأرض قاطبة، أبيضها وأسودها وأحمرها، عربيها وعجميها. هكذا لابد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصلح للبشر، العامة منهم والخاصة، تشعر كلا منهم أن له عقيدة يطمئن إليها وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا والآخرة، بالله وبالإنسان، فالناس أمة واحدة فى هذا الدين الجديد، هذا الدين هو دين البشر[1].

ويكون عالمياً: بعدم اختصاصه بجنس من الأجناس البشرية، وبعدم انحصار تطبيقه فى إقليم خاص، أو بيئة معينة. ويكون عالمياً بامتداد هدايته أزماناً طويلة تتجاوز العصر الذى بدأت فيه. بمعنى أن يكون الدين صالحاً لكل جنس، وكل جيل وكل زمان ومكان، وبمعنى آخر: يكون الدين عالمياً: إذا كان شريعة الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة، التى لا تدخل فى ماهية الإنسان كإنسان، وبدون ذلك لايتحقق معنى العالمية فى أى دين[2].

ونود أن نتعرف على الخصائص التى يجب أن يشتمل عليها الدين ليكون عالمياً وصالحاً لكل زمان ومكان. ونجمل هذه الخصائص فى ثلاث:

١ - وفاؤه بحاجة الإنسانية جميعاً، فيما يصون وحدتها، ويرعى إنسانيتها ويحمى أفرادها فى العاجل والآجل.

٢ - تشريعاته التى تضمن قيام الإنسانية كلها فى محيط واحد، لاتنزع معه إلى عصبية دم، أو اختلاف لون، أو فرقة جنس.

٣ - اتساقه مع حقائق الكون، وخصائص الوجود، بحيث لايتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم، أو يختلف مع منطق الفكر[3].

---

(١) محمد عزت الطهطاوى، النصرانية والإسلام، ص: ٣٠٨، ط: مكتبة النور، بالقاهرة، سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

(٢) عطية صقر، الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه، ص: ١٠.

(٣) محمد الراوى، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص: ٤٦، ط: دار العربية، ببيروت.

وكذلك لايكون عالمياً إلا إذا صحب الإنسان فى جميع أزمانه المتطورة وعصوره المتلاحقة، أى: يكون خالداً، لايعتريه نسخ أو زوال ولا عقم ولا جمود، موفياً بجميع مطالب الإنسان المتنوعة المتجددة فى كل الميادين التى يزاول فيها الإنسان بعقله الواسع نشاطه الكامل. ولا يوجد دين من الأديان السماوية فيه هذه المواصفات التى تجعله عالمياً، إلا دين الإسلام(١).

والعالمية من القيم التى تنبثق من عقيدة الإسلام، لأن مجتمع الإسلام هو مجتمع الإنسانية كلها، مجتمع ليس لجغرافيته حدود، وليس للعنصرية فيه وجود(٢).

فالرسالة الإسلامية قد توجهت للناس كافة، من جميع الأجناس والألوان، وفى كل العصور... وبالعالمية التى اتصف بها الإسلام، يتميز عما سبقه من رسالات سماوية كانت تتوجه إلى أقوام بعينهم، فى عصر معين(٣).

ولذلك نرى القرآن الكريم يتحدث عن أقوام بلغتهم رسالات سماوية، وينسبهم القرآن إلى أنبيائهم، كما فى الحديث عن قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وغيرهم من الأنبياء والرسل.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾(٤).

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٥).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾(٦).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ...﴾(٧).

---

(١) عطية صقر، الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه، ص: ١١.

(٢) د. إبراهيم عوضين، الإسلام والإنسان، ص: ٢٨١، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، بالقاهرة، سنة: ١٣٨٥هـ-١٩٦٤م.

(٣) جمال الدين محمود، أصول المجتمع الإسلامى، ص: ١٠، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، بالقاهرة، سنة: ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٤) الأعراف: ٥٩.

(٥) الأعراف: ٦٥.

(٦) الأعراف: ٧٣.

(٧) الأعراف: ٨٠.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . . . ﴾[1].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ . . . ﴾[2].

وقال تعالى فى شأن عيسى ـ عليه السلام ـ:

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . ﴾[3].

فهذه النسبة هى التى تبين وتوضح أن الرسالة مخصوصة بهؤلاء القوم، فقد أرسل الأنبياء بإصلاح أقوام، أو مجتمعات بعينها، وحققت هذه الرسالات أهدافها، بتصحيح أصل العقيدة، ومنهاج الحياة، فيما يحتاج إلى إصلاح[4].

وترى فى آيات القرآن الكريم أمثلة كثيرة للإصلاح فى العقيدة، حينما يتوجه الأنبياء إلى من أرسلوا إليهم بالبعد عن الشرك، وبعبادة الله وحده.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[5].

كما نرى أن بعض الأنبياء توجه بجانب الدعوة إلى عبادة الله وحده بتوجيهات تتعلق بالسلوك أو المعاملات بين الناس، مثل عدم ارتكاب الفاحشة: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾[6].

أما الإسلام: فهو يهدف إلى رسم إطار المنهاج الإلهى لحياة البشر فى كل زمان ومكان، ولذلك غطى منهجه العقيدة، والأخلاق، والتشريع، بطريقة تجعله لا يقف أمام الاختلافات العارضة والمؤقتة بين بنى الإنسان، والتى لا صلة لها بفطرة الإنسان، كما خلقه الله جسداً وروحاً، وباستعداده الفطرى للاتجاه إلى الملأ الأعلى.

---

(١) الأعراف: ٨٥.
(٢) الأعراف: ١٠٣.
(٣) آل عمران: ٤٩.
(٤) جمال الدين محمود، أصول المجتمع الإسلامى، ص: ١٠.
(٥) الأنبياء: ٢٥.
(٦) الأعراف: ٨٠.

فلا يخفى أن الإنسان بحسب فطرته ينزع إلى البحث فيما وراء ذاته، أو الموجودات التى تدركها حواسه، وهى فطرة الإنسان التى يتساوى فيها الإنسان العالم فى المدينة، مع الإنسان البدائى فى قلب الغابة. . . واستجابة لهذا النزوع الذى لايختص به إنسان دون آخر، ولا جنس دون غيره، فإن الإسلام يقدم له العقيدة التى تستجيب لكافة تطلعاته، حين يرتقى الإنسان، ويستشرف آفاقاً عالية فى علاقاته مع غيره[1].

وإن الإنسان وهو يتابع عالمية الإسلام يلحظ بوضوح: أن العالمية فى الإسلام، قد قامت على عناصر متكاملة:

أولاً: وحدانية الإله، وإنكار تعدد الآلهة، ومن هنا كان أساس الإيمان فى شريعة محمد ﷺ أن يكون بالله وحده لاشريك له، وتنزيهه عن كل صفة يتصف بها خلقه. . . واقتضى هذا العنصر:

١ ـ وحدانية الربوبية. فلا خالق، ولامدبر، ولامتصرف سواه.

٢ ـ ووحدانية الألوهية. فلا معبود، ولا مسؤول، ولا مستعان سواه. وبالوحدانية بشقيها دعا الإسلام[2].

فالإيمان بالله معناه: إفراده ـ سبحانه وتعالى ـ بالألوهية، والربوبية، فلا شريك له فى الخلق، ولاشريك له فى تصريف الأمور، ولايتدخل فى تصريفه للكون والحياة أحد، ولايرزق الناس معه أحد، ولاينفع أو يضر غيره أحد، ولايتم شىء فى هذا الوجود صغيراً أو كبيراً إلا بإذنه ورضاه[3].

إذن هذا الإيمان الذى جاء به الإسلام: هو الإيمان الشامل الذى يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله، القائمة على دعوته فى الأرض إلى يوم القيامة الضاربة الجذور فى أعماق الزمان، السائر فى موكب الدعوة، وموكب الرسول ﷺ، وموكب الإيمان الممتد فى شعاب التاريخ البشرى، الإيمان الذى يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها إلى نهايتها[4].

---

(١) جمال الدين محمود، أصول المجتمع الإسلامى، ص ١١.

(٢) محمد الطهطاوى، النصرانية والإسلام، ص: ٣١١-٣١٢ بتصرف.

(٣، ٤) سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ: ١، ص: ٣٤، ٣٤١ بتصرف.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

ثانياً: الإيمان بكتب الله المنزلة على الأنبياء، سواء منها ما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل على إخوانه الأنبياء السابقين، لأن هذا الإيمان عنصر من عناصر الإسلام، لايتحقق إلا به[2].

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[3]. فالإيمان بالله يقتضى الاعتقاد بصحة كل ماجاء من عند الله ـ عز وجل ـ[4].

ثالثاً: الإيمان بجميع الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده، من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى محمد ﷺ لأن الله اصطفاهم من عباده وحملهم رسالته عن طريق ملائكته.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُون﴾[5].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا...﴾[6].

فالإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقتضى صدق كل الرسول الذين يبعثهم الله، ويقتضى الإيمان بوحدة الأصل، الذى تقوم عليه رسالتهم وتتضمنه الكتب التى نزلت عليهم، ومن ثم لاتقوم التفرقة بين الرسل فى ضمير المسلم، فكلهم

---

(١) البقرة: ٢١، ٢٢.
(٢) محمد الطهطاوى، النصرانية والإسلام، ص: ٣١٨.
(٣) البقرة: ٢٨٥.
(٤) سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ: ١، ص: ٣٤٢.
(٥) لنحل: ٤٣.
(٦) الشورى: ١٣.

جاء من عند الله بالإسلام فى صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين أرسل إليهم، حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد ﷺ فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد، لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة[1].

فالإيمان بوحدانية الله، والإيمان بكتبه، ورسله، عناصر رئيسية فى العالمية التى جاء بها الإسلام... ولكن ألا ترى معى: أن عالمية الإسلام قضية لابد لها من أدلة تدعمها، وشواهد تثبتها، ولهذا سأحاول أن أعرض هذه الأدلة لتكون علائم الكمال، ومعالم الطريق فى عالمية الدين الإسلامى.

المجموعة الأولى:

أدلة تعتمد على ماورد فى كتاب الله، وسنة نبيه محمد ﷺ من قوله وفعله. إذن هذه الأدلة تقوم على الكتاب والسنة... وأدلة الكتاب: جاءت منها آيات مكية، تدل على أن وصف العالمية لازم الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى ﷺ ومنذ أشرقت على الناس، كما جاءت منها آيات مدنية تنبىء عن العالمية واستمراريتها.

ومن الآيات المكية: قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِين**﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِين**﴾[5].

---

(١) سيد قطب، فى ظلال القرآن: جـ: ١، ص: ٣٤٢، بتصرف.
(٢) القلم: ٥٢.
(٣) التكوير: ٢٧. ويوسف: ١٠٤. والأنعام، آية ٩٠.
(٤) الأعراف: ١٥٨.
(٥) يس: ٦٩-٧٠.

ومعنى من كان حياً: كل من ثبتت له الحياة[1]. وهذه الآية تبين وظيفة القرآن: بأنه نزل على الرسول ﷺ لينذر به من به حياة[2].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿...وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ...﴾[4].

وقوله: ﴿وَمَن بَلَغَ﴾: عطف على المخاطبين من أهل مكة، أى: لأنذركم به، وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، وقيل: من الثقلين، وقيل: من بلغه القرآن إلى يوم القيامة[5].

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن بَلَغَ﴾: قول آخر، وهو أن يكون بمعنى: احتلم، وبلغ حد التكليف[6].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[7].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ﴾[8].

---

(١) عطية صقر، الدين العالمى ومنهج الدعوة اليه، ص: ١٨.

(٢) سيد قطب فى ظلال القرآن، جـ: ٥، ٢٩٧٥.

(٣) الفرقان: ١.

(٤) الأنعام: ١٩.

(٥) الفخر الرازى، التفسير الكبير، جـ: ٦، ص: ١٨٨.

(٦) المصدر السابق. ويقول سليمان بن عمر الشهير بالجمل فى تفسيره فى «ومن بلغ» ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه فى محل نصب عطفاً على المنصوب فى «لأنذركم»، وتكون «من» موصولة، والعائد عليها من صلتها محذوف، أى: ولأنذر الذى بلغه القرآن.

والثانى: أن فى «بلغ» ضميراً مرفوعاً يعود على «من» ويكون المفعول وهو منصوب المحل -أيضاً- نسقاً على مفعول «لأنذركم»، والتقدير ولأنذر الذى بلغ الحلم، فالعائد هنا مستقر فى الفعل.

والثالث: أن «من» مرفوعة المحل، نسقاً على الضمير المرفوع فى «لأنذركم» وجاز ذلك لأن الفصل بالمفعول والجار والمجرور أغنى عن تأكيده. والتقدير: لأنذركم به، ولينذركم الذى بلغه.

والجمل فى الفتوحات الآلهية جـ: ١، ص: ١٤.

(٧) سبأ: ٢٨.

(٨) الشورى: ٧.

﴿وأم القرى﴾: هى مكة. وهى قلب الأرض، بمنزلة الرأس من الجسد لسائر الدنيا[1] ﴿ومن حولها﴾: أهل البدو والحضر[2]. ويشمل كل الناس غير المقيمين فيها فكل حيى على وجه الأرض مقيم حول مكة، فهى مركز الدائرة، وقطرها ممتد بين كل نقطتين على المحيط العالمى[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[4].

هذه معظم الآيات المكية التى جاء فيها التأكيد الواضح لعالمية الإسلام.

أما الآيات المدنية:

فقوله تعالى: ﴿...وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ...﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا...﴾[7].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[8].

وإذا انتقلنا بعد ما ذكرنا من آيات القرآن الكريم، إلى السنة النبوية وجدناها الصدى المتجاوب مع آيات الله.

يقول رسول الله ﷺ: «كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود»[9].

---

(١) عبدالقادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول فى مكة؟ ص: ١٣.
(٢) الفخر الرازى، التفسير الكبير جـ: ١٤، ص: ١٤٨.
(٣) عطية صقر، الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه ص: ١٩.
(٤) الأنبياء: ١٠٧.
(٥) آل عمران: ٢٠.
(٦) آل عمران: ٨٥.
(٧) آل عمران: ٦٤.
(٨) التوبة: ٣٣.
(٩) رواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى، كتاب المساجد جـ: ٥، ص: ٣.

ويقول رسول الله ﷺ: «إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة»[1].

وفى كتاب النبى ﷺ إلى جيفر وعياذ ابنى الجلندى ملكى عمان، قوله: «فانى رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين»[2].

وفى حديث البراء بن عازب ـ عند حفر الخندق ـ فى غزوة الأحزاب، وقد اعترضت المسلمين صخرة، وهم يحفرون، جاء قولهم: فاشتكينا ذلك للنبى ﷺ، فجاء وأخذ المعول فقال: «باسم الله، ثم ضربه فنشر ثلثها». وفى رواية: فخرج نور أضاء مابين لابتى المدينة، وقال «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأرى قصورها الحمر الساعة من مكانى هذا». قال: ثم ضرب الثانية، فقال: «باسم الله»، فقطع ثلثاً آخر، فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض». ثم ضرب ثالثة، وقال: «باسم الله» فقطع الحجر وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر باب صنعاء»[3].

وعن عدى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال له: «ولئن طالت بك حياة لتفتحنَّ كنوز كسرى». قلت: كنوز كسرى بن هرمز؟ قال: «كنوز كسرى بن هرمز». وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز[4].

وقال: رسول الله ﷺ «انكم ستفتحون مصر وهى: أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها، فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً... أو قال: ذمة وصهرا»[5].

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمساً، لم يعطهن أحد من الأنبياء من قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى

---

(1) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الصلاة، باب جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، جـ: ١، ص: ٥٣٣.

(2) القسطلانى، المواهب اللدنية، جـ: ١، ص: ٢٢٥، ط: البابى الحلبى، بمصر.

(3) رواه أحمد فى مسنده، جـ: ٤، ص: ٣٠٣ بنفس اللفظ. ورواه النسائى فى سننه، كتاب الجهاد، غزوة الترك والحبشة، جـ: ٦، ص: ٤٣، مع اختلاف فى الألفاظ.

(4) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب المناقب، باب علامات النبوة جـ: ٦، ص: ٦١.

(5) رواه مسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبى ﷺ، جـ: ٤. ص: ١٩٧٠، رقم الحديث: ٢٢٧. ورواه أحمد فى مسنده، جـ: ٥، ص: ١٧٤، جـ: ٥، ص: ٣٧٨.

الأرض مسجد وطهوراً، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة».

هذه الأحاديث وغيرها -مما جرى مجراها فى التبشير بالفتح، ونشر دين الله، تدل دلالة أكيدة، لا لبس فيها ولا غموض، على عالمية الدين الإسلامى، وأنه سينشر فى هذه الأصقاع والأمصار، التى أشارت إليها الأحاديث وغيرها.

المجموعة الثانية:

تقوم أدلتها على العوامل الأساسية، إذ أن المقومات الأساسية الخالدة للإسلام: أنه قائم على العقل والبرهان، وأن هناك - أصولاً أولية يتألف منها دستور علمى، يوجه إلى ينابيع الحكمة، وهى تنحصر فى هذه الكليات التى تفيد: دوام النظر، والتفكير فى الوجود إجمالاً، وفى الكائنات التى فيه تفصيلاً، ودرس أحوال الأمم، والاعتبار بها، وتنور نواميس الاجتماع من خلالها، والاستهداء بالأعلام المنصوبة فى الوجود لهداية السالكين إلى الحقائق الخالصة من الشوائب، والتجرد من جميع الصيغ الوضعية، ومن الهوى فى الحكم على الأشياء، والاجتهاد فى تحصيل العلم حيث كان، واعتبار الفضائل وسائل لبلوغ الكمال، الذى قدره الخالق للإنسان فى هذا العالم، واعتبار وحدة الإنسانية، وأن الناس ماقسموا إلى أمم وشعوب وقبائل، ليتخالفوا ويتناكروا، وإنما ليتعارفوا ويتحابوا[1].

ويضاف إلى ماسبق من عوامل أساسية كدليل على عالمية الإسلام: أن كلمة «الإسلام» لاتدل على اسم شخص بعينه، أو أمة بعينها، وإنما تدل على صفة مخصوصة يضمنها معنى الإسلام.

ويظهر من هذا الاسم: أنه ماعنى بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من الرجال، وليس خاصاً بأمة معينة، دون سائر الأمم، وإنما غايته أن يحلى الأرض جميعًا بصفة الإسلام، فكل من اتصف بهذه الصفة من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم، ويكون مسلماً كل من سيتحلى بها فى المستقبل»[2].

---

(١) عطية صقر، الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه، ص: ٢٤-٢٥.

(٢) أبو الأعلى المودودى، مبادىء الإسلام، ص: ٣-٤، ط: المكتب الإسلامى ببيروت. محمد الراوى، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص: ٧٥.

فالكلمة إذن بمدلولها وغايتها عامة شاملة، تتسع لماضى الناس وحاضرهم ومستقبلهم، كما اتسعت نبوات الأنبياء جميعاً، ولم تتخذ صفة الانتساب لأحدهم دون الآخر.

والإسلام بلغة القرآن: ليس اسماً لدين خاص، إنما هو اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء[1].

المجموعة الثالثة:

أدلة واقعية، وهى كثيرة، وكلها تشهد لعالمية الإسلام وأنه دين الإنسانية كلها.. وسنحاول أن نشير إلى الحقائق الواقعية التالية:

أولاً: كان من السابقين إلى الإسلام أبو بكر العربى، وبلال الحبشى. وسلمان الفارسى، وصهيب الرومى.

وأبو بكر - رضى الله عنه - كان من رؤساء قريش فى الجاهلية محبباً فيهم، مألفاً لهم. وكان إليه الأشناق[2] فى الجاهلية. كان إذا حمل شيئاً صدقته قريش وأمضوا حمالته، وحمالة من قام معه، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه.

فلما جاء الإسلام سبق إليه، وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له، وميلهم إليه[3].

وأما بلال بن رباح: فقد اشتراه أبو بكر - رضى الله عنه - وأعتقه لله - عز وجل -، وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا، يعنى بلالا.

وقال مجاهد: أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخباب، وصهيب، وعمار، وبلال، وسمية أم عمار[4].

وأما سلمان الفارسي: فأصله من فارس. وكان ببلاد فارس مجوسياً، سادن النار[5]. فجاء إلى العرب فى قصة طويلة وأسلم.

---

(١) محمد الراوى، الدعوة الإسلامية دعوة علمية، ص: ٧٥.
(٢) الأشناق: هى الديات. ابن الأثير، أسد الغابة ج: ٣: ص: ٣١٠.
(٣) ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٣، ص: ٣١٠.
(٤) ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٥، ص: ٤٨١.
(٥) ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٢، ص: ٤١٧.

وأما صهيب الرومى: فكان أبوه وعمه عاملين لكسرى على الأبلة[1] وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل.

ويقال: إن صهيباً لما كبر وعقل هرب وقدم مكة، فحالف ابن جدعان وأقام معه، ولما بعث رسول الله ﷺ أسلم، وكان من السابقين إلى الإسلام.

قال الواقدى: أسلم صهيب وعمار فى يوم واحد، وكان إسلامهما بعد بضعة وثلاثين رجلاً[2].

فماذا يعنى دخول الرومى، والأفريقى، والفارسى، والعربى فى الإسلام؟ يعنى وبكل تأكيد: أن الإسلام جاء للإنسانية كلها.

ثانياً: ومن الحقائق الواقعية فى التعامل الإسلامى الدال على عالمية الإسلام: «أنه نادى كل الناس» فكانت العقيدة المذهبية التى وضعها للإسلام والمبدأ العام الذى يحسب أن تسير عليه البشرية فى تطورها، لتصل إلى غايته هو المعبر عنه فى قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[3].

والآية الكريمة ـ كما نرى ـ: خاطبت الناس ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ أى: البشر جميعاً، وتكرر استعمال هذه الكلمة الدالة على الجنس البشرى، نحواً من أربعين ومائة مرة، كثير منها ورد خطاباً للبشر عموماً كهذه الآية السابقة، وكقوله تعالى:

---

(١) هى: بلدة على شاطىء دجلة، على بعد أربعة فراسخ من البصرة فى زاوية الخليج، الذى يدخل إلى مدينة البصرة. وهى أقدم من البصرة كان سكانها قوم من الفرس، يعملون فى البحر، فلما قرب منهم العرب نقلوا ما خف من متاعهم وعيالهم إلى مدينة سيدان.

وهى فى قول ابن سيرين: القرية التى مر بها موسى والخضر -عليهما السلام- فاستطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما. وقد نسب إلى الأبلة جماعة من أهل العلم، منهم: سيبان بن فروخ الأبلى، وحفص بن عمر بن إسماعيل الأبلى وغيرهما.

ابن قتيبة، المعارف، ص١٥. وياقوت الحموى، معجم البلدان جـ: ١، ص: ٧٦-٧٨. ومحمد بْن عبدالمنعم الحميرى، الروض المعطار ص: ٨-٩.

(٢) ابن الأثير، أسد الغابة، جـ: ٣، ص: ٣٦-٣٩.

(٣) الحجرات: ١٣، وانظر: محمد المبارك، الحج والتوعية الإسلامية، ص: ٩٦، ضمن كتاب (استراتيجية العالم الإسلامى) ط: وزارة الحج والأوقاف، مكة المكرمة، سنة: ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم . . . ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا . . . ﴾[2].

﴿ . . . يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم . . . ﴾[3].

وجاءت كلمة الناس فى معرض الحض على تقديم الخير للناس فى كثير من الآيات:

﴿ . . . وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا . . . ﴾[4].

﴿ . . . وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ . . . ﴾[5].

﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ . . . ﴾[6].

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ . . . ﴾[7].

﴿ . . .وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ . . . ﴾[8].

﴿ . . .وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ . . . ﴾[9].

وكلمة الناس استعملت فى القرآن الكريم، بمعنى: الجنس البشرى عموماً، لا بمعنى المسلمين العرب، أو العرب، بدليل قوله تعالى فى الآيات الآتية مما لا يمكن حمله إلا على الناس عموماً.

﴿ . . .إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ . . . ﴾[10].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ . . . ﴾[11].

---

(١) البقرة: ٢١.

(٢) البقرة: ١٦٨.

(٣) يونس: ٢٣.

(٤) البقرة: ٨٣.

(٥) آل عمران: ١٣٤.

(٦) الشعراء: ١٨٣.

(٧) النساء: ١١٤.

(٨) النساء: ٥٨.

(٩) البقرة: ١٦٤. ويونس: ١٩٠.

(١٠) البقرة: ٢٤٣. وغافر: ٦١.

(١١) البقرة: ١٨٩.

﴿ ...وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[١].

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ... ﴾[٢].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... ﴾[٣].

إن استعمال هذه الألفاظ: (الناس) و(الإنسان) يرسخ معنى الإنسانية العام، ووحدة الجنس البشرى، ذلك أن القرآن الكريم، لايخاطب قومية معينة، ولا شعباً معيناً، بل يخاطب الإنسان بوجه عام[٤].

فالإسلام - كما يفهم من النصوص القرآنية - جاء ليقيم رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق، فهم جميعاً عباد الله لا ليجعل شعباً معيناً شعبه المختار.

والرسول الذى أمر بتبليغ الإسلام، خوطب في القرآن الكريم على هذا الأساس: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ولم يرسل ليكون هادياً إلى قومه وحدهم، كما أرسل موسى هدى لبنى إسرائيل، وكما أرسل عيسى - عليه السلام - إلى خراف بنى إسرائيل الضالة[٥]. إنما أرسل ليكون للناس أجمعين.

ثالثاً: ومن الحقائق الدالة على عالمية الإسلام: الكتب والرسائل التى بعث بها النبى ﷺ إلى ملوك الأمم، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

يقول ابن هشام: بعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه كتب معهم كتباً إلى الملوك، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

- فبعث دحية بن خليفة الكلبى، إلى قيصر ملك الروم.
- وبعث عبدالله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك الفرس.
- وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة.

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

(٢) آل عمران: ١٤.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

(٤) محمد المبارك، الحج والتوعية الإسلامية، ص: ٩٧، ضمن كتاب: (استراتيجية العالم الإسلامى).

(٥) المصدر السابق، ص: ٩٩.

- وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ملك الاسكندرية.

وأشار ابن هشام، فى سيرة النبى ﷺ إلى كتبه ورسائل أخرى إلى ملوك عمان، واليمامة، والبحرين، وتخوم الشام[1].

ومن أمثلة هذه الكتب: ما أرسله النبى ﷺ إلى النجاشى، اذ قال له: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد - رسول الله - إلى النجاشى ملك الحبشة... أسلم أنت، فانى أحمد إليك الله الذى لا اله الا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمين. وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، خلقه الله من روحه ونفسه، كما خلق آدم بيده. وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله - عز وجل - فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتى، والسلام على من اتبع الهدى»[2].

وفى هذه الرسالة دعوة ملك الحبشة إلى الإيمان بالإسلام، والدخول فيه، وكذلك الرسائل الأخرى، توجهت بالدعوة إلى دين الإسلام. ففى رسالة هرقل. - عظيم الروم - قول الرسول ﷺ: «فإنى أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين»[3]. وفى الرسالة المبعوثة إلى كسرى - ملك الفرس -: أسلم تسلم فان أبيت فعليك إثم المجوس»[4] وكذلك تضمنت الرسالة المرسلة إلى المقوقس عظيم مصر: «فإنى أدعوك للإسلام، فاسلم تسلم، وإن يسلم قومك يؤتك الله أجرك مرتين»[5].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ: ٤، ص: ٢١٧، باختصار شديد.

(٢) على الأحمدى، مكاتيب الرسول، ص: ١٢١. والزيلعى، نصب الراية لأحاديث الهداية جـ: ٤، ص: ٤٢١.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه، كتاب بدأ الوحى، جـ: ١، ص: ٣٢. وفى كتاب الجهاد، جـ: ٦، ص: ١٠٩.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الجهاد، باب دعوة اليهود والنصارى، وعلى مايقاتلون عليه، وماكتب النبى ﷺ إلى كسرى وقيصر، والدعوة قبل القتال، جـ: ٦، ص: ١٠٨.

(٥) رواه الزيلعى، فى نصب الراية، جـ: ٤، ص: ٤٢١.

فكتب الرسول ﷺ تؤكد الدعوة الإسلامية، التى جاءت للناس أجمعين.

والباحث فى عالمية الدين الإسلامى: يجد أن هذه العالمية نطقت بها آيات القرآن الكريم، وجاءت بها السنة النبوية، وأكدها واقع الدعوة الإسلامية من سرايا، وغزوات، وفتوح، واستقبال للوفود، وكتب للملوك فى العالم.

والأدلة على عالمية الإسلام أكثر من أن تذكر، وتتجلى فى الإسلام وأحكامه وتشريعه، وأخلاقه، وفضائله، وكل ومضة من ومضاته، وإشراقه من إشراقاته.

الاستمرارية

كان من السمات البارزة للدين الإسلامى: أنه جاء لكل الناس، وقد أكد ذلك الواقع الذى عاشته الدعوة الإسلامية فى بدايتها ومسيرتها فى الحياة، فأثبتت الدعوة إلى الإسلام: أن الإسلام للناس أجمعين، ومن ثم كانت العالمية سمة بارزة من سمات الإسلام.

وإذا كنا عرضنا للعالمية ـ فيما سبق ـ، فإن الأمر يقتضى أن نتعرف على الاستمرارية، لأنها عامل من العوامل الذاتية، التى دفعت الناس إلى التعرف على هذا الدين، والدخول فيه.

والاستمرارية تفيد خلود الإسلام، واستمرار بقائه، وامتداد رسالته، مادامت البشرية تواصل حياتها على هذا الكوكب، وقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون هذا الدين الذى يلازم البشرية فى مسيرتها، ويستوعب مظاهر التجدد والنمو فى حياتها، هو دين الإسلام، لأنه الدين المؤهل لإنارة الطريق أمام الإنسان وقيادته نحو الخير والصلاح.

والآية الكريمة التى عدت الدين عند الله الإسلام: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾[1]. تعنى مجموعة المبادىء الإسلامية، وتعاليم الإسلام.

فالإسلام مر بمراحل كبيرة، عبر أنبياء الله ورسله، إلى أن انتهى إلى المرحلة التكاملية فى رسالة محمد ﷺ التى جاءت إلى الإنسانية كلها[2]. فالإسلام يشتمل على امتداد زمانى فى المعتقد الدينى، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها.

ويشتمل على شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعاً. ويشتمل ـ أيضاً ـ على شمول يضم الأديان كلها، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها والانخراط فى سلك الذين أسلموا لله.

وهذا الطابع الشمولى هو الذى جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر[3].

(١) سورة آل عمران، آية ١٩.

(٢) د. أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص: ١٤٥.

(٣) المصدر السابق، ص: ١٤٤، ١٤٦.

ولقد كان الإسلام فى صورته التى بلغها محمد رسول الله ﷺ هو الدين الذى ارتضاه الله - سبحانه وتعالى - ديناً أبدياً. وكما أن كل شىء مرده فى النهاية إلى إرادة الله - سبحانه وتعالى - واختياره، فيجب أن نعلم أن اختيار الله لهذا الدين، واصطفاه لرسوله قد كان بالحق.

﴿هُوَ الَّذى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]. ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ...﴾[2]. يظهر ذلك فى طابع هذه الرسالة وخصائصها، التى تنطق فى جملتها وتفصيلها بأنها خاتمة الرسالات وأنها لذلك أبدية، لاتنسخها شريعة أخرى إلى قيام الساعة[3].

ولذلك كانت تعاليم رسالة الإسلام، لاتغيب عن الناس، ولن تغيب وسوف تبقى ثابتة. وكل الشواهد تدل على ذلك:

فهى أولاً: مجموعة من الحقائق فى العقيدة، والشريعة، والأخلاق، والحقائق لاتتغير مهما تغير المكان، أو تغير الزمان. وما هو ثابت فى نفسه، يستوى فى ضرورة العلم به أن يكون عند بدء الخلق وعند قيام الساعة.

وهى ثانياً: مسجلة فى القرآن الكريم، الذى نقله جبريل - عليه السلام - عن الله بأمانة تامة، ونقله كذلك محمد ﷺ عن جبريل ونقله الصحابة - رضوان الله عليهم - من رسولهم، ثم تتابعت الجماهير الغفيرة تنقله عبر القرون، حتى بلغت به إلينا، مثلما نزل قبل أربعة عشر قرناً وسنورثه نحن - بإذن الله تعالى - غيرنا، وهكذا إلى يوم القيامة.

وهى ثالثاً: واقعية، بمعنى أنها تعايش الإنسان، وتقدم له الحلول العملية لمعاشه وسعاده، وتحيط به فى النواحى التى يتجه إليها، وبذلك تحقق لدى الناس تذكراً دائماً[4].

واستمرارية الإسلام تشهد لها آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ ومن ذلك:

---

(١) الصف: ٩.

(٢) المائدة: ٤٨.

(٣) د. عبدالفتاح بركة، الرسول الكريم خاتم النبيين، ص: ٤٣.

(٤) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٢٠٨.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

يقول ابن كثير: «فهذه الآية نص في أنه لانبي بعده، وإذا كان لانبي بعده، فلا رسول بطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولاينعكس»[2].

ثم إنه ـ سبحانه وتعالى ـ أكد ذلك بقوله: (وخاتم النبيين) أي: هو آخر نبي بعثناه في العالم، ولن يأتي بعده نبي، فضلاً عن أن يأتي رسول[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[4].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بنيانا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا هذه اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[5].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنايم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»[6].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ «ان الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي، ولانبي». قال: فشق ذلك على الناس. قال: قال: «ولكن المبشرات».

---

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٦، ص: ٤٢٣.

(٣) أبو الأعلى المودودي، ختم النبوة في ضوء القرآن والسنة، ص: ٦، ترجمة خليل أحمد الحامدي، طبع ونشر: مكتبة الرشد، بالرياض، سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٤) الحجر: ٩.

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، جـ٤، ص: ١٧٩١.

(٦) رواه مسلم في صحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج: ١، ص: ٣٧١.

قالوا يارسول الله: وما المبشرات؟. قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهى جزء من أجزاء النبوة»[1].

والإمام ابن كثير بعد أن أورد كثيراً من الأحاديث النبوية التى جاءت فى ختم النبوة ـ يقول: «والاحاديث فى هذا كثيرة، فمن رحمة الله بالعباد: إرسال محمد -صلوات الله وسلامه عليه- إليهم، ثم من تشريفه له، ختم الأنبياء والمرسلين، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر ـ تعالى ـ فى كتابه، ورسله فى السنة المتواترة عنه: أنه لانبى بعده»[2].

ولقد نجد معنا هذا الختم يتغلغل فى كل نواحى الرسالة الإسلامية، حتى أنه لايستقيم فهمها إلا فى ضوء هذا المعنى. وآيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ كثرة كاثرة، من التصريحات والتنبيهات والإشارات تؤكد أن الإسلام خاتم الأديان السماوية، وأن محمداً رسول الله ﷺ خاتم النبيين والمرسلين[3].

ومن هنا كانت تعاليم الإسلام لن تقصر عن البشر، مهما وصل مستواه، لأن تعاليم الإسلام اتجهت لسائر الدعوات السابقة وصدقتها، وكملت بما يناسب الرقى الإنسانى.

فقد راعت تعاليم الإسلام فى هيمنتها: الارتقاء العقلى للإنسانية، فدعت إلى وحدانية مطلقة لله فى الذات والصفات والأفعال، واجتثت الوثنية بأشكالها وألفاظها، وتأثيراتها السيئة على الأفراد وعلى الجماعات، بحيث لايخضع الإنسان إلا لخالقه، ولا يعبد الا لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وأيقظت هذه التعاليم العقل من نومه، فعابت على المقلدين، والاتباع الذين كان شعارهم: ﴿ ... **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُون** ﴾[4].

---

(١) رواه أحمد فى مسنده، ج٣، ص: ٢٦٧ ورواه الترمذى فى صحيحه باب ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات، جـ: ٩، ص: ١٢٦.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٦، ص: ٤٢٥.

(٣) د. عبدالفتاح بركة، الرسول الكريم. .، ص: ٦، ٧، بتصرف.

(٤) الزخرف: ٢٣. وفى الزخرف: ٢٢ يقول فيها رب العزة: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

وأمرت بالنظر والتدبر، ووجهت الإنسان إلى الآيات والبراهين ﴿ ... لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾[1] ﴿ ... لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

وأتى الإسلام فى كل مجال بتوجيه رائع، وإصلاح سليم، ولم يترك مشكلة إلا أزالها، ولا عقدة إلا حلها، ولا خطأ إلا أصلحه[3].

يقول محمد عبده: «لم يدع الإسلام أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى به، ولا أماً من أمهات الصالحات إلا أحياها، ولاقاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حيرة الفكر، واستقلال العقل، وما به صلاح السجايا، واستقامة الطبع، ومافيه إنهاض العزائم إلى العمل، وسوقها فى سبل السعى ومن يتل القرآن حق تلاوته، يجد فيه من ذلك كنزاً لاينفد، وذخيرة لا تفنى... هل بعد الرشد وصاية؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟... كلا قد تبين الرشد من الغى، ولم يبق إلا اتباع الهدى، والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة، لبلوغ الغاية من السعادتين، لهذا اختتمت النبوات بنبوة محمد ﷺ وانتهت الرسالات برسالته»[4].

وهناك أحاديث جاءت عن النبى ﷺ تعرض لاستمرارية الإسلام، حتى تقوم الساعة... روى المغيرة بن شعبة عن النبى ﷺ، قال: «لايزال طائفة من أمتى ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[5].

وروى معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنهما ـ وهو يخطب، قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم، والله ـ عز وجل ـ يعطى، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً، حتى تقوم الساعة أو حتى يأتى أمر الله»[6].

---

(١) البقرة: ١٦٤، ومادة (عقل) تكررت فى القرآن الكريم فى أكثر من أربعين موضعاً. محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: ٤٦٨-٤٦٩.

(٢) الحشر: ٢١، ومادة (فكر) تكررت فى القرآن الكريم فى أكثر من ثمان عشرة مرة. محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: ٥٢٥.

(٣) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص: ٢٠٩، بتصرف.

(٤) الإمام محمد عبده، رسالة التوحيد، ص: ٢٣٧-٢٣٨.

(٥) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الصيام، باب لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، ج: ١٣، ص: ٢٩٣. ورواه مسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لايضرهم من خذلهم.

(٦) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق وهم أهل العلم، جـ: ١٣، ص: ٢٩٣. ورواه مسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهى عن المسألة، جـ: ١٠، ص: ٢٤٢.

وروى مسلم مثل ذلك عن جابر بن سمرة، وعن جابر بن عبدالله، كما روى عن عقبة بن عامر، قوله: وأما أنا: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاتزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لايضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»[1].

وروى أبو أمامة الباهلى من خطبة رسول الله ﷺ وتحذيره من الدجال أنه قال: «وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم»[2].

فهذه الأحاديث النبوية: تعرب فى وضوح عن استمرارية الإسلام وصلاحيته إلى أن تقوم الساعة، ومادامت أمته ﷺ آخر الأمم، فإنه لا يوجد بعده نبى آخر، حتى لاتكون أمة بعد أمته.

وقد سبق لنا، ونحن نعرض (عالمية الإسلام): أن عرفنا أن من أقرب الدلائل على عالمية الإسلام، نداء القرآن الكريم الإنسان: (يا أيها الناس) فى كثير من الآيات. وهذه الدلائل تفيد فى الوقت نفسه: استمرارية الإسلام الذى جاء لإصلاح حال الإنسان فى الأرض.

كما أن من الأدلة الضرورية على استمرارية الإسلام: أن ختم النبوة يقتضى بقاء الشريعة، وعلى ذلك فالشريعة الإسلامية باقية بقاء الإنسان، لأنه لاينتظر نبى آخر، يمكن معه انتظار شريعة أخرى ﷺ فلم يكن بد مادامت النبوة قد ختمت أن تكون شريعتها الخاتمة، هى: المنهاج الذى يصلح لكل زمان ومكان، وألا يحتمل النسخ، ولا التبديل، ومهما تتجدد الحوادث، وتظهر المسائل والمشاكل فلابد أن يجد الناس فى هذه الشريعة هدايتهم.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع وجعلها فى متناول الجميع إلى يوم القيامة، وجعلها هداية كاملة مكتملة، لاتقبل تغييراً ولا تبديلاً، لا فى مجموعها، ولا فى باب من أبوابها.

* * *

(١) رواه مسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لايضرهم من خالفهم، ج: ٣، ص: ١٥٢٥.

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه، أبواب الفتن، ج: ٢، ص: ٣٩٩، رقم الحديث: ٤١٢٨.

الشمولية

* لقد اتسم الإسلام باعتباره دين الحياة، وشريعته شريعة الزمان كله، والأجيال كلها، اتسم بالإحاطة والاستيعاب والشمول. لم تند عنه من حياة الناس أو مشكلاتهم أو أقضيتهم، شاردة أو واردة، صغيرة أو كبيرة، سواء فى ذلك بداوتهم أو حضارتهم، وتقدمهم مع يسر الحياة أو تعقدها، إذ احتوت نصوصه من صور المرونة والحيوية، ما أتاح للناس بها حرية الحركة، وبسرعة التكيف، ويسر الأداء، ومنحهم من أجل ذلك القرآن والسنة، منها ينطلقون، وفى ظلالها يسيرون، وفى نورها يهتدون ويستنيرون.

* ومن هنا كان الشمول من الخصائص التى تميّز بها الإسلام، عن كل ما عرفه الناس، من الأديان، والفلسفات، والمذاهب بكل ماتتضمنه كلمة الشمول من معانٍ وأبعاد[1].

* فالإسلام نظام شامل لكافة شؤون الحياة، وسلوك الإنسان، وهذا الوصف للإسلام وصف حقيقى ثابت للإسلام، لايجوز تجريده منه، إلا بالافتراء عليه حقداً وكراهية، أو بسبب الجهل به وشمول الإسلام هذا لشؤون الحياة، وسلوك الإنسان لايقبل الاستثناء، ولا التخصيص[2]. فالتصور الإسلامى لتكوين الإنسان تصور واقعى، يتطابق مع طبيعة هذا المخلوق، لأن مصدر هذا التصور هو الخالق الذى خلق، ويعلم من خلق.

* وإذا قيل: أن الإنسان يتكون فى إجمال من البدن الذى يمثل الجانب المادى، والقلب الذى يمثل الجانب الروحى، والعقل الذى يمثل الجانب الفكرى فإن التصور الإسلامى لهذا التكوين يتميز عن غيره من المذاهب الفاسدة، والديانات المنحرفة فى جانبين:

الجانب الأول: عطاء الإسلام لهذه العناصر الثلاثة فى نموها وإشباعها.

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام ص٩٩.

(٢) د. عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة ص: ٤٩، ط: دار عمر بن الخطاب بالإسكندرية سنة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

الجانب الثانى: تحقيق التوازن فى نمو هذه العناصر نمواً منتظماً متكاملاً، لا يطغى فيه جانب على آخر[1].

* فالنظرة العامة للتصور الإسلامى تحقق هذا التوازن، الذى يصلح لعامة الناس ولخواصهم، فيجمعون بين القلوب التقية، والأبدان القوية، والعقول الذكية[2].

* ولكى نقيم الحجة على شمول الإسلام، فيما تناوله من شؤون الحياة، وشموله فى عطائه للإنسان، نتناول مظاهر الشمول فيما يأتى:

أولاً: شمول العقيدة الإسلامية:

* وذلك أن العقيدة الإسلامية، عقيدة شاملة، من أى جانب ينظر الإنسان إليها، لقد جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية، بأسمى عقيدة فى الإله الواحد الأحد، صحّحت فكرة الفلسفة النظرية، كما صحّحت فكرة العقائد الدينية. فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين ـ فى جانب النقض منها ـ أعظم المعجزات التى أثبتت فى حكم العقل المنصف، والبديهة الصادقة، أنه وحى من عند الله[3].

* ومن ثم ـ كما يقول العقاد ـ: كانت هذه العقيدة الإلهية فى الإسلام مصححة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات، أو مذاهب الفلسفة، ومباحث الربوبية.

* فهى عقيدة كاملة، صححت المعتقدات فى (الكارما والنرفانا) باعتبار أنها عقيدة فى خواء أو فناء مسلوب الذات، لاتجاوب بينه وبين أبناء الحياة.

* وهى عقيدة كاملة، صححت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين لأنه كان على خطأ فى فهم التجريد والتنزيه، ساقه هذا الخطأ إلى القول بكمال مطلق، كالعدم المطلق فى التجرد من العمل، والتجرد من الإرادة، والتجرد من الروح.

---

(١) د. محمود رأفت سعيد: التوازن فى التصور الإسلامى ص: ٨ ـ ٩ بتصرف واختصار، ط: دار الهداية بالمنصورة سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨.

(٢) المصدر السابق ص: ١٥.

(٣) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه جـ: ٥، ص: ٤٠. ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد.

* ودين يصحح العقائد الإلهية فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها[١].

* وما كان الشمول فى العقيدة الإسلامية ليذهب فيه مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الإنسان روحاً وجسداً وعقلاً وضميراً، بغير بخس ولا إفراط فى ملكة من هذه الملكات[٢].

* والعقيدة الإسلامية توصف بالشمول، لأنها تفسّر كل القضايا الكبرى فى هذا الوجود. القضايا التى شغلت الفكر الإنسانى، ولاتزال تشغله وتلح عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم، الذى يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات النحل المتضاربة، قديماً وحديثاً، فإذا كانت بعض العقائد تعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروى فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح ووضوح شامل[٣].

* ولهذا جاءت تشريعات الإسلام لجميع الناس، ولكافة مراحل تطور الإنسان من الميلاد إلى الوفاة، وبذلك تشمل كيان الفرد كله، والمجتمع بأسره، والناظر فى تشريعات الدعوة الإسلامية، يرى أنها كانت مع الإنسان، جنيناً فى بطن أمه، وبعد مولده، وفى شبابه، ورجولته، وتسايره هكذا فى أطواره المختلفة، حتى يأتيه أجله[٤].

* وتتمثل خاصية الشمول التى يتسم به الإسلام فى رد هذا الوجود كله بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاق فيه، وكل تحوّر، وكل تغير، وكل تطور. والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه، إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية، الأزلية، الأبدية المطلقة[٥].

---

(١) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه جـ: ٥، ص: ٦٠-٦١ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد.
(٢) المصدر السابق نفس الجزء ص: ٣٢.
(٣) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٦.
(٤) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية ص: ٢٠٠.
(٥) سيد قطب، خصائص التصور الإسلامى ص: ٩٢ ط: دار الشروق سنة ١٩٨٠م.

* وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول، لأنها عقيدة لاتقبل التجزئة، ولابد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار[1].

* وشمول العقيدة الإسلامية، هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة أخرى، من تحويل الأمم العريقة التى تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية، والبرهمية فى مصر وسوريا، وفارس، والهند، والصين.

* إن شمول العقيدة الإسلامية، هو العامل القوى الذى يجمع إليها النفوس، ويحفظ لها قوة الإيمان[2].

ثانياً: شمول العبادة فى الإسلام:

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامى فى عباداته كما تمثلت فى عقيدته، فالعبادة فى الإسلام تستوعب الكيان البشرى كله، فالمسلم لايعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لاغير، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه وحدها، بل يعبد الله بهذه كلها، بلسانه ذاكراً، داعياً، تالياً، وببدنه مصلياً صائماً مجاهداً، وبقلبه خائفاً، راجياً، محبّاً، متوكلاً، وبعقله متفكراً، متأملاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها فى طاعته ـ سبحانه وتعالى ـ[3] قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾[4]. وان هذا النص القرآنى الكريم ـ كما يقول الشهيد سيد قطب ـ: ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة. ومن جوانب هذه الحقيقة: أن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، ونحن نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن الكريم، من قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[5]. فالخلافة فى الأرض عمل هذا الكائن الإنسانى، وهى تقتضى ألواناً من النشاط الحيوى، من أجل عمارة الأرض،

---

(١) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام ص ١٠٨.
(٢) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص: ٢٦.
(٣) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام ص: ١٠٨-١٠٩.
(٤) الذاريات: ٥٦-٥٨.
(٥) البقرة: ٣٠.

والتعرف على قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها، وتحقيق الإرادة الإلهية فى استخدامها وتنميتها، وترقية الحياة فيها. كما تقتضى الخلافة: القيام على شريعة الله فى الأرض، لتحقيق المنهج الإلهى الذى يتناسق مع السنن الكونية، ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة -التى هى غاية الوجود الإنسانى، أو التى هى وظيفة الإنسان الأولى- أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة فى مدلول العبادة قطعاً[1].

وإذا كانت العبادة غاية الوجود الإنسانى كما هى: غاية كل وجود، فان مفهومها لايقتصر على المعنى الخاص الذى يرد إلى الذهن، والذى يضيق نطاقها حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة، التى يؤديها المؤمن.

والعبادة بمعناها العام: تعنى السير فى الحياة ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى- وفق شريعته الغراء[2].

والعبودية -كما بينها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- تشمل كل ما يحب الله ويرضى، من الأقوال والأفعال[3].

ولقب العبادة: يطلق على كل عمل تتحقق فيه الشروط الآتية:

١ - أن يكون العمل نافعاً ومفيداً، وصالحاً فى الحياة.

٢ - أن يراد بهذا العمل وجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لارتباط الأعمال بالنيات «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[4].

٣ - أن يؤدى العمل بلا مخالفات شرعية «فكل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»[5].

فإذا تحققت هذه الشروط فى أى عمل، نستطيع وبكل اطمئنان: أن نلقبه بالعبادة، وأنه مما يحب الله ويرضى، وأنه فى سبيل الله[6].

---

(١) سيد قطب، فى ظلال القرآن جـ٦، ص: ٣٣٨٦-٣٣٨٧ بتصرف واختصار.

(٢) د. عبدالكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية ص: ١٤٨.

(٣) ابن تيمية، رسالة العبودية، ص: ٤، ابن تيمية، الفتاوى جـ ١٠، ص: ١٤٩.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الوحى، باب كيف كان الوحى إلى رسول الله ﷺ، جـ: ١، ص: ٩، وفى كتاب الإيمان باب ماجاء من الأعمال بالنية جـ: ١، ص: ١٣٥.

(٥) رواه البخارى فى صحيح مع فتح البارى كتاب البيوع باب النجش.

(٦) د. محمد رأفت سعيد، التوازن فى التصور الإسلامى، ص: ٢٨,٢٧.

والغرض من العبادات ـ كما يذكر العقاد ـ: تنبيه المتدين إلى حقيقتين، لا ينساهما الإنسان فى حياته العامة أو الخاصة:

الحقيقة الأولى : التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام ـ هى: وجوده الروحى، الذى ينبغى أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية، وغير شهواته الحيوانية.

الحقيقة الثانية : التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضميره -هى: الوجود الخالد الباقى، إلى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية.

وعبادة المسلم فى جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقتين[1].

لقد عد الإسلام قضية التوحيد قضيته الأولى، وقضيته الكبرى. توحيد الألوهية، وإفرادها بخصائصها، والاعتراف بها لله وحده، وشمول العبودية لكل شىء، ولكل حى، وتجريدها من خصائص الألوهية جميعاً[2].

قال كعب بن عجرة -رضى الله عنه-: مر على النبى ﷺ رجل ذكر أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم فقالوا: يارسول الله لو كان هذا فى سبيل الله؟ فقال: «إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو فى سبيل الشيطان»[3].

وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أن أناساً قالوا: يارسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضل أموالهم، قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به، بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، [وفى بضع أحدكم صدقة] قالوا: يارسول الله: أيأتى أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له أجر»[4].

---

(١) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص: ١١١-١١٢ باختصار.

(٢) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامى، ص: ١١٦، ط: دار الشروق.

(٣) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب، جـ٢، ص: ٥٢٤. بهذا اللفظ عن طريق كعب بن عجرة، ورواه البيهقى فى السنن الكبرى جـ ٧، ٤٧٩.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة جـ: ٢، ص: ٣٥٢.

ثالثاً: شمول التشريع الإسلامي:

والتشريع الإسلامى تشريع كامل بكل معنى الكلمة، فما من حدث ولا عمل يصدر عن الإنسان، ولاعلاقة تقوم بينه وبين غيره إلا وللشريعة حكم فيها[1].

إن الإسلام لايشرع للفرد دون الأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات. إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد فى تعبده وصلته بربه، وهذا مايفصله قسم العبادات فى الفقه الإسلامى.

ويشمل التشريع الفرد فى سلوكه الخاص والعام، وهذا يشمل مايسمى الحلال والحرام، أو الحظر والإباحة[2].

وارتبط التشريع الإسلامى بالإيمان بالله، والاعتقاد بوحدانيته، ومنهجه الذى ينظم شؤون الحياة فى جميع جوانبها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، إذ أن رسالة الإسلام عامة شاملة، تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق، كما تنظم حياة الإنسان فى الدنيا تنظيماً يربطها بالعقيدة، ويخضعها لأحكام التشريع الإسلامى[3].

والإسلام حين يبنى تشريعه ومنهجه للحياة على هذا الأساس، إنما يهدف إلى غاية يعمل على تحقيقها فى كل جوانب الحياة، هذه الغاية هى: صلاح المجتمع الإسلامى، وتحقيق الخير والفلاح له فى كل شؤون حياته، ودفع الضرر والفساد الذى يصيب الفرد أو المجتمع، إذا أعرض عن هدى الله وخالف أمره[4].

كما أن الشريعة الإسلامية لم تأت لوقت دون وقت، أو لعصر دون عصر، أو لزمن دون زمن، وإنما هى شريعة كل وقت، وكل عصر، وكل زمن، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن يراجع أحكام الشريعة، يجد أنها كاملة لانقص فيها، ولاقصور، شاملة لأمور الأفراد والجماعات والدول، فقد صيغت نصوص الشريعة، بحيث لايؤثر

---

(١) د. عبدالكريم زيدان، أصول الدعوة ص: ٥١.
(٢) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام، ص: ١١٤-١١٥.
(٣) د. عبدالعظيم فودة، الحكم بما أنزل الله ص: ٢١، ط: دار الصحوة بالقاهرة سنة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
(٤) المصدر السابق ص: ٢١.

على نصوصها مرور الزمن، ولا يبلى جدتها، ولايقتضى تغيير قواعدها العامة، ونظرياتها الأساسية[1].

ولهذا وجدنا التشريع الإسلامى يشمل التشريع للمجتمع فى علاقاته المدنية والتجارية ومايتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض من البيوع، والإجارات، والقروض، والمداينات، والرهن، والحوالة، والكفالة، والضمان، وغيرها[2].

والباحث فى التشريع الإسلامى وما جاء به يكتشف فى وضوح: أن التشريع الإسلامى شامل لجميع شعب الحياة من أعمال الأفراد، وعباداتهم، وسيرهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وآدابهم فى الأكل، والشرب، والجلوس، والقيام، واللباس، والكلام، والشؤون الأسرية، والصلات الجماعية، والقضايا المالية، والاقتصادية، والإدارية، وحقوق الوطن، وواجباته، والعدالة، ومرافق الحكومة، وحالات السلم، والحرب، والعلاقات بالأمم الأجنبية، وما إليها[3]. مما عنيت به كتب السير، أو الجهاد فى الفقه الإسلامى... ومن هنا لاتوجد ناحية من نواحى الحياة، إلا دخل فيها التشريع الإسلامى، آمراً، أو ناهياً، أو مخبراً[4].

وحسب الباحث والدارس: أن أطول آية نزلت فى كتاب الله ـ تعالى ـ نزلت فى تنظيم شأن من الشؤون المدنية، وهو المداينة، وكتابة الدين، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا

(١) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية. ص: ١٦٨، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٤٠١هـ.

(٢) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام ص: ١١٥.

(٣) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية ص: ١٦٩.

(٤) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام ص: ١١٥.

مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

والآية تتضمن: إرشاد الله لعباده المؤمنين، إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها[2]. والآية تتضمن كثيراً من الأحكام الدالة على شمول التشريع الإسلامى، فما هناك شعبة من شعب الحياة، ولا أمر من أمورها، إلا وقد تناولتها الشريعة الإسلامية، وأوضحت لنا فيها الخير من الشر، والطاهر من الخبيث، والصحيح من الفاسد، وهى بذلك تعطينا صورة كاملة، ومبدأ راسخاً لنظام صالح للحياة، وتوضح لنا بكل تفصيل ما هى الحسنات، التى يجب أن نقيمها، ونرقيها، وننميها، ونأخذ بها، وماهى السيئات التى يجب أن نعمل على محوها، واستئصال شأفتها، والبعد عنها، وماهى الحدود التى يجب ألا تتجاوزها حريتنا[3].

ويمكن للباحث أن يتعرف على أمثلة للشمول فى التشريع الإسلامى كثيرة، مثل:

- أحكام الأسرة من نكاح وطلاق، وإرث ونفقة، وتسمى فى الإصلاح: بأحكام الأسرة أو الأحوال الشخصية.
- أحكام تتعلق بعلاقات الأفراد، ومعاملاتهم، كالبيع، والإجارة، والرهن، والكفالة.
- أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى، وأصول الحكم، والشهادة، واليمين، والبينات.
- أحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى إقليم الدولة الإسلامية، والحقوق التى يتمتعون بها، والتكاليف التى يلتزمون بها.

(١) البقرة: ٢٨٢.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ١، ص: ٤٩٥.
(٣) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية ص: ١٦٩.

- أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى فى السلم والحرب.
- أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده، وشكل الحكومة، وعلاقات الأفراد بها، وحقوقهم إزاءها.
- أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية، ومصارفها، وتنظيم العلاقات المالية بين الأفراد والدولة، وبين الأغنياء والفقراء.
- أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة، من جهة الأفعال المنهى عنها، والجرائم، وإنزال العقوبات بالمجرمين، وكيفية تنفيذها[1].

ويبدو شمول التشريع الإسلامى فى أمر آخر، أو بعد آخر، وهو: النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة وما يؤثر فيها وما يتأثر بها، والنظر لها نظرة محيطة مستوعبة مبنية على معرفة النفس الإنسانية، وحقيقة دوافعها، وتطلعاتها، وإشراقها، ومعرفة الحياة البشرية، وتنوع احتياجاتها، وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية، والخلقية بحيث يكون التشريع فى خدمتها وحمايتها[2].

فالنظم الإسلامية ماضاقت عن حاجة، ولا وقفت عقبة فى سبيل مصلحة، أو عدالة. بل وسعت مصالح الناس، على اختلاف أجناسهم، وألسنتهم، وألوانهم، إذ كانت الدولة الإسلامية، فى عصورها الذهبية تمتد رقعتها من بلاد الصين شرقاً، إلى جبال أسبانيا غرباً، وكان البحر المتوسط بحيرة إسلامية، تخفق الراية الإسلامية على ممالكه، وكانت هذه الولايات المختلفة تضم أمماً متباينة الأجناس، والعادات والأديان، والمصالح من عرب وفرس وروم وغيرهم، وقد نظمت الدولة الإسلامية شؤون هذه الأمم، والشعوب بنظم وتشريعات إسلامية[3].

رابعاً: شمول الأخلاق فى الإسلام:

ومن أهم خصائص وسمات الاتجاه الخلقى فى الإسلام: الشمول، وذلك لشمول الإسلام جميع جوانب الإنسان فى الإيمان والعبادة، وفى المعاملة، هذا من

---

(١) د. عبدالكريم زيدان، أصول الدعوة، ص: ٣٠.

(٢) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام ص: ١١٥-١١٦.

(٣) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية ص: ١٧٠.

ناحية، ومن ناحية أخرى: اتسمت الأخلاق بالشمول، لقوة وعظمة العلاقة بين الإنسان وخالقه القائمة على العبودية لله وحده، لاشريك له، والدينونة لله وحده، بلا منازع، وشمول هذه العبودية لكل شيء[1].

فالاتجاه الخلقى للإسلام لم يدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية، إلا رسم له المنهج الأقوم والأمثل لقواعد السلوك.. ففى جانب الإيمان يقول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[2]. فقوله ﷺ صريح فى أن الاخلاق من الإيمان، ولذا عد الإسلام الإيمان برّاً، قال الله تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾[3]. فالبر صفة للسلوك الخلقى، ومن هنا كانت الأخلاق فى الإسلام لاتدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية... روحية أو جسمية دينية أو دنيوية... عقلية أو عاطفية... فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع[4].

وما من خصلة حث عليها القرآن الكريم، إلا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفسانى، أو مقدار ما يطلبه الإنسان من نفسه، ولايضطره أحد إلى طلبه[5] ومن هنا: كان الشمول بين جوانب النفس سمة للاتجاه الخلقى فى الإسلام، وإن من أخلاق الإسلام مايتعلق بالفرد فى كافة نواحيه.

- جسماً له ضروراته، وحاجاته، يمثل هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا**﴾[6].

وقول الرسول ﷺ «إن لبدنك عليك حقاً»[7].

---

(1) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامى ص: ٨١.

(2) رواه أحمد فى مسنده، جـ: ٢. ص: ٥٠، ٤٧٢، و٥٢٧. ورواه الترمذى فى صحيحه، كتاب الرضاع، باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها جـ ٥، ص: ١١٠، وزاد فيه «وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً» وقال: حديث حسن صحيح.

(3) البقرة: ١٧٧.

(4) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٠.

(5) العقاد، الفلسفة القرآنية جـ: ٧، ص: ٣٦. ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد.

(6) الأعراف: ٣١.

(7) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع، ولم يرد عليه قضاء، جـ: ٤، ص: ٢٠٩.

- وعقلاً له مواهبه وآفاقه. قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

- ونفساً لها دوافعها ومشاعرها وأشواقها. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2].

فالإسلام يتجلى شموله فى أنه: يتناول الإنسان والكون والحياة، ثم تناول الإنسان من جميع جوانبه، الخارجية المادية، والداخلية الروحية، لتستقيم حياته وسلوكه وأخلاقه، وقد ربط بينهما بتوازن دقيق، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[3]. وبذلك وازن الإسلام بين روح الإنسان وجسده، وبين فرديته وجماعيته، وبين دنياه وآخرته، فلا تنشطر سريرته وحياته أشطاراً مختلفة، كما هو الحال فى المذاهب البشرية الأخرى[4].

والإسلام يلائم بين المادة والروح، ويوفق بين الدنيا والآخرة، ويربط بين العبادة والحياة، بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة توظف الإنسان على أن يؤدى حق ربه، وحق نفسه، وحق غيره بكل دقة وأمانة وتساوٍ وتنسيق، وبهذا يتسنى للإنسان أن يمارس الحياة الاجتماعية العملية بكل طاقاته، وأشواقه، على أسس مبادىء الإسلام، القائمة على الشمول، والتى توافق الفطرة، وتتلاءم مع واقعية الحياة[5].

ومن أخلاق الإسلام مايتعلق بالأسرة، كالعلاقة بين الزوجين، وفضيلة هذه العلاقة: أنها علاقة سكن، تستريح فيها النفوس إلى النفوس، وتتصل بها المودة والرحمة والمشاركة القلبية والوجدانية[6]. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ

---

(١) يونس: ١٠١.

(٢) الشمس: ٩، ١٠.

(٣) القصص: ٧٧.

(٤) د. محمد نبيل غنايم ود. عمر سليمان الأشقر وآخرين. دراسات فى الثقافة الإسلامية ص: ٢٣. ط: الثانية، مكتبة الفلاح بالكويت سنة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٥) عبدالله ناصح علوان، هذه الدعوة، ماطبيعتها؟ ص: ٤٣. ط: الثانية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة سنة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٦) د. أحمد السايح، وصبرى عبدالرؤوف، الأسرة المسلمة، ص: ٦٩.

أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2].

ومن أخلاق الإسلام: مايتعلق بالمجتمع فى آدابه، وفى اقتصاده، ومعاملاته وفى سياسته وحكمه[3].

ومن أخلاق الإسلام: مايتعلق بالحيوان والطير، لأن من فضائل الإنسان المهذب: أن يكون رؤوفاً بالضعفاء، عطوفاً على البؤساء، رفيقاً بالمحتاج إلى الرفق من الخلق، رحيماً بمن مسّه الضر، وعضّه الدهر، جاهداً فى كشف ضره، وتفريج كربه، والإحسان إليه، والعطف عليه، متخلقاً بهذه الأخلاق الإسلامية الفاضلة، يجد فيها إمتاع نفسه وانشراح صدره، وارتياح قلبه، بريئاً من القسوة، وتحجّر القلب، وجمود العاطفة، لا بالنسبة لأخيه الإنسان فحسب، بل وكذلك بالنسبة للحيوان الأعجم، الذى لايملك لنفسه نفعاً، ولا عنها دفعاً، بل يكون به أرفق، وله أرحم. ويسلك صفات الرحماء من الناس ذوى النفوس الزاكية، والقلوب النقية الصافية التى ترحم العاجز الضعيف وتبرّه، ولو لم يكن من بنى الإنسان، وتبغض الجور والعسف وتمقته، ولو فى أمر الحيوان[4].

قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[5].

* * *

---

(١) الروم: ٢١.

(٢) النساء: رقم ١٩.

(٣) د. يوسف عبدالهادى الشال، الإسلام وبناء المجتمع الفاضل، ص: ١٩٦-٢٨١، ط: الأزهر سنة: ١٣٩٢هـ-١٩٧١م.

(٤) حسنين محمد مخلوف، الرفق بالحيوان، ص: ٥، ط: مطبعة المدنى بالقاهرة سنة ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

(٥) رواه أحمد فى مسنده جـ: ٢، ص: ١٦٠.

جرت حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، والدلائل الواضحات، والحجج والبراهين الدامغة التى تدل على صدقهم، وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير[1].

ولقد كان كل نبى يبعث، يؤتى من المعجزات مايؤمن على مثله البشر باعتبار المعجزات آخر المطاف فى الحجة والإقناع، وكانت من أجل ذلك مادية محسوسة، يشاهدها أهل الدعوة، فلا يستطيعون لها رداً، ولا إنكاراً، ومن هنا تكون حجة على من شاهدها، وحضرها، فإذا انتقل النبى إلى ربه ورحل عن الدنيا من شاهدوا هذه المعجزة وحضروها، لم يبق لدى أخلافهم من هذه المعجزات إلا أخبارها، أو قصص يتناقلونها، تظل تبهت بمرور الأيام وتختلط فيها الحقائق بالأوهام، والوقائع بالخيالات والأساطير[2].

وعلى فرض بقائها فى الرواية التاريخية، بغير تحريف، وبطريقة توحى بصدقها، فإن الحقائق التاريخية لاتعطى لمن يتأملها، ويبحث عنها، قوة التأثير الذى تقدمه فى واقعها لمن يراها، ويشاهد وقوعها[3].

ومن أسئلة المعجزات المادية المحسوسة: النار التى أوقدت، وألقى فيها الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكانت برداً وسلاماً، ولم تحرق منه إلا الوثاق[4]، قال تعالى: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾[5].

---

(١) محمد على الصابونى، التبيان فى علوم القرآن، ص٨٧-٨٨، ط: دار الإرشاد، ببيروت سنة ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

(٢) د. عبدالفتاح بركة، الرسول الكريم خاتم النبيين، ص ٥٣-٥٧، ط مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م. ود. يوسف القرضاوى، ثقافة الداعية، ص ١٤، ط٨ السادسة، مؤسسة الرسالة ببيروت، سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٣) د. عبدالفتاح بركة، الرسول الكريم خاتم النبيين، ص: ٥٤.

(٤) الصابونى، التبيان فى علوم القرآن ص ١٦٥.

(٥) الأنبياء: ٦٩.

وكذلك معجزات موسى ـ عليه السلام ـ والتى منها: انقلاب عصاه حية تسعى ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا . . . ﴾[1].

وأيضاً: معجزات عيسى ـ عليه السلام ـ كشفاء المرضى، وإبراء الأكمه وإحياء الموتى، والإخبار عن بعض المغيبات، والكلام فى المهد، إلى غير ما هنالك من معجزات[2]. قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

وعندما كان يراد لدين -قبل الإسلام- أن يبقى فترة أطول من حياة نبيه كان الله يتابع بعده الأنبياء، حتى يقوموا هم بالدعوة لهذا الدين، ولهذه الرسالة، بعد أن يثبتوا نبوتهم هم بمعجزات حسية مخصوصة بهم، وذلك كما حدث بالنسبة لبنى إسرائيل[4].

فقد روى أبو هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبى خلفه نبى وأنه لا نبى بعدى، وسيكون خلفاء فتكثر»[5].

فكل نبى سبق، كان يأتى برسالة لقوم بأعيانهم، وتنتهى بما يأتى بعدها من الرسالات، ولم يكن من الممكن أن تكون معجزة خاتم الأنبياء أمراً حسياً، يراه جماعة حين يقع، فإذا لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى انتهى ذلك الأمر المحسوس، ولا يراه أحد من بعده، لأن الأمور المحسوسة لاتتفق مع نوع هذه الرسالة، ولا مع خلودها[6].

---

(١) طه: ٦٩.

(٢) الصابونى، التبيان فى علوم القرآن ص ٢٢١.

(٣) المائدة: ١١٠.

(٤) د. عبدالفتاح بركة، الرسول الكريم ص ٥٤.

(٥) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب حديث الأنبياء، باب ماذكر عن بنى إسرائيل، جـ: ٦، ص: ٤٩٥، ورواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ج: ١٢، ص: ٢٣١.

(٦) الصابونى، التبيان فى علوم القرآن ص ٩٠.

وإذا كان لا نبى بعد محمد ﷺ، وإنما خلفاء ـ بنص الحديث السابق ـ، فإن الخلفاء لايملكون من المعجزات التى تمنح للأنبياء، فلم يكن بد أن تكون للنبوة الخاتمة معجزة تختلف عن سائر المعجزات المادية الحسية التى تنتهى بانتهاء وقوعها، أن تكون هذه المعجزة قادرة على البقاء والإعجاز فى كل عصر من العصور[١].

ولا يتأتى أن تكون المعجزة التى يتسع تأثيرها فى مجال الزمان والمكان معجزة مادية «تقرع الحس، وتستولى على النفوس، فلم تكن عصا تنقلب حية كعصا موسى، أو ناراً تصير برداً وسلاماً، كالنار التى ألقى فيها إبراهيم الخليل أو ناقة تخرج من صخر أصم، ولها رغاء، كناقة صالح، أو مريضاً يشفى أو أعمى يبرأ، كما فعل عيسى عليه السلام»[٢].

وإنما كانت معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين تتعلق بالإنسان نفسه، تربط بينه بقدراته المحدودة، وبين خالقه[٣]. ومن هنا كان القرآن معجزة للناس جميعاً، ولذلك جاء من نوع آخر غير نوع المعجزات السابقة. وقد جاء للدنيا بعد أن اكتملت المدارك البشرية، وارتقى الفكر الإنسانى، لأن رسالة محمد ﷺ وافت البشرية، بعد أن أدركت رشدها، وتكامل النمو العقلى فى مجموعها، فكانت معجزته تدرك بالعقل، ولاتحتاج إلى أى نوع من الحس، فهى معان خالدة يدرك سموها الإنسانى فى كل الأجيال، وهى معجزة يخاطب بها الناس جيمعاً[٤].

جاء القرآن الكريم معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين، يتعلق به الإنسان تعلق الفطرة بالمثل الأعلى، فيثبت عجز الإنسان من حيث هو إنسان، فى كل عصر وأوان وتسمو به ـ فى الوقت نفسه ـ إلى أفق الكرامة والعزة والإحسان، كذلك تميزت هذه المعجزة بكونها لاتتعلق بحواس الإنسان المحصورة فى الماديات فحسب وإنما تتعلق بأسمى مدارك الإنسان، فتخاطب عقله، وقلبه، وملكاته جميعاً. إنها تخاطب الإنسان بما هو إنسان[٥].

---

(١) د. عبدالفتاح بركة، الرسول الكريم ص ٥٥.
(٢) الصابونى، التبيان فى علوم القرآن ص: ٩٠.
(٣) د. عبدالفتاح بركة، الرسول الكريم، ص: ٥٦ بتصرف.
(٤) الصابونى، التبيان فى علوم القرآن : ٩١.
(٥) د. عبدالفتاح بركة، الرسول الكريم، ص: ٥٦ بتصرف واختصار.

واقتضت حكمة البارى: أن تكون معجزة محمد ﷺ من جنس الذى اشتهر العرب فيه من النبوغ، لأن لكل رسول المعجزة النابعة من الأشياء التى يمهر فيها البارزون من أمته[1].

معنى الإعجاز القرآنى:

جاء فى لسان العرب: العجز نقيض الحزم، ويقال أعجزنى فلان: اذا عجزت عن طلبه وإدراكه[2]. وهو -أيضاً- أن ينسب العجز إلى غيره[3]. قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ...﴾[4]. وصار العجز فى العرف اسما للقصور عن فعل الشىء، وهو ضد القدرة[5]. وتسمى المعجزة معجزة، لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، لأنها أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروف. وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر[6].

ومما يجب أن نشير إليه: أنه ليس المقصود من الإعجاز القرآنى، تعجيز البشر لذات التعجيز، أى: تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن، فإن ذلك معلوم لدى كل عاقل، وإنما الغرض إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذى جاء به رسول صادق. وهكذا سائر معجزات الأنبياء والمرسلين الكرام التى يعجز البشر عنها، ليس الغرض منها إلا إظهار صدقهم، واثبات أن ماجاؤوا به، إنما هو بوحى الحكيم العليم، وتنزيل من الإله القادر[7].

ولايخفى أن الدليل على صدق محمد ﷺ فى دعواه الرسالة، لايتمثل فى الآيات الكونية، وإنما يتمثل الدليل على صدق الرسالة، فى نفس الرسالة، أعنى القرآن الكريم[8]. فالقرآن معجز فى تاريخه، دون سائر الكتب، ومعجز فى أثره الإنسانى، ومعجز كذلك فى حقائقه[9].

---

(١) مؤيد الكيلانى، كيف انتشر الإسلام؟ ص: ٢٤٠. طبع ونشر منشورات الفاخرية بالرياض ودار الكتاب العربى ببيروت.

(٢) ابن منظور لسان العرب، . جـ ٤، ص: ٢٨١٦-٢٨١٧ مادة (عجز).

(٣) الصابونى، التبيان فى علوم القران ص: ٩١.

(٤) المائدة: ٣١.

(٥) الفيروزآبادى، بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، ص٢٢ ط:المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة.

(٦، ٧) الصابونى، التبيان فى علوم القرآن ص: ٩١.

(٨) د. سيد عبدالتواب عبدالهادى، محاضرات فى علم التوحيد ص: ١٧٨، ط: مطبعة الجيلانى بمصر سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٩) مصطفى صادق الرافعى، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: ١٥٦، دار الكتاب العربى، ببيروت سنة ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

ومعجزة القرآن الكريم تختلف عن سائر مايسميه اللغويون بالمعجزات، وإنما ثبت كونه معجزاً عن طريق المدارك والاعتبار، وماتحلت به عباراته بأجمل أسلوب وأوقع معنى، إذ أنه حين يستمع إليه الإنسان، تتحرك مشاعره شوقاً، ويهتز قلبه خشية، وتمتلىء نفسه خشوعاً، ويعتصر فؤاده رجاء[1].

قال الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾[2].

تأثير الإعجاز القرآني:

روى أنه لما أنزل على النبى ﷺ سورة (غافر)، قرأها النبى ﷺ فى المسجد، فسمعها الوليد، ثم انطلق إلى مجلس بنى مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد كلاماً آنفاً، ماهو من كلام الانس، ولا من كلام الجن، إن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وأنه يعلو، ولايعلى، ثم انصرف.

فقالت قريش: لقد صبأ الوليد، والله لئن صبأ الوليد، لتصبأن قريش كلها[3].

وفى صحيح مسلم: أن أنيساً الغفارى أخا أبى ذر، قال لأبى ذر: لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله.

قلت : فما يقول الناس؟

قال : يقولون أنه شاعر، ساحر، كاهن ـ وكان أنيس أحد الشعراء ـ.

---

(١) حامد الجوهرى، القرآن ومعجزة دائمة تتحدى، مقال بمجلة الهداية العدد ٩٥ الصادر فى محرم سنة ١٤٠٦هـ- أكتوبر سنة ١٩٨٣م، البحرين.

(٢) الزمر: ٢٣.

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك، ج: ٢، ص: ٥٠٦، عن ابن عباس، ولفظه أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن. ورواه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص٧٦، ط: عالم الكتب ببيروت. ورواه الواحدى فى أسباب النزول ص: ٤٧٥.

قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر[1]، فلم يلتئم على لسان أحد منهم أنه شعر، والله أنهم لكاذبون وإنه لصادق[2].

وروى أن أبا جهل، قال فى ملأ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلاً، عالماً بالشعر، والكهانة، والسحر، فكلمه، ثم أتانا ببيان عن أمره.

فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر، والكهانة، والسحر وعلمت من ذلك علماً، ومايخفى على، فأتاه... فقال: أنت يامحمد خير أم هاشم؟... أنت خير أم عبدالمطلب؟... أنت خير أم عبدالله؟. فبم تشتم آلهتنا وتضللنا، فان كنت تريد الرياسة، عقدنا لك اللواء، فكنت رئيسنا وإن تك بك الباءة زوجناك عشرة نسوة، تختار من أى بنات قريش شئت. وإن كان بك المال، جمعنا لك من أموالنا ماتستغنى به، ورسول الله ﷺ ساكت... فلما فرغ قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

---

(١) أقراء الشعر: يريد أنواعه وبحوره وأنحاءه. الفيروز آبادى، القاموس المحيط، ج: ١، ص: ٢٤.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبى ذر جـ: ١٦، ص: ٢٧.

ورواه البخارى عن طريق ابن عباس فى كتاب المناقب، باب قصة زمزم جـ: ٦، ص: ٥٤٩، رقم الحديث ٣٥٢٢.

سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[1]. فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج الى قريش، فلما احتبس عنهم، قالوا: مانرى عتبة الا قد صبأ فانطلقوا اليه، وقالوا: ياعتبة ماحبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب، وأقسم لايكلم محمدا أبدا، ثم قال: والله لقد كلمته فأجابنى بشيء، والله ما هو بشعر، ولا كهانة ولا سحر[2]. فأطيعونى فى هذه، وأنزلوها بى، حلوا محمداً وشأنه، واعتزلوه فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ، فإن أصابته العرب كفيتموه بأيدى غيركم، وان كان ملكاً أو نبياً كنتم أسعد الناس به، لأن ملكه ملككم، وشرفه شرفكم فقالوا: هيهات سحرك محمد[3].

فأنت ترى: أن عتبة يعترف بأن القرآن ليس بشعر، ولا كهانة، ولاسحر وأنه سوف يكون لما سمع نبأ.

«واذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة والبلاغة بأنه ما سمع مثل القرآن قط. كان فى هذا القول مقراً بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة، والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه»[4].

وللقرآن الكريم فى أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية خصائص عديدة، تجمل فيما يأتى:

* مسحة القرآن اللفظية، التى تتجلى فى نظامه الصوتى، وجماله اللغوى.

* ارضاؤه العامة والخاصة، بمعنى أن الجميع يحسون بجلاله، ويشعرون بروعته.

---

(١) فصلت الآيات ١-١٣.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ٧، ص: ١٥٠-١٥٢ بعدة طرق وروايات.

(٣) الزمخشرى، الكشاف، جـ٣، ص: ٣٨٧. ورواه أبو نعيم، فى دلائل النبوة ص ٧٥. ورواه الهيثمى، فى مجمع الزوائد جـ: ٦، ص: ١٩-٢٠. ورواه ابن حجر، فى المطالب العالية جـ:٤، ص: ١٩٩-٢٠٠ رقم الحديث ٤٢٨٥، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمى: ط: الأولى، إدارة الشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، سنة ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

(٤) الصابونى، التبيان فى علوم القرآن ص ١٠٦.

* ارضاؤه العقل والعاطفة معاً، فالقرآن يخاطب العقل، والقلب، ويجمع الحق والجمال معاً.

* جودة سبك القرآن، وإحكام سرده، فكأنه سبيكة واحدة تؤثر فى العقول وتأخذ بالأبصار.

* براعته فى تصريف القول، وتفننه فى ضروب الكلام[1].

جاء القرآن الكريم معجزاً فى بلاغة أسلوبه، وسمو معانيه، وجوامع كلمه، وجاء معجزاً بما قصه من سير الأنبياء والمرسلين السابقين، وجاء معجزاً بما تضمن من تشريعات حكيمة، ومثل عليا، تتفق مع طبائع البشر، فى كل زمان ومكان، تكميلاً لفطرتهم، وضماناً لسعادتهم.

وجاء معجزاً بما حوى من آيات العلم والمعرفة الصحيحة عن الجانب المادى من الكون، مما لم يكن للناس علم به قبل نزوله أو بعده[2].

وقد بين فبلغ الغاية فى البيان، وأوجز إذ لا يحمد إلا الإيجاز، وأطنب فما جاء إلا بالإعجاز، وتحدى فما طمع فى الإتيان بمثله، أو بأقصر صورة منه إنس أو جان، وناجى فسار مسرى الحياة إلى القلوب[3].

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم: إخباره عن أمور مغيبة ظهرت كما أخبر[4]. وذلك برهان ساطع، ودليل قاطع، على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر إنما هو كلام علام الغيوب، الذى لاتخفى عليه خافية[5].

ومعجزة القرآن: أنه يجعل من عالم الغيب، وعالم الشهادة، صورة واحدة متكاملة، يسهل على عقل الإنسان استيعابها، والتيقن منها.

وإذا كان عالم الشهادة عالماً ملموساً محسوساً، يمكن التأكد من كل مايقال عنه، فإن عالم الغيب لايعلمه إلا الله ـ تبارك وتعالى ـ والمزج بينهما فى درجة

(١) نفس المصدر ١٠٧-١٠٨.
(٢) حنفى أحمد، التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن الكريم، ص١٣، ط: دار المعارف بمصر.
(٣) على محمد حسن العمارى، القرآن والطبائع النفسية، ص: ١٢-١٣ ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
(٤) طاهر الجزائرى، الجواهر الكلامية ص: ٢٣، ط: البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.
(٥) الصابونى، التبيان فى علوم القرآن ص ١٢١.

الاستيعاب والتيقن، هى المعجزة الإلهية التى يحققها القرآن الكريم، فحين يعرض القرآن الكريم لصور الحياة فى العالم الآخر، فإنه ينقلها فى صيغة الحال فى تقرير لما هو كائن، لا لما سيكون، إنها ذروة اليقين فى أمر لا سبيل إلى إنكاره، حتى ولو غاب عن إمكانات الحواس ومحدوديتها[1].

ومن هذه الأخبار الغيبية: أخباره عن الحرب التى ستقع بين الروم والفرس، وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم، بعد أن انكسروا فى الحرب السابقة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[2].

فهذه الآيات من هذه السورة، نزلت بمناسبة معينة، ذلك حين غلبت فارس على الروم، فيما كانت تضع يدها من جزيرة العرب، وكان ذلك فى إبان احتدام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام فى مكة قبل الهجرة، والمشركين، ولما كان الروم ـ فى ذلك الوقت ـ أهل كتاب ـ دينهم النصرانية، وكان الفرس غير موحدين ديانتهم المجوسية، فقد وجد المشركون من أهل مكة فى الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد، وفألا بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان، ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هذه السورة، تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم فى بضع سنين، غلبة يفرح لها المؤمنون الذين يؤدون انتصار ملة الإيمان من كل دين[3].

وهذه الآية ـ كما يقول الزمخشرى ـ من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله، لأنها أنباء عن علم الغيب الذى لايعلمه إلا الله[4]. لأن الإخبار عن الأمور الغيبية مما لايقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه[5].

(١) حامد الجوهرى، القرآن الكريم ومعجزة دائمة تتحدى، مقال بمجلة الهداية العدد الخامس والتسعون، صك ١٢، والصادر فى شهر محرم سنة ١٤٠٦هـ، الموافق أكتوبر سنة ١٩٨٥م.

(٢) الروم: من ١-٥.

(٣) سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ: ٥، ص: ٢٧٥٦.

(٤) الزمخشرى، الكشاف، جـ٣، ص: ١٩٧.

(٥) الباقلانى، إعجاز القرآن، ص: ١٢، ط: البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

ومن الإخبار بالغيب وعد الله لمحمد ﷺ: أنه سيظهر دينه على الأديان[1]. قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾[2]. ففعل ذلك وكان أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ اذا أغزى جيوشه، عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالفلاح، وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يفعل مثل ذلك فى أيامه[3].

وقد تحقق هذا الوعد الإلهى، فأظهر الله الإسلام على جميع الأديان، ومكن للمسلمين فى الارض، فى حياة النبى ﷺ حتى استولوا على جميع البلاد العربية، وأرض الروم والفرس، ولم يمض قرن من الزمان، حتى انتشر الإسلام انتشاراً باهراً، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) فى المغرب إلى تخوم الصين فى الشرق، فتحقق بذلك الوعد الكريم، وكان وعد الله مفعولاً[4].

وهناك التنبوء بدخول الرسول ﷺ وأصحابه مكة آمنين مطمئنين، ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[5].

وهناك وعد الله بمستقبل المؤمنين، قال تعالى ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[6].

وهناك الإخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا، إلى وقت نزوله فأخبر الرسول ﷺ بما كان من قصص الأنبياء مع أممها فى القرون الخالية، وذكر ما سأله

---

(١) المرجع السابق، ص: ١٢، بتصرف.

(٢) التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨.

(٣) الباقلانى، إعجاز القرآن، ص١٣.

(٤) الصابونى التبيان فى علوم القرآن، ص ١٢٥-١٢٦ بتصرف.

(٥) الفتح: ٢٧.

(٦) النور: ٥٥.

أهل الكتاب عنه، وتحدوه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر - عليهما السلام - وحال ذى القرنين[1]، وغير ذلك.

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[4]. ولعل هذه الشواهد وغيرها، تؤكد دقة رواية القرآن الكريم للأحداث وصدق دلالته عليها، ودقة تصوير المواقف، تصويراً يؤكد المشاهد والمعاينة.

وبرغم معرفة هذه المسائل التاريخية، أو بعضها على الأقل لدى علماء أهل الكتاب، فإن رواية القرآن الكريم لم تكن مقلدة لما روى فى هذه أو غيرها وإنما جاءت مصححة للأحداث، كاشفة للمواقف، بما لايتيسر مثله إلا لمن عاش هذه الأحداث، أو خالط البيئة التى حدثت فيها على الأقل[5].

فالقرآن آية فيما اشتمل عليه من أخبار غيبية فى الماضى السحيق وكانت تدور فى نفوس الناس وقت رسالته، وأخبار غيبية أخبر عنها ستكون فى المستقبل تحقق منها الكثير، ولاتزال تتحقق كلما تقدم الزمان.

ومن وجوه الإعجاز القرآنى: الأسلوب، إذ أن مادة الإعجاز العربى فى كلام العرب كله، وليس من ذلك شىء إلا وهو معجز[6]، «ذلك أن نظم القرآن على

---

(١) محمد زكى الدين محمد قاسم، مدخل إلى معرفة القرآن، ص ٥٢، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) آل عمران: ٤٤.

(٣) هود: ٤٩.

(٤) يوسف: ١٠٢.

(٥) محمد زكى الدين، مدخل إلى معرفة القرآن الكريم، ص ٥٩، بتصرف.

(٦) مصطفى صادق الرافعى، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٨٨.

تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد»[1].

فالقرآن آية بينة معجزة فى فصاحة لفظه، وأسلوبه، وتركيبه، وتأثيره على النفس، إذ تشعر وأنت تقرؤه بتأثير كبير فى نفسك، وتشعر أن الذى يحدثك هو الله[2].

فأسلوب القرآن الكريم مظهر غريب، لإعجازه المستمر،إذ هو نمط فريد فى البلاغة والروعة، وإشراق البيان، وجمال الديباجة.

ومن الأمور التى تذكر: أننى لم أتعرض لمذاهب القدماء، فى الإعجاز القرآنى، ولم أتناول موضوع التحدى والمعارضة، لأن ذلك أمر قد يطول، وليس من مهمتنا إلا أن نتناول بالعرض الإعجاز الذى جذب الناس إلى الإسلام، وأدى إلى ظهور الإسلام فى المشارق والمغارب.

كذلك لم أتعرض لمعجزات الرسول ﷺ الحسية، والتى جاءت فى كتب السنة والسيرة، وهى ذات أهمية لمن شاهدوها، وكانت فيهم، واكتفيت بالإعجاز القرآنى، لأنه يفوق كل إعجاز، ويبقى إلى ما شاء الله.. ويجدر أن نتعرف على تأثير القرآن الكريم، وفعله فى النفوس، مما نبه الناس إلى الإعجاز القرآنى العظيم.

لقد أيقظ عقولاً وأفهاماً، وأخذ أهواء وأوهاماً، وأحيا قلوباً أماتتها الشهوات والجهالات، وأنار عقولاً أطبقت عليها الظلمات.

وهو فى كل ذلك يسوس الغرائز والطبائع سياسة الحكيم الخبير ويوجه الميول والنوازع توجيه العالم الخبير.

تلاوته راحة النفس، ومدارسته البهجة والأنس، والتأمل فى معانيه يشيع السكينة فى القلوب المضطربة، ويرفع الشكوك عن الهواجس القلقة[3].

---

(١) مؤيد الكيلانى، كيف انتشر الإسلام؟ ص: ٢٤١.

(٢) عبدالمجيد عزيز الزندانى، كتاب التوحيد، جـ: ١، ص: ٥٦، بتصرف، ط: دار المجتمع بجدة سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

(٣) على محمد العمارى، القرآن والطبائع النفسية ص ١٣.

ولقد اعتمد رسول الله ﷺ فى تبليغ الإسلام على نور القرآن المبين، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. فقرأ عليهم القرآن: البرهان القاطع، والضوء اللامع، فكانوا ينفرون من الحق المجرد لأنه يخالف ما ألفوا، وماوجدوا عليه آباءهم. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُون ﴾(1). ولكنهم -كما يقول محمد أبو زهرة-: إذا استمعوا إلى القرآن تحيرت الأفهام واضطربت أحوالهم بين قديم ألفوه، وحق فى القرآن عرفوه، فهم يحاورون فى الحق، ولكن لايدرون ماذا يدفعون به القرآن الذى يحمله ويدعو إليه، وإلى ماجاء به، وأنهم بذوقهم البيانى يجدون أنه فوق كل كلام، ولايمكن أن يجرى على لسان من ألسنتهم وأمثالهم، ولايمكن أن يأتى به محمد من عنده، لأنهم من قبل عرفوا كلامه، وقد رأوه عالياً فى جوامع كلمه، ولكن القرآن أعلى من طاقة الإنسان(2).

ومن هنا: كان فعل الإعجاز القرآنى وتأثيره، وتأثير روعة بلاغته، ودهشة نظمه، وأسلوبه الجاذب، لفهم دعوته والإيمان به، إذ لايخفى حسنها على أحد فهمها، وكانوا يتفاوتون فى هذا النوع تفاوتاً كبيراً، لاختلاف درجاتهم فى بلاغة اللغة، وفهم المعانى العالية(3).

وهذا التأثير هو الذى أنطق الوليد بن المغيرة المخزومى: أنه يعلو ولايعلى عليه وهذا التأثير هو الذى كان يجذب رؤوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً، لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ فى بيته، على ماكان من نهيهم عنه، ونأيهم منه، وتواصيهم وتقاسمهم لايسمعون له، ثم كانوا يتسللون فرادى، مستخفين، ويتلاقون فى الطريق متلاومين(4).

وهذا التأثير القرآنى هو الذى حملهم على منع أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ من الصلاة والتلاوة فى المسجد الحرام، لما لتلاوته وبكائه فى الصلاة من التأثير الجاذب إلى الإسلام، وعللوا ذلك بأنه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم(5).

---

(1) البقرة: ١٧٠.

(2) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص ٦٧، ط: دار الفكر العربى، ببيروت.

(3) محمد رشيد رضا، الوحى المحمدى، ص ١٨٤، ط: مؤسسة عز الدين ببيروت.

(٤، ٥) محمد رشيد رضا، الوحى المحمدى، ص ١٨٤.

وقد كان أبو بكر الصديق -رضى الله عنه- حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى، استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدغنة، وهو يومئذ سيد الأحابيش[١]، فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجنى قومى، وآذونى، وضيقوا على، قال: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع وأنت فى جوارى، فرجع معه، حتى إذا دخل مكة، قام ابن الدغنة فقال: يامعشر قريش. إنى قد أجرت ابن أبى قحافة فلا يعرضن له أحد إلا بخير.. فكفوا عنه، وكان لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ مسجد عند باب داره فى بنى جمح، فكان يصلى فيه، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى... فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئه.

فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة، فقالوا: ياابن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه إذا صلى وقرأ ماجاء به محمد ويرق ويبكى وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم فأته، فمره أن يدخل بيته، فليصنع فيه ماشاء.

فمشى ابن الدغنة إليه وقال له: يا أبا بكر. إنى لم أجرك لتؤذى قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت به، وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت[٢].

إن تأثير القرآن كان ولايزال عظيماً، وهذا التأثير هو الذى حمل المشركين على صد النبى ﷺ بالقوة عن تلاوة القرآن فى البيت الحرام، وفى أسواق الموسم ومجامعه، حتى أنهم كانوا يقذفونه بالحجارة[٣].

---

(١) الأحابيش: هم أحياء من القارة انضموا إلى بنى ليث، والتحبيش: التجمع فى كلام العرب، وقيل: هم بنو المصطلق، وقيل: هم بطن من قريش، وإنما سموا بذلك لاجتماعهم، وقيل: حالفوا قريشاً تحت جبل يسمى «حبشياً» بأسفل مكة، فسموا بذلك، وليسوا من الحبشة كما يتوهم البعض.
ابن هشام، السيرة النبوية، جـ١، ص ٣٩٥. وعمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، جـ١ ص ٦٥٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ١ ص ٣٩٥-٣٩٦.
وفى ابن هشام تكملة لما ذكرنا، وذلك أن أبا بكر -رضى الله عنه- رد على ابن الدغنة جواره، وقال: «أرضى بجوار الله». ابن هشام، السيرة النبوية، جـ١ ص ٣٩٦.

(٣) محمد رشيد رضا، الوحى المحمدى، ص ١٨٦، بتصرف.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1].

جاء فى ظلال القرآن: كلمة كان يوصى بها الكبراء من قريش أنفسهم ويغرون بها الجماهير، وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن فى أنفسهم، وفى نفوس الجماهير[2].

وكان النبى ﷺ يطلب من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس[3].

قال تعالى : ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[4].

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[5].

ومما تجد الإشارة إليه: أن هناك حقيقتين ثابتين، نعرض لهما باجمال:

الحقيقة الأولى : أن قريشاً مع شدة ملاحاتها للنبى ﷺ ومع أن القرآن الكريم قد ذكر آباءهم بغير مايحبون، وذكر أوثانهم بغير مايؤمنون، لم يتحركوا لأن يقولوا مثله، وأذعنوا لبلاغته وقوته[6].

وكتب السيرة تبين لنا: أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مادخل فى الإسلام إلا بعد أن استمع إلى آيات من القرآن الكريم[7]، وكذلك جبير بن مطعم.

(١) فصلت: ٢٦.
(٢) سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ٥ ص ٣١٢٠، بتصرف.
(٣) محمد رشيد رضا، الوحى المحمدى، ص ١٨٧.
(٤) الأنعام: ١٩.
(٥) النمل: ٩١، ٩٢.
(٦) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص ٧٠.
(٧) ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٤ ص ١٤٨.

الحقيقة الثانية : أن القرآن الكريم، جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من روعة وقوة بيان، وإيجاز معجز، وأقوال محكمة، وقصص تطول وتقصر وهى مملوءة بالعبر فى طولها وقصرها، وأطنابها الرائع، وإيجازها الذى لايدع صغيرة ولاكبيرة إلا أوفاها بالعبارة الناصعة، والإشارة الواضحة فما كان الإيمان نتيجة تحد للمقاويل منهم وعجز، وإن كان العجز ثابتاً، وإنما كان الإيمان ثابتاً بالقرآن الكريم، فهو الذى جذب إلى الإيمان بما فيه من بيان أدركوا أنه فوق طاقة البشر، وأنه حقائق ثابتة(١).

وهاتان الحقيقتان تؤكدان لنا: أن العرب مع شركهم، كانوا ينجذبون الى القرآن، ويريدون أن يسمعوه، استطابة لما فيه من لفظ ذى نغم يجذب، وعبارات مشرقة.

وكذلك يتجلى إعجاز القرآن بوضوح، فيما يترتب على اختلاف القراءات من فوائد وآثار، وقراءات القرآن الكريم، تلتقى مع البلاغة، فى تحقيق أهم الأهداف، التى تهدف إليها البلاغة، وهو: إدراك روعة النظم القرآنى والوقوف على أسراره(٢).

واختلاف القرآءات جاء لتيسير قراءة القرآن الكريم، وحفظه على القبائل العربية التى درج كل منها على التحدث بلهجة معينة، ولو نزل القرآن بلهجة واحدة، لصعب على أصحاب اللهجات الأخرى أن يقرؤوه بلهجاتهم التى تعودوا عليها، فكان من تيسير الله ـ تعالى ـ أن أمر نبيه محمد ﷺ بأن يقرىء كل قوم بلغتهم، وماجرت عليه عاداتهم(٣).

هذا بعض من كل، وقليل من كثير، عن الإعجاز القرآنى، الذى تجلى فى كل آيات القرآن الكريم.

كل هذا وغيره مما جاء فى القرآن الكريم من الآيات العلمية والكونية دلائل وبراهين، على معجزة القرآن الدائمة، ليظل القرآن بآياته، وماجاء به معجزة تتحدى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص ٧٠.

(٢) د. فتحى عبدالقادر فريد، الإعجاز والقراءات، ص ٦٣، بتصرف. ط. دار العلوم: بيروت سنة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧.

العدالـــة

العدالة: أخذت من العدل. والعدل ماقام فى النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور، ومن أسماء الله: العدل، وهو الذى لايميل به الهوى، فيجور فى الحكم، وهو فى الأصل مصدر سمى به، فوضع موضع العادل[1].

ومادة (عدل) فى أصلها المادى، إنما ترجع إلى «العدل» - بالكسر - وهو: نصف الحمل الذى يوضع على الدابة، وموازنة هذا العدل بنظيره فى الجانب الآخر من الدابة: وهو المعادلة أو العدل[2].

والعدل: القسط اللازم للاستواء، وهو استعمال الأمور فى مواضعها وأوقاتها، ووجوهها، ومقاديرها، فى غير إسراف، ولاتقصير، ولاتقديم ولا تأخير[3].

وقيل: العدل يستعمل فيما يدرك بالبصيرة، كالأحكام، كقوله تعالى: ﴿...أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا...﴾[4]. والعدل - بالكسر - والعديل فيما يدرك بالحاسة، كالموزونات والمعدودات والمكيلات[5].

والحق الذى لامرية فيه: أن البشرية لم تعرف دعوة إلى العدل، كما عرفتها فى الإسلام، فلقد دعا الله الأمة إليه، فأمرها به أن تأخذه وتلتزمه وتحتكم إليه، «وجاء الإسلام بفكرة العدل، وحقق وجودها كمبدأ تأسيسى، منظم للفضيلة الخلقية، بمعنى العدالة المعروف منذ الأزل، والمحقق لاتزان الكون وانسجامه، بأوضح مايكون عليه الاتزان، وبأدق مايتم فيه الانسجام»[6].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، جـ: ٤، ص: ٢٨٣٨، مادة (عدل).

(٢) د. عبدالمحسن الحسينى، المعرفة عند الحكيم الترمذى، ص: ٢٤٢، ط: دار الكتاب العربى، بالقاهرة.

(٣) د. أبو بكر ذكرى، تاريخ النظريات الأخلاقية، ص: ٨٢، ط: مكتبة الكليات الأزهرية، سنة ١٣٧٨هـ-١٩٥٩.

(٤) سورة المائدة آية ٩٥.

(٥) الفيروز آبادى، بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، ج: ٤، ص: ٢٨.

(٦) مؤيد الكيلانى، كيف انتشر الإسلام؟ ص: ٦٥.

قال تعالى: ﴿ ...فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ... ﴾[1].

قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ... ﴾[3].

وهكذا أورد الإسلام ذكر الميزان المعنوى فى الآيات الكريمة، المتضمنة الإشارة إلى إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وكذلك لتقريب فكرة العدالة من العقول، وتوسعاً فى إظهار معنى فكرة العدالة هذه بأوضح الصور.. عمد الإسلام إلى قرن معنى العدل بالحث على عمل الخير، المتضمن لكل ما أمر الله به، والنهى عن عمل الشر، المتضمن لكل مانهى الله عنه[4].

فالعدالة فى الإسلام ـ قبل كل شىء ـ عدالة إنسانية، شاملة لكل جوانب الحياة الانسانية ومقوماتها، وليست مجرد عدالة اقتصادية محدودة، وهى تتناول جميع مظاهر الحياة، وجوانب النشاط فيها، كما تتناول الشعور والسلوك والضمائر والوجدانات... والقيم التى تتناولها هذه العدالة، ليست للقيم الاقتصادية وحدها، ولا للقيم المادية على وجه العموم، إنما هى هذه ممتزجة بها القيم المعنوية والروحية جميعاً[5].

والإسلام ـ كما يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله ـ: دين الوحدة بين القوى الكونية، فلا جرم هو دين التوحيد: توحيد الإله، وتوحيد الأديان جميعاً فى دين الله، وتوحيد الرسل فى التبشير لهذا الدين الواحد، منذ فجر الحياة: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[6].

والإسلام دين الوحدة فى العبادة والمعاملة، والعقيدة، والشريعة والروحيات، والماديات، والقيم الاقتصادية، والقيم المعنوية، والدنيا والآخرة، والأرض والسماء.

---

(١) الشورى: ١٥.
(٢) الرحمن: ٧.
(٣) الحديد: ٢٥.
(٤) مؤيد الكيلانى، كيف انتشر الإسلام؟ ص: ٦٦.
(٥) سيد قطب، العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ص: ٢٦، ط: دار الشروق، سنة: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
(٦) الأنبياء: ٩٢.

وعن تلك الوحدة الكبرى، تصدر تشريعاته وفرائضه، وتوجيهاته وحدوده وقواعده، فى سياسة الحكم، وسياسة المال، وفى توزيع المغانم والمغارم، وفى الحقوق، والواجبات، وفى ذلك الأصل العظيم الكبير، تنطوى سائر الأجزاء والتفصيلات.

وحين ندرك هذا الشمول فى طبيعة النظرة الإسلامية للألوهية والكون والحياة والإنسان، ندرك معها الخطوط الأساسية للعدالة فى الإسلام، فهى قبل كل شىء عدالة إنسانية، شاملة لكل جوانب الحياة الإنسانية ومقوماتها، وليست مجرد عدالة اقتصادية محدودة، وهى إذن تتناول جميع مظاهر الحياة، وجوانب النشاط فيها، كما تتناول الشعور والسلوك، والشعائر والوجدانات[(١)].

وبناء على ما ذكره الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ من أن ادراك الخطوط الأساسية للعدالة فى الإسلام ناتج وبالدرجة الأولى من إدراك الشمول فى طبيعة النظرة الإسلامية للألوهية، والكون والحياة والإنسان، بناء على ذلك: نعرف أن العدالة من أفضل الأمور والقيم التى أتانا بها الإسلام، فأمرنا بها، ورغبنا فيها، وأن العدل قيمة من أبرز القيم، التى لايرقى إليها فى مرقاها الرفيع، إلا المؤمنون بالله.. ولا يلتزم بها ويتعامل إلا كل مجتمع ناقه رشيد، مدرك لحقيقة وجوده، ومقتضيات حياته، وواجبات يومه، وتطلعات مستقبله.

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فأحسنوا، إن الله يحب المحسنين»[(٢)].

فليس هناك فضيلة من الفضائل، تبلغ مابلغه العدل، حين يطبق قربى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وزكاة للنفس.

وعلى الوحدة المطلقة المتعادلة المتناسقة، والتكافل العام بين الأفراد والجماعات، يسير الإسلام فى تحقيق العدالة، وإن طبيعة نظرة الإسلام إلى الحياة

---

(١) سيد قطب، العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ص: ٢٦.

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الصغير، جـ: ١، ص ٣٨. ورواه ابن أبى عاصم، فى كتاب الديات، باب إذا دفع القاتل إلى أولياء المقتول ما لهم أن يفعلوا به ص: ٥٦. وذكره أبو نعيم فى أخبار أصبهان، جـ: ٢، ص ١١٣.

الإنسانية، تجعل العدالة الإسلامية عدالة اجتماعية إنسانية شاملة لكل مقومات الحياة الإنسانية[1].

والعدالة فى الإسلام: من شأنها أن تبشر بالإسلام، وتدعو الناس إلى التعرف على فضائل الإسلام، مما جعل الناس، يدركون أن سمة الإسلام العدالة، وهى ميزان الاجتماع فى الإسلام، وهى التى يقوم بها بناء الجماعة. وكل تنظيم اجتماعى لايقوم على العدالة منهار، مهما تكن قوة التنظيم فيه، لأن العدالة هى الدعامة، وهى النظام، وهى التنسيق لكل بناء.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[2].

والله يعد العدالة بين الناس، أقرب القربات إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإن المؤمن مطالب بأن يقيمها لله ـ تعالى ـ فهى طريق الزلفى إليه، ولذلك قال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[3].

وقد ذكر الشهيد سيد قطب فى كتابه «العدالة الاجتماعية فى الإسلام»: أن العدالة الاجتماعية فى الإسلام تقوم على ثلاثة أسس، هى:

١ - التحرر الوجدانى المطلق.

٢ - المساواة الإنسانية الكاملة.

٣ - التكافل الاجتماعى الوثيق[4].

والشيخ محمد أبو زهرة ـ رحمه الله ـ يشير فى بحث له بعنوان -(المجتمع الإسلامى فى ظل الإسلام)، إلى أن أهم شعب العدالة:

١ - العدالة النفسية.

٢ - والعدالة الاجتماعية[5].

---

(١) سيد قطب، العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ص: ٣١.

(٢) النحل: ٩٠.

(٣) المائدة: ٨.

(٤) سيد قطب العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ص:٣٢.

(٥) محمد أبو زهرة المجتمع الإسلامى فى ظل الإسلام، من بحوث المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية، المجلد الثالث، ص: ٣٩٢، ط: الأزهر، سنة ١٣٨٦هـ-١٩٦٥م.

وليس من شأننا أن نتتبع هذه الأسس واحدة واحدة، أو تلك الشعب. لأن هذه الأسس التى تقوم عليها العدالة الاجتماعية، وتلك الشعب، إنما هى جميعها تنطلق من الإسلام... وإنما الذى يعنينا منها، وبالدرجة الأولى: مايتصل بالناس، أو بتعبير أكثر اقتراباً.. يعنينا منها مايكشف للآخرين فضل الإسلام، ويبرز لهم مثله العليا، وقيمه الفاضلة.

فالعدالة النفسية: أن يقدر كل إنسان لنفسه من الحقوق بمقدار مايقدره لغيره، على ألا يزيد على الناس فى حق، وقد يفرق على نفسه الزيادة فى الواجب، لا فى الحقوق.

وهذه العدالة النفسية: هى التى توجد الاتصال المستمر، وهى التى تقوى بناء الجماعة، وهى تنفذ ديناً من غير قهر، ولاحكم مسيطر، بل يكون الحكم من ذات الضمير[1].

والذى لاشك فيه: أن العدالة النفسية، لاتتحقق إلا عندما يتم «التحرر الوجدانى، الذى يجعل الإنسان يتحرر من عبادة أحد غير الله، ومن الخضوع لأحد غير الله. فما لأحد عليه غير الله من سلطان، وما من أحد يرزقه من شىء فى الأرض، ولا فى السماء إلا الله، وليس بينه وبين الله وسيط، ولاشفيع، والله وحده هو الذى يستطيع والكل سواه عبيد[2].

فالإسلام يسعى إلى تحرير الإنسان وجدانياً، ومن أعمق أعماقه، وينتزع كل بذور الخوف والتعلق والخضوع من قلبه، ويجعله يرفع رأسه باعتزاز، ويرفض الانحناء، والتقرب لأى سلطة فى الأرض، فلا يخضع إلا لله، ولايعبد إلا الله حاملاً شعار (لا إله إلا الله)، الذى يدفعه إلى التحرك لمجاهدة كل القوى التى تقف بمواجهة الحق، الذى ينتمى إليه، ودونما رغب أو رهب[3].

وعندئذ تكون العلاقة بين العدالة النفسية، والعدالة الاجتماعية: علاقة وثيقة، ترشد إلى أن الحياة الاجتماعية، وأنماط السلوك، والعلاقات والنشاطات التى يمارسها الإنسان، إنما هى تعبير عن المحتوى، والبناء الذاتى، وأن العدالة

(١) المصدر السابق.

(٢) سيد قطب، العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ص: ٣٣.

(٣) د. عماد الدين خليل، العدل الاجتماعى، ص: ٢١-٢٢، ط: مؤسسة الرسالة، ببيروت.

الاجتماعية صياغة حية، وتعبير أمين عن الدوافع والمقاصد، لأن الإسلام شد أزر الطبيعة الاجتماعية بما يقويها، ويقيها من الانحراف، والانحلال، فربط بين أفراد الإنسان برباط قلبى، يوحد بينهم فى الاتجاه والهدف، ويجعل منهم وحدة قوية متماسكة، يأخذ بعضها برقاب بعض، سداها المحبة، ولحمتها الصالح العام، وهدفها السعادة فى الدنيا والآخرة.

وهذا الرباط هو رباط الإيمان والعقيدة، المتصلة بمبدأ الخير والرحمة، وهو الله سبحانه وتعالى.

وقد اتخذ الإسلام عنواناً لهذا الرباط (الأخوة الدينية) بين المسلمين. وهى أصدق تعبير عن الحقوق، والواجبات الاجتماعية. وهى أقوى مايبعث فى النفوس معانى التراحم، والتعاطف، والتعاون، وتبادل الشعور والإحساس[١].

وبناء على هذه المفاهيم الإسلامية. كان من الأصول التى ينبغى أن تتوفر فى المجتمع الإسلامى: التكافل بين أفراد المجتمع، لتحقيق العدالة فى أسمى صورها.

والتكافل الاجتماعى الذى يتميز به الإسلام، يعنى: أن تمتد يد المساعدة من الغنى إلى الفقير، ومن القوى إلى الضعيف، ومن العالم للجاهل، ومن الواجد لمن لايجد، بلا مقابل، أو اشتراك، أو تضحية، من الطرف المتلقى، وقد ورد ذلك فى الإسلام واضحاً مميزاً[٢].

فالتكافل فى الإسلام ليس علاجاً لأزمة اجتماعية تنشأ فى المجتمع، أو وقاية من ثورة الفقراء، ولكنه صفة موضوعية من صفات المجتمع، الذى يقوم على الإسلام[٣].

والتعرف على العدالة فى الإسلام، التى عملت على ظهور الإسلام، يقتضى من الباحث أن يعرض للعناصر الرئيسية الآتية:

---

(١) محمود شلتوت، منهج القرآن فى بناء المجتمع، ص: ٧٩، ط: دار الكتاب العربى، بمصر سنة: ١٣٧٥-١٩٥٥م.

(٢) د. جمال الدين محمود، أصول المجتمع الإسلامى، ص: ١٥٨-١٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص: ١٥٩، بتصرف واختصار.

العنصر الأول:

حق الله وحق الإنسان فى المال

هذا الكون الذى نعيش فيه، خلقه الله -جل شأنه- مما نعلم ومما لا نعلم، ومما ندرك، ومما لاندرك، ومما نستطيع تصوره، ومما لانستطيع تصوره، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1].

فهو الذى خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات، وما بينهما من أجرام، لايحيط بها العلم، ولايدركها الوصف، ولايحصيها العد، وهو القادر على أن يخلق غيرها إن شاء، إذ الخلق متعدد بمشيئته، وراجع لأمره.

قال تعالى: ﴿...وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

والله الذى خلق هذا الكون قد سخره لخدمة البشر، وجعل للبشر مايمكنهم من الاستفادة بما وهبهم من أبصار وأسماع وعقول، تساعدهم على استخدام ما فى الكون من خيرات، واكتشاف ما فيه من قوى، واستغلال ذلك كله فى سبيل نفعهم، وإسعاد أنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[3].

وإذا كان الله قد سخر الكون للبشر، فانه قد سخر بعض البشر لبعض ليستطيعوا أن يعيشوا فى جماعة منظمة، متعاونة، وليكونوا أقدر على استغلال الكون المسخر لهم، والانتفاع بخيراته، والمساهمة فى بقاء حياة إنسانية مرضية. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

---

(١) الأنعام: ١٠٢.
(٢) المائدة: ١٧.
(٣) لقمان: ١٠.
(٤) الأنعام: ١٦٥.

وإذا كان الله خالق كل شيء ـ كما بينا ـ فهو مالكه. قال تعالى: ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[1].

وشاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يستعمر البشر فى الأرض، وجعلهم خلفاء فيها، فسخر لهم كل ماخلق فى السموات والأرض.

فملك الله مسخر لمنفعة البشر، ولهم جميعاً أن ينتفعوا به، ويستغلوه، ويستثمروه، ويعملوا فيه.

فما فى أيدى البشر من ملك الله وثمراته، إنما هو عارية ينتفع بها الناس وإذا كان الله مالك كل شىء، فهو وحده الذى يمنح كل فرد من البشر ما فى يده من هذا الملك الواسع.

وهذا المنح ـ أياً كانت ـ لاتغير صفة الممنوحين، فما هم إلا بعض أفراد من البشر يقومون على ملك الله، وما فى هذا الملك إلا عارية فى أيديهم، قال تعالى: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ...** ﴾[2].

واذا كان المال مال الله، وهو عارية فى يد البشر، الذين استخلفهم عليه، فليس لهم أن يتأخروا عن إنفاذ أمر الله فى هذا المال، فإذا أمرهم أن يؤتوا فئات من الناس شيئاً من هذا المال، فعليهم أن يبادروا بذلك، فما يؤتونهم إلا من مال الله. قال تعالى:

﴿ **...وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...** ﴾[3].

وللبشر حق الانتفاع بما فى أيديهم من مال الله، وهو الحق الوحيد الذى لهم فى هذا المال، والانتفاع بالمال قد يكون باستغلاله أو استثماره، كما هو الحال فى الطعام والشراب واللباس. وقد يكون بالتصرف فى المال تصرفاً شرعياً كالبيع والهبة والصدقة. وللبشر أن ينتفعوا بمال الله فى هذه الوجوه كلها.

وحق البشر فى الانتفاع بمال الله، ليس حقاً مطلقاً، وإنما هو حق مقيد بقيود، فليس لهم أن ينتفعوا بهذا المال كما يشاؤون، وإنما لهم أن ينتفعوا به فقط

---

(١) المائدة: ١٢٠.

(٢) الحديد: ٧.

(٣) النور: ٣٣.

فى حدود المباح، وحسب حاجتهم لهذا المال، وبالقدر الذى يكف عنهم الحاجة ويدفعها، بشرط أن يكون ذلك كله مع الاعتدال، دون سرف أو تقتير، فليس لهم أن يسرفوا فى طعامهم، وشرابهم، ولباسهم، وأمور معيشتهم. ولايجوز لهم أن يقتروا على أنفسهم، قال تعالى: ﴿**كُلُوا من طَيِّبَات مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فيه فَيَحلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْه غَضَبِي فَقَدْ هَوَى**﴾[1].

وعن خولة الأنصارية، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجالاً يتخوضون فى مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة»[2].

العنصر الثانى:

مسؤولية المسلمين بعضهم عن بعض

والمسؤولية تقع داخل نطاق الإمكان، وداخل نطاق الحرية، حرية الاختيار بين هذا وذاك.

فالمسؤولية: صفة يستمدها كل امرىء من فطرته الإنسانية، قبل أن يتلقاها، وهى صفة لازمة للإنسان المسلم، قال: ﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾[3].

يقول ابن كثير: «وفى أموالهم حق أى: جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل وهو: الذى يبتدىء بالسؤال. والمحروم: الذى لامال له، أو قد ذهب ماله[4].

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له». قال أبو سعيد: فذكر رسول الله ﷺ من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل»[5].

---

(١) طه: ٨١.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب فرض الخمس، باب قوله تعالى: ﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾. جـ٦، ص: ٢١٧. ورواه أحمد فى مسنده، جـ٦، ص: ٤١٠، وزاد فيه: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن رجالا يتخوضون فى مال الله... »الحديث.

(٣) الذاريات: ١٩.

(٤) ابن كثير تفسير القرآن العظيم، جـ: ٧، ص: ٣٩٥-٣٩٦.

(٥) رواه مسلم فى صحيحه، كتاب اللقطة، باب استحباب المواساة بفضول المال، جـ: ١٢، ص: ٣٣.

فالإسلام يقيم بين المؤمنين به ولاية متبادلة، يدل عليها قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ... ﴾[2].

ويصف الرسول ﷺ المجتمع الإسلامي: بأنه كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً[3]. وأنه كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[4]. لأن حياة المسلمين سيل لاينقطع فى التعامل، والتبادل، للحقوق والواجبات، وحركة دائبة، للأخذ والعطاء، وصورة نشطة، للتعايش اليومى، الذى يختلط فيه الناس، وتشتبك مصالحهم، فى حرص حريص، على جلب المنفعة، ودفع المضرة.

والعدالة التى هى بمعنى الحق، أعم من العدل الذى يراد به الفصل فى الحقوق بالحق، ويقابله الظلم، فإن العدالة تكون فى ميادين كثيرة، تكون فى التشريع، والتنفيذ، وفى الرأى والعمل، وفى العقيدة، والسلوك، بل إن العدالة تخطت حدود البشر، فشملت بظلها عالم الحيوان كله، وهى عدالة تحمل معنى الرحمة، وإحسان المعاملة. وقد ورد فى الصحيحين شكر الله لمن سقى الكلب فغفر له[5]. وتعذيبه لمن حبست الهرة، لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض[6].

---

(١) التوبة: ٧١.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، جـ ١٠، ص: ٤٤٩.

(٤) رواه مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والأداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، جـ: ٤، ص: ١٩٩٩-٢٠٠٠.

(٥) لفظ الحديث: «بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا فشرب منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له» قالوا يارسول الله: وإن لنا فى البهائم أجراً؟ قال: «فى كل كبد رطبة أجر». رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب المساقاة، باب فضل سقى الماء، جـ: ٥، ص: ٤٠.

(٦) عطية صقر، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص: ٣٧٨-٨٣٧٩ =

وقد تحدث الماوردى فى كتابه «أدب الدنيا والدين» عن العدل بمعناه الشامل، فقال: إنه يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان، وذكر أنه أحد قواعد الدنيا التى لا انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه، ولهذا وجب على الإنسان أن يبدأ بالعدل فى نفسه، ثم بعد له مع غيره. وذكر أن عدله فى نفسه يكون بحملها على أعدل الأمرين: من تجاوز أو تقصير، فإن التجاوز فيهما جور، والتقصير فيهما ظلم. ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم، ومن جار عليها، فهو على غيره أجور[(١)].

ومن هنا: كان العدل ميزان الاجتماع فى الإسلام، يقوم عليه بناء المجتمع وتستقيم به الأمور، وتسير فى مسارها الصحيح، وبه تطمئن النفوس فى نيل حقوقها، وكل تنظيم اجتماعى لايقوم على العدل، هو الدعامة القوية، والأساس المتين الذى يقوم عليه الحكم والتنسيق السليم لكل بناء[(٢)].

فالعدالة -كما ترى- من القيم والمثل الأساسية، التى جاء الإسلام ليقررها بين بنى الإنسان، وقد كان طبيعياً من الإسلام الذى يحرص على كرامة الإنسان، ووصول حقه إليه أن يأتى بالعدالة... فالعدالة ضرورية لضمان العدل وإقامة الحق الذى يشيع الطمأنينة، وينشر الأمن، ويشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، ويجعل الروابط بينهم قائمة على التوازن والانسجام والإخاء[(٣)].

ويروى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالساً، إذ مر به عثمان بن مظعون. فنظر إلى النبى ﷺ، فقال له: «ألا تجلس؟» فقال: بلى، فجلس إليه مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شخص بصره إلى السماء فنظر ساعة، وأخذ يضع بصره، حتى وضع على عتبة فى الأرض، ثم تحرف عن جليسه عثمان إلى حيث يضع بصره، فأخذ ينفض رأسه، كأنه يستنقه

= **ولفظ الحديث:**
«عذبت امرأة فى هرة ربطتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار لا هى أطعمتها، ولاسقتها، إذ حبستها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض». رواه البخارى فى صحيح مع فتح البارى فى عدة مواضع.

(١) الماوردى، أدب الدنيا والدين، ص: ١٣٢، تحقيق: مصطفى السقا، ط: الثالثة، البابى الحلبى، بالقاهرة، سنة: ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.

(٢) د. شوكت محمد عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ص ٣٣٥.

(٣) د. عبدالكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، ص: ٧٧.

مايقال له، ثم شخص بصره إلى السماء، كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره، حتى توارى فى السماء، وأقبل على عثمان كجلسته الأولى، فقال يامحمد: فيما كنت أجالسك، وآتيك ما رأيت تفعل فعلتك الغداة. قال: «ما رأيتنى فعلت؟» قال: رأيتك شخص بصرك إلى السماء، ثم وضعته، حتى وضعته على يمينك، فتحرفت إليه، وتركتنى، فأخذت تنفض رأسك كأنك تستنقه شيئاً يقال لك... قال: أو فطنت إلى ذلك؟».

قال عثمان: نعم. قال: «أتانى رسول الله جبريل - عليه السلام - وسلم آنفاً وأنت جالس» قال: فماذا قال لك؟ قال: «قال لى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[1]».

فذاك حين استقر الإيمان فى قلبى، وأحببت محمداً ﷺ[2].

والعدل من صفات الهداة بالحق، والداعين إليه قال تعالى ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾[3].

والله - سبحانه وتعالى - ما أرسل رسله، ولا أنزل كتبه، ولا كلف الناس بالشرائع، إلا لإقامة العدل والحق[4]... وإقامة العدل إحدى وظائف الرسول ﷺ: ﴿ **...وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ...** ﴾[5].

وقد أمر الله - سبحانه وتعالى - بالعدل فى الحكم بين الناس، لأن ذلك يعيد الحقوق لأصحابها، ويقضى على أسباب العداوة والبغضاء، التى قد تتولد فى

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠.

(٢) النيسابورى، أسباب النزول، ص:١٦١. ورواها أحمد فى مسنده، جـ: ١، ص: ٣١٨. ورواها الهيثمى فى مجمع الزوائد، جـ: ٧، ص: ٤٨ وقال: فيه «شهر» وثقه أحمد وجماعة، وفيه ضعف لايضر. وأوردها السيوطى فى الدر المنثور، جـ: ٤، ص: ١٢٨. وأوردها ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم، جـ٢، ص: ٥٨٣.

(٣) الأعراف: ١٥٩.

(٤) د. عبدالكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية ص: ٧٧.

(٥) الشورى: ١٥.

النفوس، بسبب التنازع والتخاصم، فإذا صدر الحكم بالعدل، رضيت به النفوس المتقاضية، وزالت به خصومتهم[1].

والعدل الذى ينادى به الإسلام: عدل مطلق، يساوى بين الناس ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾[2]. ولاتعد العداوة التى تقوم بين الناس مبرراً لقيام الظلم، أو ترك العدل[3].

وروى عن عثمان بن مظعون فى قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[4].

أنه قال: لما نزلت هذه الآية قرأتها على على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فتعجب فقال: «يا آل غالب: اتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق»[5].

ويروى أن أبا طالب لما قيل له: إن ابن أخيك زعم ان الله أنزل عليه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[6]. قال: اتبعوا ابن أخى: فوالله أنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق[7].

وروى عن الحسن ـ رضى الله عنه: أنه قرأ هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[8]. ثم قال: إن الله ـ عز وجل ـ جمع لكم الخير كله، والشر كله فى آية واحدة، فوالله ماترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه وأمر به، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئاً إلا جمعه[9].

---

(١) د. شوكت عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ص: ٣٣٦.

(٢) النساء: ٥٨.

(٣) د. عبدالكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، ص: ٧٨.

(٤) النحل: ٩٠.

(٥) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، جـ: ٤، ص: ٣٧٨١.

(٦) النحل: ٩٠.

(٧) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، جـ: ٤، ص: ٣٧٨١.

(٨) النحل: ٩٠.

(٩) مصطفى المراغى، تفسير القرآن، جـ: ١٤، ص: ١٣١، بتصرف.

ويروى أن أكثم بن صيفى، لما بلغه خبر النبى ﷺ أراد أن يأتيه، فأبى قومه، وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لتخف اليه؟ قال: فليأته من يبلغه عنى، ويبلغنى عنه، فانتدب رجلان، فأتيا النبى ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفى، وهو يسألك من أنت، وما أنت؟ فقال النبى ﷺ: أما من أنا؟ فأنا محمد بن عبدالله، وأما ما أنا؟ فأنا عبدالله ورسوله.

قالا: ثم تلا عليهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[١]. قالا: ردد علينا القول؟ فردده عليهم، حتى حفظوه، فأتيا أكثم، فقالا: أبى أن يرفع نسبه فوجدناه زاكى النسب، وسطاً فى مضر، وقد رمى إلينا بكلمات سمعناها، فلما سمعهن أكثم قال: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا فى هذا الأمر رؤوساً، ولاتكونوا أذناباً، وكونوا فيه أولاً، ولا تكونوا آخراً[٢].

ويقول تعالى: ﴿ **...وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[٣]. أى: وعليكم أن تعدلوا فى القول إذا قلتم قولاً فى شهادة، أو حكماً على أحد، ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة فيكم، إذ بالعدل تصلح شؤون الأمم والأفراد، فهو ركن ركين فى العمران، وأساس فى الأمور الاجتماعية، فلا يحل لمؤمن أن يحابى فيه أحداً لقرابة ولا لغيرها. فالعدل كما يكون فى الأفعال، كالوزن والكيل يكون فى الأقوال[٤].

فالعدالة من أفضل الأمور التى أتانا بها الإسلام، ومن أبر القيم التى دعت الناس إلى الإسلام، ومن العوامل الذاتية التى أدت إلى ظهور الإسلام.

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فأحسنوا، إن الله يحب المحسنين».

---

(١) النحل: ٩٠.
(٢) القاسمى، محاسن التأويل، جـ: ١٤، ص: ١٣٢، بتصرف. وابن الأثير، أسد الغابة، جـ: ١، ص:١١٢-١١٣. وابن حجر، الإصابة، جـ: ١، ص: ١٦٣، بنحوه مختصرا.
(٣) الأنعام: ١٥٢.
(٤) القاسمى، محاسن التأويل، جـ: ٨، ص: ٧١.

وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من أوتيهن، فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود: العدل فى الغضب والرضا، والقصد فى الفقر والغنى، وخشية الله فى السر والعلانية»[1].

اعدل الشرائع شريعة الله:

لقد عرفت الإنسانية كثيراً من النظم والقوانين والشرائع، التى احتكم إليها الناس فى القديم والحديث، ولكنها جميعًا جاءت دون ما يتطلعون إليه من قسطاس وعدل، ذلك لأنها من تشريع البشر، والبشر من طبيعته القصور، ولايعنى هذا: إهمال مجال العقل، والفكر البشرى، بل للعقل منزلة عظيمة، به يتميز الإنسان عن كثير من المخلوقات، ولكن إذا أعمل العقل فى غير ما جاء به الوحى فلابد أن يعجز عن تشريع مايكفل للبشرية النظام الكامل العادل، وذلك لأوجه القصور الآتية:

الأول : القصور الزمانى :

فالإنسان مهما نضج عقله، وبلغ من القوة منتهاها، إلا أنه محدود بحدود زمانية، لايستطيع عقله تجاوزها، مهما كانت عبقريته، والحدود الزمانية بيانها: أننا لو افترضنا أن الإنسان علم بحاضره، الذى يعيش فيه، وعلم شيئاً عن الماضى، بالاطلاع والدراسة، فإنه لايستطيع أن يدعى علم المستقبل، ويستحيل على عقله ذلك، وبناء على هذه الحقيقة الأكيدة، فإن نظامه لو صلح، فسيكون صلاحه فى اطار فترة زمنية محددة، وهذا القصور فى ذاته يكفى، قادحاً فى النظام، الذى يأتى عن طريق العقل والفكر البشرى، ويعرضه للجمود وعدم الصلاحية، بمجرد مرور الزمن، فالغد يأتى بما لا يحيط البشر بعلمه، وعندئذ لابد من التغيير، وقد يكون التغيير شاملاً، ليستجيب النظام بمستجدات الزمان، وعلى هذا يصبح هذا النظام المحدود حتماً فى إطار زمنى ضيق، غير قادر على توفير الأمن والاستقرار، والعدالة للمجتمع، لما ينطوى عليه من التقلب المستمر، والتغيير السريع.

إن هذا القصور سمة لازمة للنظم البشرية، جعل الطريق غير مأمون على المجتمعات البشرية فى ظل تنظيمها لنفسها[2].

---

(١) رواه السيوطى، فى الجامع الصغير، ج: ١، ص: ٥٢٧.

(٢) د. محمد رأفت سعيد، المدخل لدراسة النظم الإسلامية، ص: ٢٥ ط: دار العلم للطباعة والنشر، بجدة، سنة: ١٤٠٤هـ-١٩٨٤.

الثانى : القصور المكانى :

والإنسان محدود بالمكان ـ أيضاً ـ قد يلم بالمكان الذى هو فيه، ويعرف البيئة التى عاش فيها، وما يرتبط بها، ولكنه يجهل غيرها من البيئات الأخرى، لهذا فان نظامه لو صلح لبيئته التى يعيش فيها -على سبيل الافتراض- فإنه لايصلح للبيئات الأخرى.

إذن لن تتحقق العدالة فى النظم، وهى من الأمور الأساسية ولن تتحقق الوحدة، لأن البشرية متحدة فى الأصل والفطرة والغاية، وإن اختلفت الألوان والألسنة، وتباينت الشعوب والقبائل، فلابد من تحقيق العدالة والوحدة فى النظم، لتعيش المجتمعات البشرية فى سلام ووئام[(١)].

الثالث : الميل إلى طرف من الأطراف :

وهى سمة تظهر هى الأخرى على الفكر البشرى، قديمه وحديثه، والمستقرىء للفكر البشرى، يجد المفكر يجنح فى تفكيره إلى طرف من الأطراف، أو إلى جهة من الجهات، أو إلى فكرة أو نزعة، ونحو ذلك، وذلك استجابة لتأثير البيئة على المفكر، وتأثير النزعة التى يربى عليها، فمن ربى على نزعة مادية تطرق إليها، وسار نحوها، ومن ربى على نزعة خيالية جنح إليها، وقد يميل المفكر إلى نزعة فردية ضد الجماعة أو على حسابها، وقد يميل آخر إلى نزعة جماعية ضد مصلحة الفرد، كما أن التنظيم البشرى لا يخلو من الهوى والعاطفة[(٢)].

ولعل مدينة أفلاطون إحدى النماذج لقصور الفكر البشرى، فإنه أراد الخير لمجتمعه، ولكن بحكم قصور عقله ومحدودية تفكيره، أفرز نظاماً مدمراً، فقد رأى أن يقتل الأولاد الذين يولدون لأباء شريرين، حتى يقضى على الشر، فى مجتمعه الفاضل، أو مدينته الفاضلة، كما رأى قتل المرضى، والضعفاء، وكبار السن، وكان فى هذا النظام متأثراً بعقيدة باطلة، تأثر بها من خلال بيئته، التى كانت تعتقد توارث الشر، فترسبت هذه العقيدة فى أعماقه، ورسخت فى نفسه، وهذه فكرة نصرانية، لأنهم يعدون بتحريفهم وتبديلهم أن الخطيئة التى ارتكبها آدم، ما زال أبناء آدم يتوارثونها ـ فكرة توارث الخطيئة ـ ومال إليها تفكيره،

(١) المصدر السابق: ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٧.

وتلونت بها شخصيته، فجاء نظامه جائرا، وتشريعه ظالماً، وكان من الممكن أن ينجو الفكر البشرى من هذه الأفكار الخاطئة، والنظم الجائرة، لو اهتدى بهداية الوحى[1].

ومما وقع فيه أفلاطون من الأخطاء ـ بحكم اعتماده على جهده العقلى بعيداً عن هداية الوحى ـ: التطرف إلى الجماعية على حساب الفرد، فكان يرى: أن وجود أى منفعة شخصية لفرد، يهدم منفعة الجماعة، ولذا فيجب أن تنهار المصالح الفردية، ويقضى عليها.. بحيث لا يجوز أن يكون لأى فرد فى الأمة منفعة شخصية تتميز عن منفعة مجموعها[2].

إن أفلاطون نموذج من النماذج البشرية التى حاولت أن تنظم لمجتمعها بجهدها العقلى، بعيدا عن هداية الوحى، فكان هذا التطرف الذى لا يحسن الجمع بين المادية والروحية، أو بين الفردية والجماعية، أو بين الواقع والخيال.

الرابع : جهل الإنسان بحقيقته :

إذا كان الإنسان الذى هو محل النظم لا يزال مجهولاً لنفسه، فكيف يضع النظم الكفيلة فى المحافظة على الضرورات، والتى تلبى حاجاته ومتطلبات حياته، وكيف نتوقع منه أن يكون مصيباً فيما يخط من نظام دون هداية الوحى المنزل من خالقه.

إن جهل الإنسان بحقيقة نفسه، وطبيعة حاله، حقيقة قررها العلماء المعنيون بدراسة الإنسان، وعلى سبيل المثال: فإن (الكسيس كاريل) وهو عالم مختص فى مجال دراسة الإنسان، ألف كتاباً اسماه (الإنسان ذلك المجهول) أبان فى مؤلفه هذا: جهل الجنس البشرى بنفسه، وقد ورد فى هذا الصدد قوله: «لقد بذل الجنس البشرى مجهوداً جباراً، لكى يعرف نفسه، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التى كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء، وكبار العلماء الروحانيين فى جميع الأزمان، فاننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا... إننا لانفهم الإنسان ككل»[3]. ويواصل قوله: «إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا. فكل واحد منا مكون من موكب

(١، ٢) د. محمد رأفت سعيد، المدخل لدراسة النظم الإسلامية، ص: ٢٧.

(٣) الكسيس كارل، الإنسان ذلك المجهول، ص: ١٦.

من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة»[١]. ويتابع قوله مؤكداً: أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان، مازال غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية[٢].

هذه لمحة موجزة عن قصور الفكر والعقل البشرى فى وضع النظام والتشريع العادل الكامل.

أما الإسلام: فانه جاء فى أعلى ما يرتقب البشر، من العدل، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[٣]. فالميزان هو : العدل، وقيام الناس بالقسط، أى: بالحق والعدل، وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به[٤].

وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ**﴾[٥]. فالميزان: العدل، والعدل: يسمى ميزاناً، لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل، وقيل: الميزان ما بين فى الكتب، مما يجب على الإنسان أن يعمل به. وقال قتادة: الميزان: العدل فيما أمر الله به، ونهى عنه[٦].

ولقد بينت السنة المطهرة عدالة الإسلام، وألقت الأضواء على كتاب الله، سيما فى مجال العدل، وضرورة الاحتكام إليه، فهو حجة الله الفاصلة... عن على ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أنها ستكون فتن» فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى

---

(١) المصدر السابق، ص: ١٧.
(٢) الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ص: ١٨.
(٣) الحديد: ٢٥.
(٤) ابن كثير تفسير القرآن العظيم، جـ:٨، ص: ٥٣، بتصرف.
(٥) الشورى: ١٧.
(٦) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، جـ: ٦، ص: ٥٨٣٥.

لم تنته الجن إذ سمعته، حتى قالوا: ﴿ ...إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ... ﴾[1]. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»[2].

ضرورة التزام الحاكم بالعدل :

إن الحاكم فى الإسلام ـ بحكم وظيفته ـ مسؤول عن الحكم بين الناس وتحكيم العدل بينهم، بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عليهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[3]. فهذا ـ كما ترى ـ: خطاب للولاة والأمراء والحكام، ويدخل فى ذلك بالمعنى جميع الخلق[4].

فالحكم بالعدل بين الناس يطلقه النص هكذا عدلاً شاملاً بين الناس جميعاً لا عدلاً بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا عدل مع أهل الكتاب، دون سائر الناس، وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه إنساناً، فهذه الصفة -صفة الناس- هى التى يترتب عليها حق العدل فى المنهج الربانى. وهذه الصفة يلتقى عليها البشر جميعاً، مؤمنين وكفاراً، أصدقاء وأعداء، سوداً وبيضاً، عرباً وعجماً، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل، متى حكمت فى أمرهم، هذا العدل الذى لم تعرفه البشرية قط فى هذه الصورة، إلا على يد الإسلام، وإلا فى يد هذه القيادة[5].

وقد يتبادر إلى الذهن الآية الكريمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[6]. يقتصر نطاقها على التطبيق فى مجال القضاء والحكم فى المنازعات،

(١) الجن: ١، ٢.
(٢) رواه الترمذى فى جامعه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فى فضل القرآن جـ: ١١، ص: ٣٠. ورواه أحمد فى سننه، جـ: ١، ص٩١. ورواه الدارمى فى سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن ج: ٢، ص: ٣١٣.
(٣) النساء: ٥٨.
(٤) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٢، ص: ١٨٢٦، بتصرف فى العبارة.
(٥) سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ: ٢، ص : ٦٨٩.
(٦) النساء: ٥٨.

لكن هذا الفهم لا يتفق وما ذهب إليه جمهور المفسرين، إذ يقررون أن المراد من الحكم: هو ما كان ولاية عامة أو خاصة(١) .

والعدل واجب حتى ولو كان أحد المتخاصمين عدوا للحاكم، أو ولياً له، فالعداوة يجب ألا تكون مانعاً من العدل، بل لعلها توجب مزيداً من الحرص فى توخى الحق، واتباع العدل، واجتناب الهوى. كما أن القربى والصداقة يجب ألا تكون سبباً في الظلم أو التمييز، أو مجانبة العدل والإنصاف(٢) . قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون**﴾(٤).

وقال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا»(٥) .

ويقول ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً: إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة، وأشدهم عذاباً إمام جائر»(٦).

ولعلنا ندرك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية: أهمية العدل فى الإسلام، حتى يمكن أن يقال دون مبالغة: بأن الإسلام هو دين العدالة فى كل شىء.

---

(١) د. شوكت عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ص: ٣٣٦.
(٢) د. عوضين، الإسلام والإنسان ص ٣٠٢.
(٣) النساء: ١٣٥.
(٤) المائدة: ٨.
(٥) رواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى، كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل، جـ: ٨، ص: ٢١١. ورواه النسائى فى سننه، كتاب آداب القضاء، باب فضل الحاكم العادل فى حكمه جـ: ٨، ص: ٢٢١.
(٦) رواه الترمذى فى جامعه، أبواب الأحكام، باب ماجاء فى الإمام العادل، جـ: ٦، ص: ٧٠، وقال حديث أبى سعيد حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه. ورواه أحمد فى مسنده، جـ: ٣، ص: ٢٢. ورواه السيوطى فى الجامع الصغير، جـ: ١، ص: ٣٣٢.

وبدهى أن العدالة فى مجتمع الإسلام، لم تكن مجرد نظريات بعيدة عن مجال التطبيق العلمى، لأنها ليست مفروضة على المجتمع من خارجه، ولكنها نابعة من عقيدته، ومنبثقة منها، فهى تمثل خلقاً لا ينفك عن طبيعة هذا المجتمع ولا ينفصل عن وجوده، ومن ثم أخذت طريقها فى واقع الحياة[1].

وإن سيرة الرسول ﷺ وتاريخ سلفنا الصالح فواح بعطر العدالة، وشذى الإنصاف، وتحكيم القسط، إذ كانوا مثلاً رائعة ونماذج رائدة فى التزامهم بالعدالة، وإحكام مسيرتهم على هداه، بحيث لم يستثنوا من تطبيق العدالة شريفاً لشرفه، أو لقوته، أو شخصاً لقرابته، وإنما بلغ الأمر أن كانوا فى القضاء موازين قسط، وأوعية عدل فى التنفيذ والتطبيق حازمين وصارمين حتى عطروا تاريخ الحكم والقضاء والعدالة بخالد الذكر. ولقد بلغ بهم أمر الحرص على شريعة الإسلام لتأخذ مجراها، فيحتكم إلى عدالتها الناس، فينتصف للمظلوم من الظالم وللضعيف من القوى، أن أعلنوا هذا فى كثير من مواقفهم، وفى كثير من خطب الخلافة، وبيانات الولاية.

إن تأكيد الإسلام على معانى العدل، وضرورة الالتزام به، والنهى عن الظلم، وضرورة تجنبه، ترتب عليه نتائج رائعة، ذلك أن المجتمع الذى يشيع فيه العدل، يشعر أفراده بالاطمئنان على حقوقهم، وقد جاء فى الحديث: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[2].

هذا هو العدل المطلق، الذى لا يميل ميزانه الحب والبغض، ولا تغير قواعده المودة والشنآن. العدل الذى لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ولا بالتباغض بين الأقوام، فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعاً. ولا يفرق بينهم حسب ولا نسب ولا مال ولا جاه[3].

لقد حقق الإسلام العدالة بين محمد ﷺ أو الخليفة من بعده، وبين كل أفراد الرعية.. فهذا زيد بن سفنة اليهودى، دأن الرسول ﷺ بدين، وتأخر الرسول ﷺ

---

(١) د. إبراهيم عوضين، الإسلام والإنسان، ص: ٣٠٢.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، جـ: ١٢، ص: ٨٦.

(٣) د. عبدالكريم زيدان، أصول الدعوة، ص: ١٠٣. ود. إبراهيم عوضين، الإسلام والإنسان، ص: ٣٠١.

فى أداء الدين، لعسرة ألمت به، وجاء زيد فأمسك بتلابيبه، وجذبه بقسوة، وقال له: أما آن لك يا محمد أن تسدد ما عليك من دين؟ وارتاع عمر ـ رضى الله عنه ـ لقسوة زيد، فأخرج سيفه وهم بضربه، فصاح به الرسول ﷺ: ضع ياعمر سيفك فى جرابه. لقد كان خيراً لك أن تنصحنى بحسن الأداء، وتنصحه بحسن الطلب، وذهل اليهودى مما رآه من خلق رآئع، وعدالة تامة مع اختلاف المكانة والدين فأعلن إسلامه[1].

وهناك حادثة أخرى، ابتلى بها النبى ﷺ وهو فى المدينة. وكثيراً ما يبتلى بمثلها فى كل زمان ومكان العاملون المخلصون والحكام العادلون، على أيدى نفر من الناس، يتقربون إليهم، ويلبسون لهم مسوح التقى والصلاح، ومحبة الصدق والغيرة على الحق بالباطل، ويعملون جهدهم ـ بأساليب ظاهرها الحرص على الحق والعدل، وباطنها الخداع والتمويه ـ فى صرفهم عن إحقاق الحق، وإبطال الباطل[2].

وتتلخص هذه الحادثة فيما ذكره النيسابورى فى أسباب النزول: من أن هناك رجلاً من الأنصار، يقال له: طعمة بن أبيرق، أحد بنى ظفر بن الحارث سرق درعا من جار له، يقال له: قتادة بن النعمان، وكان الدرع فى جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتشر من خرق فى الجراب، حتى انتهى إلى الدار، وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له: زيد بن السمين، فالتمست الدرع عند طعمة، فلم توجد عنده، وحلف لهم، أى قائلاً: والله ما أخذها وما له به من علم، فقال أصحاب الدرع: بلى والله قد أدلج علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق، حتى انتهوا إلى منزل اليهودى، فأخذوه، فقال: دفعها إلىَّ طعمة بن أبيرق، وشهد له أناس من اليهود على ذلك، فقالت بنو ظفر -وهم قوم طعمة-: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فكلموه بذلك، فسألوه: أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح، وبرىء اليهودى.

---

(١) هذه القصة: رواها ابن حبان فى صحيحه، جـ: ١، ص: ٢٩٩. ورواها ابن الجوزى فى الوفاء بأحوال المصطفى، جـ: ٢، ص: ٤٢٥. تحقيق: مصطفى عبدالواحد، ط: دار الكتب الحديثة، بالقاهرة.

(٢) محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص: ٧٨.

فهم رسول الله ﷺ أن يفعل، وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهودى، حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[1].

هذه الحادثة للناس أجمعين، وللمسلمين منهم بخاصة، ليعلم الناس مقدار الغضب الإلهى على الظلم، ومعرفة طريق الحق فى معاملة الناس والحكم لهم أو عليهم، كيفما كان دينهم، وكيفما كانت علاقتهم بالقاضى والخصوم وليعلموا مرة أخرى: أن الإسلام لا يعرف المجاملة، ولا المحاباة، فى حكمه وقضائه، فالأبيض، والأسود، والضعيف، والقوى، والمسلم، وغير المسلم، والحاكم والمحكوم، أمام حكم الله، وعدله سواء[2].

والحكم بالعدل يحتاج إلى أمور:

- فهم الدعوى من المدعى، والجواب من المدعى عليه، ليعرف موضوع التنازع والتخاصم بأدلته من الخصمين.
- خلو الحاكم من التحيز والميل إلى أحد الخصمين.
- معرفة الحاكم الحكم الذى شرعه الله، ليفصل بين الناس، على مثاله من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة.
- توليه القادرين على القيام بأعباء الأحكام.

وقد أمر الله المسلمين بالعدل فى الأحكام، والأقوال، والأفعال، والأخلاق[3].

---

(١) النساء، آية ١٠٥.
وانظر النيسابورى، أسباب النزول، ص: ١٠٣. وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٢، ص: ٣٥٨-٣٥٩. ومحمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص: ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص: ٢٧٩.
وقصة نزول الآية الكريمة: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب﴾، والتى ذكرنا قصتها من أسباب النزول للواحدى النيسابورى، ص: ١٠٣، ذكرها ابن كثير، فى تفسير القرآن العظيم، جـ: ٢، ص: ٣٥٨-٣٥٩، وذكرها محمود شلتوت فى كتابه الإسلام عقيدة وشريعة، ص: ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) القاسمى، محاسن التأويل، جـ: ٥، ص: ٧١.

فمن الآيات التى تأمر بالعدل بصورة عامة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ...﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ...﴾[3].

ومن الآيات التى أمرت بالعدل فى مسائل معينة:

العدل فى القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا.....﴾[4].

والعدل فى الكتاب: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ....﴾[5].

والعدل فى الحكم: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[6].

﴿... فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ...﴾[7].

والعدل فى الكيل والميزان: ﴿... وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ....﴾[8].

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ...﴾[9].

وشواهد من القرآن والحديث كثيرة ـ ذكرنا بعضها ـ، وقد قام المجتمع الإسلامى فى صدر الإسلام على معانى العدل، والالتزام بها، فما كان هناك ظلم ولا محاباة، ولا إجحاف، وإنما كان هناك العدل الصارم، الذى يتساوى أمامه الشريف والوضيع[10].

---

(١) النحل: ٩٠.
(٢) النساء: ١٣٥.
(٣) الأعراف: ٢٩.
(٤) الأنعام: ١٥٢.
(٥) البقرة: ٢٨٢.
(٦) النساء: ٥٨.
(٧) الحجرات: ٩.
(٨) الأنعام: ١٥٢.
(٩) الرحمن: ٩.
(١٠) د. عبدالكريم زيدان، أصول الدعوة، ص: ١٠٣.

خطب أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ خطبته الجامعة، بعد أن بويع بالخلافة فقال: «أيها الناس إنى قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ـ إن شاء الله ـ، والقوى فيكم ضعيف عندى، حتى آخذ الحق منه ـ إن شاء الله ـ أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لى عليكم»[1].

وكتب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى أبى موسى الأشعرى كتاباً يحدد فيه شروط القضاء، قال فيه: «أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآس بين الناس فى وجهك وعدلك»[2].

ويقول أنس بن مالك: كنا عند عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال يا أمير المؤمنين: هذا مقام العائذ بك... قال: ومالك؟ قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل، فأقبلت فرسى فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو، فقال فرسى ورب الكعبة، فلما دنا منى عرفته، فقلت: فرسى ورب الكعبة. فقام إلىَّ فضربنى بالسوط، وقال: خذها وأنا ابن الأكرمين. فوالله ما زاده عمر على أن قال له: اجلس، ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابى هذا فأقبل، وأقبل معك بابنك محمد، فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت حدثاً؟ أجنيت جناية؟ قال: فما بال عمر يكتب فيك، فقدم على عمر. فوالله إنَّا عند عمر إذا نحن بعمرو، وقد أقبل فى إزار ورداء. فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه .

فقال : أين المصرى؟ فقال: ها أنذا. قال : دونك الدرة، فاضرب ابن الأكرمين. اضرب ابن الأكرمين. فضربه، حتى أثخنه، ثم قال: أحلها على صلعة عمرو. فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه.

فقال: يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى. قال: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه، حتى تكون أنت الذى تدعه.. أيا عمرو: متى استعبدتم الناس،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ: ٦، ص: ٣٠١. وابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ: ٢، ص: ٢٢٤.

(٢) أبو الحسن الماوردى، الأحكام السلطانية، ص: ٧١-٧٢، ط: الثانية، البابى الحلبى، بمصر.

وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. ثم التفت إلى المصرى ، فقال: انصرف راشداً، فإن رابك ريب فاكتب إليّ[1].

فالعدالة فى المجتمع الإسلامى تبلغ ذروتها، حتى فى نظرة القاضى، ونبرات صوته وكلامه معهم... يقول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لقاضيه أبى موسى الأشعرى «سو بين الخصمين فى مجلسك، وإشارتك، وإقبالك»[2].

ولا زال التاريخ يمد الباحث بقضايا العدل عند الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فهناك حادثة حصلت بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وبين يهودى، تمثل العدالة المطلقة التى دعا إليها الإسلام وحث عليها، ورغب فيها، لكونها من الأسس والقيم التى تميز بها هذا الدين عن غيره، فبهر بها الناس، ودخلوا فى دين الله أفواجاً... هذه الحادثة جرت بين حاكم المسلمين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وبين شخص من الرعية يهودى... فقد روى أن سيف عمر ضاع، ثم رآه مع يهودى، فادعاه، وادعى اليهودى أن السيف سيفه، فقاضاه عمر ـ رضى الله عنه ـ إلى قاضيه، فلما ذهبا للقاضى جلس عمر ـ رضى الله عنه ـ واليهودى بين يدى القاضى، وسأل القاضى عمر ـ رضى الله عنه ـ فادعى السيف، وسأل اليهودى فأنكر، وطلب القاضى من عمر ـ رضى الله عنه ـ البينة، فلم تكن له بينة، فحكم بالسيف لليهودى، وعجب اليهودى، كيف يحقق الإسلام العدالة والمساواة بين الخليفة عظيم الشأن، وبين فرد عادى من أتباع ديانة أخرى، وكيف يجلس معه عمر ـ رضى الله عنه ـ بين يدى القاضى، ثم كيف يكون الحكم لصالح اليهودى، ولا يقبل القاضى قول عمر ـ رضى الله عنه ـ ولم يستطع اليهودى المقاومة أمام هذا الموقف الرائع العظيم، فاعترف أن السيف سيف عمر، ودخل الإسلام[3].

وإن قضايا العدل والعدالة تفيض بالعطاء الوفير، فهناك قصة أخرى شهيرة عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وجبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة، إذ

---

(١) المتقى الهندى، كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، المطبوع على هامش مسند الإمام أحمد، جـ: ٤، ص: ٤٢٠، ط: دار الفكر، بيروت. وابن الجوزى، تاريخ عمر بن الخطاب، ص: ٩٩-١٠٠، ط: دار إحياء علوم الدين، بدمشق، سنة: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

(٢) د. عبدالكريم زيدان، أصول الدعوة، ص: ١٠٣.

(٣) البلاذرى، فتوح البلدان، ص: ٢٤١-٢٤٢، عنى بمراجعته والتعليق عليه: رضوان محمد رضوان، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

دخل جبلة الإسلام، وكان عمر -رضى الله عنه- يكرمه ويجله، ولكن حدث مرة أن وطىء أحد العامة ذيل إزار جبلة، وجبلة يطوف بالبيت، فاستدر جبلة وضرب الرجل بقسوة على أنفه.

فذهب الرجل وشكا إلى عمر -رضى الله عنه- فاستدعى عمر جبلة وأجلسه بجوار خصمه للقضاء، فاعترف جبلة بأنه ضرب الرجل، فحكم عمر بالقصاص.

قال جبلة: أنا ملك، وهذا سوقة تجلسه بجوارى، وتقتص له منى؟. فأجابه عمر: لقد سوى الإسلام بينكما[1].

ولم يستطع جبلة أن يفهم هذه العدالة التى جاء بها الإسلام، فاستمهل عمر -رضى الله عنه- حتى يرضى خصمه، ويطيب خاطره، فأمهله عمر -رضى الله عنه-، فهرب جبلة، وارتد عن الإسلام.

لقد خسر الإسلام جبلة، ولكن كم ألفاً من الناس دخلوا الإسلام على أثر هذه الحادثة؟ إنهم آلاف وآلاف دخلوا الإسلام، حباً فى هذه العدالة، التى لم يكن لهم بها عهد.

بل يروى أن جبلة نفسه ـ بعد أن صحا من تسرعه، وفكر فى أمره ـ أسف لما حدث منه، ومما يروى عنه فى ذلك قوله:

تنصرت الأشراف من عار لطمة	وما كان فيها لو صبرت بها ضرر
تكنفنى منها لجاج ونخوة	وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى	رجعت إلى الأمر الذى قال لى عمر[2]

تلك كانت عدالة الإسلام، تلك النافذة التى هب منها عطر الإسلام، فجذب الناس إليه، من كل جانب، فاعتنقه الملايين بإخلاص وإيمان[3].

وقد افتقد الخليفة على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ درعه، فوجدها عند رجل نصرانى، فأقبل به يقاضيه إلى شريح القاضى، وقال: إنها درعى، ولم أبع، ولم أهب. فسأل شريح النصرانى: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال: ما

(١) البلاذرى، فتوح البلدان، ص: ١٤١-١٤٢. وابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ: ٢، ص: ٥٦-٥٩.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ: ٣، ص: ٦١.

(٣) د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى، ج: ١، ص: ٥٥٥، ٥٥٦.

الدرع الا درعى، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب. فالتفت شريح إلى على يسأله: يا أمير المؤمنين: هل من بينة؟، فضحك على ـ رضى الله عنه ـ وقال: أصاب شريح، مالى بينة.

فقضى بالدرع للنصرانى فأخذها، ومشى أمير المؤمنين ينظر، إلا أن النصرانى لم يخط خطوات، حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء... أمير المؤمنين يديننى إلى قاضيه، فيقضى عليه. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين، فخرجت من بعيرك الأورق... فقال على ـ رضى الله عنه ـ: أما وقد أسلمت فهى لك.

وهذا كله بين لنا: أثر العدالة فى ظهور الإسلام، وتبصر الناس به وتعرفهم على مميزاته، وفضله على الإنسانية.

ولايخفى أن الحاكم العادل عامل من العوامل التى تؤدى إلى انتشار الاسلام، ودخول الناس فى دين الله.

وإذا كان ماسبق أن عرضنا له: يكشف لنا عن عدل الحاكم، فان الحاكم الفقير أدهش الناس عندما رأوا لأول مرة حكاماً يفقدون أموالهم، وينزلون من صفوف الأغنياء إلى صفوف الفقراء، وكان العهد بالحاكم: أن يجمع الأموال ويزيد فى ثروته... فقد كان محمد ﷺ وكان بعض العرب يسمونه ملك الملوك: يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويبيت على الطوى، وكان له مالٌ وغنى بعد أن تزوج خديجة. قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**﴾[1]. ولكنه لم يضف شيئاً إلى هذا المال، ولم يحتفظ به، بل فقده، فلما مات كان مديناً. وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ غنياً قبل الإسلام، ثم أنفق أكثر ماله فى سبيل الله، ولما ولى الخلافة، حمل تجارته على كتفه، واتجه للسوق، يريد أن يربح رزقه ورزق أولاده.. وكان عمر -رضى الله عنه- وتحت سلطانه فارس وسوريا ومصر، يعيش فى بيت صغير، وينام فى المسجد، ويرتدى لباس الفقراء، وفقد عثمان ـ رضى الله عنه ـ ماله، مع أنه كان من أغنى تجار العرب، وأنفقه فى

(١) الضحى: ٦ ـ ٨.

سبيل الله. . . وكان على ـ رضى الله عنه ـ يقدم ماعنده من الطعام إلى المحتاجين[1].

وأدرك الفرس والشاميون والمصريون هذه الأحوال المثالية، ووازنوا بين هؤلاء الحكام، وبين الحكام الذين عرفوهم من قبل، هؤلاء الذين كانوا لاهم لهم إلا جمع المال، وحرمان الرعية[2].

ولم يكن الحاكم فقط هو الذى انتبه من غفوته وعرف ربه، ولكن المحكوم ـ أيضاً ـ انتبه من غفوته، وعرف حقه. . . وانهال الناس يدخلون فى هذا الدين الذى حقق لهم ماهو أبعد من الأحلام[3].

وتوضح لنا المراجع التاريخية: أن انتشار الإسلام ارتبط بعهود العدالة لا بعهود القسوة والقسر، فكلما جاء خليفة عادل، انتشر الإسلام، ودخل فيه الناس أفواجاً[4].

ويذكر لنا التاريخ: كيف انهال الناس على الإسلام، يعتنقونه فى عهد الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز، حتى أصبح الاسلام دين الأكثرية الغالبة بين المصريين، والفرس، وأهل الشام، وخراسان، وسكان الشمال الأفريقى وحتى أعلن كثير من ملوك السند، وملوك ماوراء النهر، دخولهم الدين الإسلامى[5].

العدل فوق العواطف والأهواء:

إن العدل شريعة الله فى خلقه، ولايمكن الوصول إلى العدل، إلا عند التجرد الخالص من العواطف والأهواء، والابتغاء الخالص لوجه الله -سبحانه-. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾[6]. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يأمر عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط، أى: بالعدل، فلا يميلوا عنه يمينا ولا

---

(١) د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى، جـ: ١، ص: ٥٥٧.
(٢) المصدر السابق ج: ١، ص: ٥٥٧.
(٣) المصدر السابق ج: ١، ص: ٥٥٧.
(٤) المصدر السابق ج: ١، ص: ٥٥٧.
(٥) د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى، جـ: ١، ص: ٥٥٧.
(٦) النساء: ١٣٥.

شمالاً، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم، ولايصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين، متساعدين، متعاضدين، متناصرين فيه[1].

إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه، فى كل حال، وفى كل مجال. القسط الذى يمنع البغى والظلم فى الأرض، والذى يكفل العدل بين الناس. والذى يعطى كل ذى حق حقه من المسلمين وغير المسلمين، ففى هذا الحق يتساوى عند الله المؤمنون وغير المؤمنين، والأقارب والأباعد، والأصدقاء والأعداء، والأغنياء، والفقراء[2].

ويذكر بعض المفسرين: أن الله قدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه:

الأول : أن أكثر الناس عادتهم: أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف، فإذا آل الأمر إلى أنفسهم تركوه، حتى أن أقبح القبيح إذا صدر عنهم، كان فى محل المسامحة، وأحسن الحسن إذا صدر عن غيرهم، كان فى محل المنازعة، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ نبه فى هذه الآية الكريمة على سواء هذه الطريقة، وذلك أنه تعالى أمرهم بالقيام بالقسط أولاً، ثم أمرهم بالشهادة على غيرهم ثانياً، تنبيهاً على أن الطريقة الحسنة أن تكون مضايقة الإنسان مع نفسه فوق مضايقته مع غيره.

الثانى : أن القيام بالقسط عبارة عن دفع ضرر العقاب عن الآخرين، وهم الذين عليهم الحق، ودفع الضرر عن النفس مقدم عن دفع الضرر عن الآخرين.

الثالث : أن القيام بالقسط فعل، والشهادة قول، والفعل أقوى من القول[3].

ويقول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**[4].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٢، ص: ٣٨٤.
(٢) سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ: ٢، ص: ٧٧٥.
(٣) الفخر الرازى، التفسير الكبير، جـ: ١١، ص: ٧٣، بتصرف.
(٤) المائدة: ٨.

يقول الشهيد ـ سيد قطب ـ رحمه الله ـ: لقد نهى الله الذين آمنوا أن يحملهم الشنان على الاعتداء، وكانت هذه قمة فى ضبط النفس والسماحة. يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوى الربانى القويم. فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن، على أن يميلوا عن العدل، وهى قمة أعلى مرتقى، وأصعب على النفس وأشق، فهى مرحلة وراء عدم الاعتداء، والوقوف عنده تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض[1].

العدل مع غير المسلمين:

إن الإسلام دين الحق والمنطق، والشريعة العادلة، والقسطاس المستقيم الذى إن احتكم إليه الناس صانوا حقوقهم، وأدوا واجبهم، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً**﴾[2]. فالله -سبحانه وتعالى- أنزل القرآن الكريم، لتحقيق الحق وبيانه لأجل الحكم بين الناس، بما أعلم الله من الأحكام، وعلى المسلم ألا يتهاون فى تحرى الحق، اغتراراً بلحن الخائنين، وقوة جدلهم فى الخصومة، حتى لا يكون المؤمن خصيماً لهم، ويقع فى مشكلة الدفاع عنهم. ويؤيد هذا: حديث أم سلمة: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىَّ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»[3]. وفى هذا من زيادة الحرص على الحق، والتشديد فيه ما لايخفى، حتى كان مجرد الالتفات إلى قول المخادع، يجب الاحتراس منه[4].

كما أن فيه إيماء: إلى أن الاعتقاد الشخصى، والميل الفطرى والدينى لا ينبغى أن يظهر لهما أثر فى مجلس القضاء[5].

قال تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[6].

---

(١) سيد قطب، فى ظلال القرآن، ج:٢، ص: ٨٥٢.

(٢) النساء: ١٠٥.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى فى عدة مواضع، كتاب الحيل، جـ:١٢، ص: ٣٣٩.

(٤) القاسمى، محاسن التأويل، جـ: ٥، ص: ١٤٧-١٤٨.

(٥) المصدر السابق جـ ٥، ص: ١٤٧.

(٦) الممتحنة: ٨.

إن الإسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجتمع الناس تحت لواء الله أخوة متعارفين متحابين، وليس هناك من عائق يحول دون اتجاهه هذا، إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله. فأما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب فى الخصومة، وهو حتى فى حالة الخصومة يستبقى أسباب الود فى النفوس، بنظافة السلوك، وعدالة المعاملة[1].

والله - سبحانه وتعالى - رخص للمسلمين فى موادة من لم يقاتلوهم فى الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم، ورفع عنهم الحرج فى أن يبروهم، وأن يتحروا العدل فى معاملاتهم معهم، فلا يبخسونهم من حقوقهم شيئاً[2].

فكانت تلك العدالة سبباً فى تمسك غير المسلمين بولاية المسلمين، والاحتماء بهم من ظلم حكام الروم والفرس، حتى «أن أهل حمص أغلقوا أبوابهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم، وعدلهم، أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم»[3].

فى العدل رشاد الأمة:

من أوجب الواجبات: الاحتكام إلى العدالة، ووجوب الانتصاف للمظلوم من الظالم، وللضعيف من القوى.

عن معاوية - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتقدس أمة لايقضى فيها بالحق، ولايأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع»[4].

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: كنا عند رسول الله ﷺ قال: «كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس، وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهن:

---

(١) سيد قطب فى ظلال القرآن، جـ: ٦، ص: ٣٥٤٤.

(٢) المصدر السابق. جـ: ٦، ص: ٣٥٤٤.

(٣) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص: ٧٩، ترجمة: : د. حسن ابراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، وإسماعيل النحاوى، ط: الثالثة، طبع ونشر: مكتبة النهضة المصرية، بالقاهرة، سنة: ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

(٤) رواه ابن ماجه فى سننه، أبواب الأحكام، باب لصاحب الحق سلطان، جـ٢، ص: ٥٩، رواه مطولاً عن أبى سعيد الخدرى، وفى آخره: لاتقدس أمة.. الحديث». وورواه الطبرانى، فى المعجم الكبير، جـ: ١٩، ص: ٣٨٥.

- ماظهرت الفاحشة فى قوم قط يعمل بها فيهم علانية، إلا ظهر فيهم الطاعون، والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم.
- وما منع قوم الزكاة، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.
- وما بخس قوم المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة وجور السلطان.
- ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله، إلا سلط الله عليهم عدوهم، فاستنقذوا بعض ما فى أيديهم.
- وما عطلوا كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1].

فأمور الناس وعلاقاتهم، والأواصر التى تربطهم، يجب أن تكون مركوزة على هذه العدالة، مضبوطة بمنطقها،، قائمة على الإنصاف والموضوعية والمنطق حتى تصان الحقوق فلا تهدر، وتحفظ الواجبات فلا تمتهن، ولايشارك فى ظلم ولايعان على باطل.

ومما لا يخفى: أن أحب الناس إلى الله -عز وجل- هم أولئك الذين يرعون العدالة، ويحتكمون إليها، ويحملون غيرهم على الأخذ بها، وإن صلاح الأمة وسداد أمرها، ورشاد حاضرها ومستقبلها، لا يتم إلا بالعدل، ولا ينهض إلا عليه.

لقد جاء الاسلام بالعدالة، ودعا إليها، وجعل شريعته أمثل منهاج لها، وأمر الحاكم، والمحكوم، بضرورة الالتزام بالعدالة، احتكاماً وتطبيقاً والتزاماً.

وهذه العدالة التى عرضنا لها فى كثير من مناحى السلوك، دفعت بالناس إلى تفهم الإسلام، والإيمان به، والدخول فيه أفواجاً، وانتشاره فى بقاع الأرض.

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه، أبواب الفتن، باب العقوبات، ج: ٢، ص: ٣٨٥. ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير، ص: ٤٥، رقم الحديث: ١٠٩٩٢. ورواه الحاكم فى المستدرك، ج: ٤، ص: ٥٤٠.

الإسلام هو الدين الوحيد الذى احتوى بين دفتيه منهجاً متكاملاً، لديه القدرة الكاملة، والشاملة على إتيان النفوس، من أبوابها الطبيعية، والتغلغل فيها عن طريق مؤثراتها الفطرية، التى لاتجد النفس السوية معها مناصاً إذا مستها إشراقات الحق والخير، من التسليم إليها، والاستجابة لها.

لقد كان الإسلام ـ ولايزال ـ دين الفطرة النقية، والتشريع السمح الذى يتسم بالسهولة واليسر، والبعد عن التشدد والتعقيد، فى كل مناحيه، ومقاصده ومراميه.

راعى الله فى الإسلام ماتقتضيه النفوس، وما جبل عليه الخلق، فجعل تكاليفه غير زائدة على قدرتهم، بل إنه من أجل مايحمله من عناصر البقاء والعموم، لجميع البشرية ترك الآصار والأغلال، التى ضربها على بنى إسرائيل، جزاء ظلمهم وعدوانهم، قال الله -سبحانه وتعالى- فى ذلك: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1].

وذلك اليسر والسهولة فى أحكامه واضح، لكل من تتبع الشريعة فى أصولها وفروعها، وقد زخر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالنصوص التى تدل على ذلك وتؤيده قال تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾[2].

(١) الأعراف: ١٥٧.
(٢) الحج: ٧٨.

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[3].

فهذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ تنطق بنفى الحرج فى مسائل الدين كلها، وتدل بوضوح على أن الله أراد أن تكون مبنية على أساس من السعة والتيسير والسماحة[4].

وإذا تصفحنا كتب السنة وجدناها تحمل وقائع كثيرة من أفعال النبى ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[5].

وأخرج الإمام أحمد: أنه ﷺ قال: «إن خير دينكم أيسره»[6]. وأن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ سألوه عن أشياء تحرجوا منها، فقال لهم: «إن دين الله ـ عز وجل ـ فى يسر» ثلاثاً[7].

وكان فى ذروة وصاياه ﷺ لقواد الجند، وأمراء الولايات: أن يعملوا على أساس من اليسر، ودفع الحرج، وتجنب التشديد، وكل ما كان من شأنه إعنات الناس، والتشديد عليهم[8].

وروى أن النبى ﷺ قال لمعاذ، وأبى موسى الأشعرى ـ حينما بعثهما إلى اليمن ـ: «يسّروا ولاتعسّروا، وبشّروا ولاتنفّروا»[9].

---

(١) المائدة: ٦.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) النساء: ٢٨.

(٤) د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الربيعة، صور من سماحة الإسلام ص١٠، ١١ ط: دار المطبوعات الحديثة بجدة سنة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٥) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الإيمان، باب الدين يسر جـ١ ص٩٣.

(٦) رواه أحمد فى مسنده، جـ٥ ص٣٢، جـ٤ ص ٣٣٨، ورواه الطبرانى فى المعجم الصغير، جـ٢ ص١٠٧، ط: الثانية، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٨هـ-١٩٨٦م.

(٧) رواه أحمد فى مسنده جـ٥ ص ٦٩، من حديث عروة الفقيمى.

(٨) د. عبدالعزيز الربيعة صور من سماحة الإسلام ص ١١.

(٩) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب العلم، باب ما كان النبى يتخولهم بالموعظة كى لاينفروا، جـ١ ص ١٦٣ وفى كتاب الأدب، باب قول النبى ﷺ «يسروا ولاتعسروا جـ٢٠ ص ٥٢٤». ورواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، جـ١٢ ص٤٢.

ولقد فهم المسلمون الأولون هذا، فدرجوا فى مسالك الكمال، وصعدوا فى مراقى العلا، يشمل الصفاء كل نواحيهم، ويعمّهم الحب والتفاهم فى تلاقيهم، فقد وجدوا فى كنف دينهم السمح حياة هادئة مستقرة، فسعدوا بظلالها الوارفة، ونعموا بأنوارها الهادية.

لقد وجدوا فى هذا الدين ضالتهم المنشودة، وجدوا فيها منهاجاً باراً، حانياً، عطوفاً، يقدم لهم كل مايطمئنهم ويثلج صدورهم، ويبعد عنهم كل مايسؤهم ويحزنهم.

اليسر روح الإسلام وشامته:

لقد شرع الله هذا الدين لعباده، فجعله سهلاً سمحاً واسعاً، ولم يجعله ضيقاً حرجاً، لتتفتح النفس البشرية من خلال مناهجه، وتنمو وتزدهر، وقد أشربت حسب عقيدته، وتعاليمه، واحترام مبادئه وآدابه، والالتزام بأخلاقه وسلوكياته، بعد أن رأت فيه الوجه الأصيل، للفطرة النقية التى فطر الله الناس عليها، من السهولة ووضوح القصد، والبعد عن كل ما من شأنه تكليف الإنسان من أمره عسراً، ووضعه فى دائرة الضيق والحرج، إذ يريد الله ـ تعالى ـ بنا اليسر، ولايريد بنا العسر، الأمر الذى يبعث النفوس على الأمل، ويحفز الهمم للنشاط والعمل.

قال الله تعالى: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾[1].

إنه على قدر الجهد يكون العمل، وعلى قدر الوسع والطاقة يكون التكليف، وعلى قدر العمل والإنتاج يكون الجزاء، فالله -سبحانه وتعالى- لطيف بعباده ورحيم بمخلوقاته، لم يكلّف البشر فوق طاقتهم، أو يفرض عليهم ما ليس فى استطاعتهم، شفقة عليهم، ورأفة بهم، ورفقاً وإحساناً، وتفضلاً منه عليهم، كما أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لايحاسب العبد إلا بناء على الواقع الفعلى، لما اقترفت يداه أو تلفّظ به لسانه، أو ما اكتسبته جوارحه عن حرية واختيار.

(١) البقرة: ٢٨٦.

أما ما لايملك دفعه من وسوسة النفس الأمارة بالسوء وهمساتها بالشرور والآثام، وما قد يعزم العبد عليه، دون أن ينفذ ماعزم عليه، فإن الله لايحاسب الإنسان على مثل هذه الأشياء تكرماً منه، وشفقة على عباده من حيث أنه لم يكلفهم ما لايطيقون ولم يؤاخذهم بما لايعلمون، قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لايكلف عباده إلا ما يستطيعون تأديته، والقيام به، ولذلك كان كل مكلف مجزياً بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فاضرعوا إلى الله أيها المؤمنون داعين: ربّنا لاتعاقبنا إن وقعنا فى النسيان، لما كلفتنا إيّاه، أو تعرضنا لأسباب يقع عندها الخطأ، ربّنا ولاتشدد علينا فى التشريع، كما شدّدت على اليهود، بسبب تعنتهم وظلمهم، ولاتكلفنا ما لاطاقة لنا به من التكاليف، واعف عنا بكرمك، وغفر لنا بفضلك، وارحمنا برحمتك الواسعة، إنك مولانا، فانصرنا يارب من أجل إعلاء كلمتك، ونشر دينك، على القوم الجاحدين[2].

ويقول ابن كثير: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لايكلف أحدا فوق طاقته، وهذا من لطفه ـ تعالى ـ بخلقه، ورأفته، وإحسانه إليهم[3]... فالله لايكلف نفساً إلا وسعها ولايحمّلها إلا ماتسعه وتطيقه ولاتعجز عنه[4].

فالإسلام ـ كما ترى ـ دين السماحة واليسر، جاء بالحنيفية السمحة، التى كانت منهجاً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وسائر الأنبياء: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[5]. لم يحرّم الإسلام علينا ما حرّمه أهل الكتاب من الأحبار والرهبان على أنفسهم وأممهم، تعنتاً وتشدداً، أو مغالاة، بل أحل الله للمسلمين الطيبات، وحرّم عليهم الخبائث، ووضع عنهم الأصر، الذى كان على الأمم السابقة، ولم

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) لجنة علماء التفسير، المنتخب من التفسير ص ٦٩.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ١ ص ٥٠٨.
(٤) القاسمى، محاسن التأويل جـ٣ ص ٧٣٤.
(٥) الأنعام: ١٦١.

يضيق عليهم، كما ضيّقوا به على أنفسهم، ولم يحل للمسلمين الخبائث التى أحلّوها لأنفسهم، لتستقيم الفطرة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

يقول الفخر الرازى: إن شريعة موسى ـ عليه السلام ـ كانت شديدة، وقوله: ﴿وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم﴾... المراد منه: الشدائد التى كانت عبادتهم[2] وقد كان الله ـ تعالى ـ حرّم على بنى إسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[3]. والحاصل أن بنى إسرائيل كانوا فيما أخذوا به من الشدة فى الأحكام، فى التوراة من العبادات، والمعاملات الشخصية، والمدنية، والعقوبات، كالذى يحمل أثقالاً يئن منها، وهو مع ذلك موثق بالسلاسل والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه... فأخذ بنى إسرائيل بالشدة فى الأحكام، وأن عيسى ـ عليه السلام ـ خفّف عنهم بعض التخفيف فى الأمور المادية، وشدّد عليهم فى الأحكام الروحية، لما كان من إفراطهم فى الأولى وتفريطهم فى الأخرى، وكل هذا وذاك قد جعله الله ـ سبحانه وتعالى ـ تربية موقوتة لبعض عباده، ليكمل استعدادهم للشريعة الوسطى العادلة السمحة الرحيمة، التى يبعث بها خاتم الرسل، الذى أوجب اتباعه على كل من أدركه من الرسل وأقوامهم[4].

لقد خلق الله الإنسان وعلم ضعفه، ومدى طاقته واحتماله، فشرع له بالقدر الميسر الذى يستطيعه، ولايشق عليه: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[5].

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[6].

---

(١) الأعراف: ١٦٠.
(٢) الفخر الرازى، التفسير الكبير، جـ ٨ ص ٢٧.
(٣) النساء: ١٦٠.
(٤) محمد رشيد رضا، تفسير المنار جـ ٩ ص ١٩٨.
(٥) الملك: ١٤.
(٦) النساء: ٢٨.

يقول الفخر الرازى: «هذا عام فى كل أحكام الشرع، وفى جميع ما يسّره لنا، وسهّله علينا، إحسانا منه إلينا، ولم يثقل التكليف، كما ثقل على بنى إسرائيل»[1].

وإرادة التخفيف عن المسلمين ـ فيما أخذهم الله به من أحكام: هى من حكمة الله ورحمته، ليس لأحد أن ينازع الله فى حكمته، أو يمسك عن عباده رحمته، لأنه لامتعلق لأحد بهذه الإرادة ولا مطلوب فيها لأحد، إنها خالصة من الله بعباده[2].

ولا يفوت الباحث: أن يعرف أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد هيّأ نبيه محمداً ﷺ وأعدّه على نحو خاص، يتواكب دائماً مع روح الإسلام ومنهاجه، فى اليسر، والسماحة، والتخفيف، ورفع الحرج، فكان خير نبى بعث بخير رسالة، لخير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾[3]. نوفقك للشريعة اليسرى، وهى: الحنيفية السمحة السهلة[4]، التى يسهل على النفوس قبولها، ولايصعب على العقول فهمها، وقد جعلت الآية الإنسان هو الميسر للفعل، وليس الفعل هو الميسر للانسان، من قبل أن الفعل لايحصل إلا إذا وجدت العزيمة الصادقة والإرادة النافذة لإيجاده مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق، التى توصل إليه[5].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الشريعة التى دعا اليها الرسول ﷺ إلا ليكون مصدر إشعاع، ومنار هداية، وموئل رحمة منه ـ سبحانه وتعالى ـ إلى عباده، تشع من جوانبه السماحة واليسر، قال تعالى: ﴿ **طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ** ﴾[6].

فالإسلام دين لاتكلف فيه ولا إعنات، ولاتنطّع، ولاتشدّد، ولقد نعى النبى ﷺ على المتنطعين، والمتزمتين، ووضح أن عبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ

---

(١) الفخر الرازى، التفسير الكبير، جـ٥ ص ٧٠.

(٢) عبدالكريم الخطيب، التفسير القرآنى للقرآن جـ٥ ص ٧٦٥، ط: دار الفكر العربى، بمصر.

(٣) الأعلى: ٦ ـ ٨.

(٤) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن جـ٧ ص ١٠٩.

(٥) مصطفى المراغى، تفسير القرآن جـ ٣٠ ص ١٢٤.

(٦) طه: ١ ـ ٣.

تقوم على الالتزام بأوامره، واجتناب نواهيه، وطاعته بالقدر الميسور الملائم لطبيعة البشر، بلا تجاوز أو تقصير فى حق الفرد، وحقوق الآخرين عليه.

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبىّ ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشىء من الدلجة[١].

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً[٢].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، قالوا: أين نحن من النبى ﷺ وقد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر.

قال أحدهم: وأما أنا فأصلى الليل أبدا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسوله الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[٣].

لقد نهى الإسلام عن الغلو فى الدين، من غير مراعاة لحق النفس، وحقوق الآخرين قال رسول الله ﷺ: «لاتغلو فى دينكم، فإنما هلك من كان قبلكم بغلوهم فى دينهم»[٤].

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الإيمان، باب الدين يسر جـ ١ ص٩٣.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى كتاب العلم، باب النهى عن اتباع متشابه القرآن جـ ١٦ ص٢٢٠.
ورواه أحمد فى مسنده جـ١ ص ٣٨٦. ورواه أبو داود فى سننه، باب لزوم السنة، جـ ٥ ص ١٥.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب النكاح، باب الترغيب فى النكاح جـ ٩ ص ١٠٤.
ورواه مسلم بصحيحه بشرح النووى، كتاب النكاح لمن تاقت نفسه إليه جـ ٩ ص ١٧٥. ورواه النسائى فى سننه، كتاب النكاح، باب النهى عن التبتل جـ ٦ ص ٦٠.

(٤) رواه أحمد فى مسنده جـ١ ص ٢١٥، ٣٤٧. ورواه ابن ماجه فى سننه، كتاب المناسك، باب قدر الحصى جـ٢ ص ١٨٣ رقم الحديث ٣٠٦٤. ورواه النسائى فى سننه، كتاب المناسك، باب التقاط الحصى جـ٥ ص ٢٦٨.

وقال ﷺ: «الإسلام متين، فأوغل فيها برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه».

ومن سماحة الإسلام ويسره: إباحة طعام أهل الكتاب[1]، ومشروعية الرفق بأهل الذمة[2]، والرحمة العامة بالناس كلهم، قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[3]... وقال «من لا يَرحم لا يُرحم»[4].

وقال ﷺ: «إن لله ـ تعالى ـ مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة فى الأرض...» الحديث[5]. وهذه نصوص صريحة عامة.

لقد بلغ الإسلام فى تسامحه أنه إذا دخل دار الإسلام حربى مشرك، فلا يجوز للمسلمين أن يتعرضوا له بسوء، بل أن مبادىء الإسلام توجب على ولى الأمر أن يأمر بحماية هذا الحربى المشرك، حتى يبلغ مأمنه، قال الله تعالى: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** ﴾[6]. وذلك حينما نقض المشركون عهدهم مع رسول الله ﷺ: أمر الله المسلمين إذا انقضت الأشهر الحرم أن يقتلوا كل مشرك، أو يأسروه، أو يحصروه، إلا من كان له عهد فعهده إلى مدته، ومن تاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة فيخلى سبيله[7].

يقول الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ: ومع هذه الحرب المعلنة على المشركين كافة، بعد انسلاخ الأشهر الأربعة، يظل الإسلام على سماحته وجديته وواقعيته. كذلك فهو لايعلنها حرب إبادة على كل مشرك، إنما يعلنها حملة هداية، كلما

---

(١) ابن قدامة، المغنى جـ ٩ ص ٣٩٠ بتحقيق محمود عبدالوهاب فايد، وعبدالقادر أحمد عطا، ط مكتبة القاهرة سنة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

(٢) د. يوسف القرضاوى، غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ص ٩-٣٠، ط مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

(٣) رواه أحمد فى مسنده، جـ٢ ص١٦٠.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الأدب، باب رحمة الولى وتقبيله ومعانقته جـ١٠ ص ٤٢٦.

(٥) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة فى مائة جزء جـ ١٠ ص ٤٣١.

(٦) التوبة: ٦.

(٧) سيد قطب، فى ظلال القرآن جـ ١٠ ص١٦٠٢.

أمكن ذلك، فالمشركون الأفراد الذين لايجمعهم تجمع جاهلى يتعرض للإسلام ويتصدى. يكفل لهم الإسلام ـ فى دار الإسلام ـ الأمن، ويأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ﷺ أن يجيرهم حتى يسمعوا كلام الله، ويتم تبليغهم فحوى هذه الدعوة، ثم أن يحرسهم حتى يبلغوا مأمنهم.. هذا كله وهم مشركون[1].

فالإسلام حريص على كل قلب بشرى أن يهتدى وأن يتوب، وحتى إذا لم يستجب المشركون، فقد أوجب الله لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون فيه على أنفسهم[2].

ولا عجب فى هذا كله، فمحمد ﷺ كان مؤسس دولة، عهد إليها الحق أن تحدث حدثاً لامثيل له فى تاريخ البشر، تسقط به دولا، وتقيم به أخرى، وتنشر فى الأرض تعاليم الإسلام، بالسماحة والتيسير على الناس.

من يسر الإسلام فى الطهارة:

لقد جاء الإسلام حكيمًا فى توجيهاته، شريفاً فى وسائله ومقاصده، نبيلاً فى أهدافه وغاياته، كريماً عندما قدّر ضعف الإنسان، وراعى ظروفه، لأنه أدرى بالمصلح له من المفسد، فتعامل معه برفق وحنان، كما يتعامل الطبيب الماهر مع مريضه على النحو الذى يكفل له السلامة، ويضمن له الصحة والعافية.

والباحث فى صفحات يسر الإسلام وسماحته، يجد جوانب متعددة، وريّا متجددا وزادا لاينفد.

فالإسلام على يسر فى كافة أحوال المسلمين وسائر شؤونهم، ليظفروا بمرضاة الله، ولتزدهر بهم شجرة الحياة، لأن كل مافوق الوسع والطاقة، لايكلّف الله به عباده، حتّى لايتطرق إليهم الملل، ولايشيع فيهم السأم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾[3].

لقد راعى الله ظروف الإنسان العارضة، وقدّر أحواله الطارئة التى تخرج عن إرادته، فنظر إلى ذلك نظرة اليسر والتسامح والتخفيف، رفعاً للإثم، ودفعاً للحرج، فأباح التيمم لعباده عند المرض، أو السفر الذى يمنع من استعمال الماء،

(١، ٢) المصدر السابق... جـ١ ص ١٦٠٢.

(٣) البقرة: ٢٩٦.

أو عند فقدانه توسعة منه على عباده، ورحمة بهم، وذلك بالصعيد الطيب، فالله -تعالى- غنى عن عباده ولايشرع لهم إلا ما فيه الخير والنفع لهم، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

فالإسلام دين السماحة، يريد للمنتسبين إليه اليسر، ولايريد بهم العسر فلقد رخص الشارع للمريض الذى يضره استعمال الماء أو المسافر الذى ليس لديه من الماء مايكفيه لطهارته، أو المنقطع فى مكان ليس به ماء: أن يتيمم صعيدا طيباً، تيسيرا من الله ورحمة بعباده. فالله -سبحانه وتعالى- مايريد ليجعل على المسلمين فيما شرعه حرجا ما، ولا أدنى ضيق، وأقل مشقة[2].

فلهذا سهّل الله على المسلمين، ويسر ولم يعسّر، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء، توسعة عليهم، ورحمة بهم[3].

وكانت الشرائع السابقة لايجوز فيها قربان الصلاة بدون تطهر بالماء، مهما كانت الظروف والملابسات، ثم إنها تشترط فى إجرائها أن تفعل فى أماكنها الخاصة بها، فجاء الإسلام دين اليسر والسماحة فخفف من وطأة تلك الأحكام، وراعى جميع الأحوال التى قد يتعرض لها المسلم، فأباح له أن يتيمم عند فقده للماء، أو خوفه على نفسه باستعماله لبرد أو مرض شديد[4].

عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً. . .» الحديث[5].

---

(١) المائدة: ٦.

(٢) مصطفى المراغى، تفسير القرآن جـ٦ ص ٦٤.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص٥٥.

(٤) د. عبدالعزيز الربيعة، صور من سماحة الإسلام ص ٣٩.

(٥) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب التيمم، جـ١.

من يسر الإسلام فى الصلاة:

لقد أراد الله لعباده اليسر والتخفيف، فأمرهم بالصلاة بالقدر الذى يتيسر لهم، وتتحمله قواهم البدنية، حتى لايسأم الناس، فيملّوا الطاعة، والناس منهم المريض، والمسافر والمجاهد، الذى لايستطيع ذلك، فخفف الله عن الجميع تفضلاً منه وتيسيراً على عباده.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ من ثُلُثَي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

فالله يعلم أنكم لن تحصوا ساعات الليل إحصاء تاماً، فإذا زدتم على المفروض ثقل ذلك عليكم، وكلفتم ما ليس بفرض، وإن نقصتم شق هذا عليكم، فتاب عليكم، ورجع بكم من تثقيل إلى تخفيف ومن عسر إلى يسر، وطلب منكم أن تصلوا ماتيسر بالليل[٢].

فلا تتجاوزوا ما قدّره لكم رحمة بأنفسكم[٣]. ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[٤].

فالسفر يفرض على صاحبه أن يسير فى برنامج غير برنامجه الذى استمرأ سلوكه فى حال الإقامة، كما أنه يفرض عليه تجشم المصاعب من الادلاج، والسهر، والتعرض للبرد، أو الحر، أو إعواز الماء، وخوف الانقطاع، فهو حينئذ ليس بمطمئن البال، ولا مستريح الجسم، ومن أجل ذلك كان السفر مظنة للمشقة

---

(١) سورة المزمل الآية ٢٠.
(٢) مصطفى المراغى، تفسير القرآن، جـ٢٩ ص١٢٠.
(٣) القاسمى، محاسن التأويل جـ١٦ ص ٥٩٦٣.
(٤) النساء: ١٠١.

والعناء، فكان جديداً بأن يحظى بنوع من اليسر والسهولة فى التكاليف، كى يستطيع المسافر القيام بها، دون إدخال له فى الحرج[1]. ولهذا ليس على المسلمين جناح أن يخففوا من كمية الصلاة، بأن نجعل الرباعية ثنائية[2].

ومن يسر الإسلام وسماحته فى الصلاة أنه قد يطرأ على الإنسان مايجعله لايستطيع أداء الصلاة المكتوبة قائماً، كما هو الحال فى الظروف العادية المألوفة، كأن يكون فى حالة خوف من عدو متربص، أو وحش مترقب، إنه فى هذه الحالة يصلى كيفما تيسر له، راجلاً أو راكباً، حيثما توجه ولاتسقط بحال. هذا إذا كان منفرداً، أما إذا كانت جماعة: فلها أحكام مبسوطة فى كتب الفقه.

قال تعالى : ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾[3].

يقول القرطبى: فكما أمر الله تعالى بالقيام له فى الصلاة بحال القنوت، وهو: الوقار، والسكينة، وهدوء الجوارح، وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة، ذكر حالة الخوف الطارئة أحياناً ويبين أن هذه العبادة لاتسقط عن العبد بحال، ورخّص لعباده فى الصلاة رجالا على الأقدام، وركبانا على الخيل والإبل ونحوهما، إيماء وإشارة بالرأس حيثما توجه. هذا قول العلماء وهذه هى صلاة الفذ، الذى قد ضايقه الخوف على نفسه، من سبع يطلبه أو من عدو يتبعه، أو سيل يحمله، وبالجملة فكل أمر يخاف منه على روحه فهو مبيح ماتضمنته هذه الآية[4].

فإن خاف المسلمون أى ضرر من القيام قانتين لله، صلّوا كيفما تيسر لهم راجلين أو راكبين، وفى هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة، وبيان أنها لاتسقط بحال، إلا حال الخوف على النفس أو المال أو العرض مظنة العذر فى تركها، كما يكون السفر عذراً فى ترك الصيام، والسبب فى عدم سقوطها على المكلف فى كل حال، أنها عمل مذكر بسلطان الله ـ سبحانه وتعالى ـ المستولى علينا، وعلى

(١) د. عبدالعزيز الربيعة، صور من سماحة الإسلام ص٥٠.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٣٤٧.
(٣) البقرة: ٢٣٩.
(٤) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ١٠٣١.

العالم كله، وما الأعمال الظاهرة إلا مساعدة على العمل القلبى المقصود بالذات، إذ من شأن الإنسان أنه إذا أراد عملاً قلبياً، يحتاج إلى جمع الفكر، وحضور القلب، أن يستعين على ذلك ببعض مايناسبه من قول وعمل.

فإذا تعذر بعض الأعمال البدنية فلا تسقط العبادة القلبية، وهى: الإقبال على الله، مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر المستطاع، ويكون ذلك حين قتال العدو، أو الفرار من أسد، فيصلى المكلف راجلاً أو راكباً إن حانت الصلاة، لايمنعه من ذلك الكرّ والفرّ، والطعن والضرب، ويأتى من أقوال الصلاة وأفعالها بما يستطيع من ركوع وسجود، ولايلتزم التوجه للقبلة[1].

فالصلاة لما كانت خير ذكر، قصر أمر الله بها المؤمن، وكلفه بأدائها على أى وجه استطاعه، والمؤمن من يجب عليه أن يذكر الله فى كل أحيانه، كما كان يفعل النبى ﷺ لأنه بذكر الله تطمئن القلوب، وبالتفكير فى ملكوته وآلائه يرسخ الإيمان، والصلاة من الذكر، فإن صلى الإنسان وكان مريضاً يشق عليه القيام، صلّى قاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنبه يومىء إيماء، فما جعل الله على المسلمين فى الدين من حرج.

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[2]. وإذا كانت الآية فى الصلاة ففقهها: أن الإنسان يصلى قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنبه[3].

ما أعظم رحمة الله بعباده، وما أجلها من رحمة، وما أيسر تشريعاته التى شملت الدين كله، فقد جمع الله فى تشريعاته السمحة بين خير الدنيا والآخرة، فأمر عباده بالضرب فى الأرض، إما سعياً على العيش الحلال، وإما جهاداً لنشر دينه وإعلاء كلمته، مع تيسير العبادة لهم فى السفر صلاة وصوماً حسب حالهم وطاقتهم.

---

(١) مصطفى المراغى، تفسير القرآن، جـ٢ ص ٢١٣.
(٢) آل عمران: ١٩١.
(٣) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن جـ٢ ص ١٥٥٣.

والنبى ﷺ كان مثالاً يحتذى لأمته فى عدم التضييق والتشديد، فلقد كانت صلاته وخطبه ومواعظه، لا بالقصيرة المخلة، ولا بالطويلة المملة، وكذلك تعلم منه، واقتدى به أتباعه ﷺ. عن عمران بن الحصين - رضى الله عنهما - قال: رسول الله ﷺ: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»[1].

وعن المغيرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «صل بصلاة أضعف القوم»[2].

وعن عائشة رضى الله عنها: أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها قال: «مه عليكم بما تطيقون... فوالله لايمل[3] حتى تملوا»[4].

فالإسلام - كما ترى -: هو المنبع الصافى، الذى يستقى منه المسلم ما يصلح حاله فى الدنيا والآخرة، مع التيسير عليه، حتى يتمكن من أداء ماكلف به على خير وجه.

من يسر الإسلام فى الصيام:

لقد راعى الإسلام السهولة واليسر، والبعد عن الغلو، والتشدد، فراعى ظروف كل إنسان فى تشريعاته الرحيمة، قوة وضعفاً، صحة ومرضاً، فصار بلا ريب دين الفطرة، بكل ماتتسع له هذه الكلمة من مضمون، ومدلول، فعندما شرع الصوم راعى ظروف المسافر والمريض، الذى يشق عليه الصوم، والمرأة إذا كانت حاملاً أم مرضعاً، والشيخ الهرم، والذين يقومون بأعمال شاقة، فخفّف عنهم، وجعل لهم من الأحكام الميسرة السمحة، مايجعلهم يشعرون بالطمأنينة والرضا، فيقبلون على طاعة الله بقلوب راضية ونفوس مطمئنة.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم تطق قاعداً فعلى جنب جـ٢ ص ٥٨٧.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى - كتاب الآذان، باب من شكى إمامه إذا طول جـ٢ ص٢٠٠.

(٣) (لايمل) أى يعطى الثواب، ولا يعجز، ولا يعرض عن العبد، ولايقطع عنه الإقبال عليه بالرحمة والاحسان. (حتى تملوا) أى تقصروا فى طاعة الله، وتعرضوا عن عبادته بعد الدخول فيها لملالة النفس. ابن حجر، فتح البارى، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه جـ١ ص ١٠٢.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله جـ١ ص ٤٢.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

فالمريض والمسافر لايصومان فى حال المرض والسفر، لما فى ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعد ذلك من أيام أخر[٢].

وصوم رمضان فى أصل مشروعيته رحمة وتيسير، وفضل وإحسان، فحينما نظر إلى هذه العبادة فى مراحلها المختلفة، وجوانبها المتعددة، نجد اليسر والسماحة صفة بارزة فيها، فالأيام التى يجب صيامها قليلة جداً، بالنسبة لأيام السنة، قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾[٣].

إن الإسلام يتسم باليسر والسماحة، مما دفع الكثير من الناس إلى الدخول فى هذا الدين، الذى جاء بالتكاليف، التى تتجاوب معها الفطرة، إذ ليس فى العقائد التى اعتنقتها البشرية على مدى تاريخها الطويل، كعقيدة الإسلام السمحة، التى انتظمت شؤون الخلق ديناً ودنياً، على أحسن نظام، وأكمل منهج، لقد راعى الإسلام فى جميع تشريعاته الضعفاء والمرضى وأصحاب الأعذار، فلم يكلفهم فوق طاقتهم، بل شرع مايناسبهم من الرخصة والتيسير والتخفيف، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٤].

فالله ـ سبحانه وتعالى: أوجب الصوم على سبيل السهولة واليسر، إذ أنه قد أوجبه فى مدة قليلة من السنة، ثم من ذلك القليل ما أوجبه على المريض، ولا على المسافر، وكل ذلك رعاية لمعنى اليسر والسهولة[٥].

---

(١) البقرة: ١٨٣، ١٨٤.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ١ ص ٢٠٦.

(٣) البقرة: ١٨٤، وانظر د. عبدالعزيز الربيعة، صور من سماحة الإسلام ص٦٢-٦٣.

(٤) البقرة: ١٨٥.

(٥) الفخر الرازى، التفسير الكبير جـ٣ ص ٩٨.

وجاء فى تفسير المنار، فى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾[1].. هذا تعليل لما قبله، أى يريد فيما شرعه من هذه الرخص فى الصيام وسائر ما يشرعه لكم من الأحكام أن يكون دينكم يسرا تاماً، لاعسر فيه، وفى هذا التعبير ضرب من التحريض والترغيب فى إتيان الرخصة، ولاغرو، فالله يحب أن تؤتى رخصه، كما تؤتى عزائمه، وذلك بأن الله لايريد إعنات الناس بأحكامه، وإنما يريد اليسر بهم وخيرهم ومنفعتهم[2].

يسر الإسلام فى تشريعاته:

لقد بنى الإسلام تشريعاته كلها على اليسر والسماحة والرحمة، ولم يقصد بتكاليفه ـ على وجه عام ـ عنتا ولا إرهاقاً، ولم يأمر بشىء فوق طاقة البشر، وإنما جعل لهم رخصاً، إذا عجزوا عن القيام بالتكاليف.

وإذا كانت آية الله قد أوضحت أن الغرض من التشريع الإسلامى هو التيسير فان سنة رسوله الله ﷺ قد واكبت دعوة القرآن الكريم، مما دفع الناس إلى النظر فى الإسلام، والبحث عنه، والدخول فيه.

روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، ألا إن الله فرض فرائض وسن سنناً، وحد حدودًا، وأحل حلالاً، وحرّم حراماً، وشرع الدين، فجعله سهلا، سمحاً، واسعاً، ولم يجعله ضيّقاً»[3].

وكل ماسبق من غير شك فرائض حتمية، له إيحاءاتها الحيوية، والمهمة، والواجبة، التى لاسبيل إلى غيرها، مما دعا الناس إلى التفكر فى الإسلام، والدخول فى عتبته.

على أن دين الإسلام رفق كله، لاحرج فيه، ولاعنت، ولا إصر، ولامشقة ولاتزمت، ولاجمود، وإنما يسر وتخفيف، وبرّ ورحمة، واستصحاب لمصلحة الخلق، واعتبار لمعاذيرهم، ورعاية لأحوالهم، فى استيعاب وشمول، وليس على المسلم الحق من شىء بعد بذل طاقته، وأداء وسعه، ولاتكليف له مطلقاً، ولا التزام فوق هذا الوسع، وهذه الطاقة.

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار جـ٢ ص ١٣٢.

(٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير، جـ١١ ص ٢١٣.

وهذا فى ذاته من خير ما يوحى بمرونة الإسلام، وفطريته، ويسره وسماحته وإنسانيته، وعدله، وقسطاسه، وقصده.

قال تعالى: ﴿ طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾(١).

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾(٢).

يقول ابن كثير : «يريد الله أن يخفف عنكم فى شرائعه، وأوامره، ونواهيه وما يقدّره لكم»(٣).

قال الإمام أحمد بسنده إلى عروة، قال: كنا ننتظر النبى ﷺ فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلمّا قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا حرج فى كذا. . . فقال رسول الله ﷺ: «إن دين الله فى يسر» ثلاثاً يقولها.

فالإسلام يفرض على المسلم - وهو يمارس شعائره - ألا يتجاوز وسطيته، فيشق على نفسه، ويكلفها فوق طاقتها، إذ أن هذا الدين متين واسع الأطراف.

وقد يؤتى المتزمت المتشدد من قبل نفسه، فتعجز عن عونه ومساعدته، وتنقطع به وسط الطريق على صورة قد لاتتفق ودين الله - عز وجل - قال ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى»(٤).

وأن الباحث ليقف على سيرة الرسول ﷺ الأسوة الحسنة، فيجدها فى سلوكه، وعاداته، وعباداته، ومعاملاته، إذ كان اليسر والتيسير والسماحة دأبه، وديدنه، الذى يلتزم به، ويوصى به أمته وأصحابه ويحذرهم من أن يتجاوزوه، ويبين لهم أن خير دينهم أيسره، وأن يكون التيسير والتبشير، وتسكين النفوس، وطمأنتها، وتهدئه خواطرها، وعدم فتنها وإفزاعها وإقلاقها، هدفاً أصيلاً من أهدافها، التى تدعو إلى انتشار الإسلام.

التيسير والسماحة فى الدعوة:

إذا كان - كما عرفنا - أن الإسلام خير كله، ويسر كله، وأن خير الدين أيسره، فإن خير الحياة أيضاً - أيسرها وأقربها إلى الفطرة، وإذا كان الله - تعالى - قد حرّم على الناس أشياء، فقد حرمها لخبثها، بينما أحل أكل الطيبات.

---

(١) طه: ١-٣.

(٢) النساء: ٢٨.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ٢ ص ٢٣٣.

(٤) رواه البخارى، فى التاريخ الكبير، جـ١ ق١، ص ١٠٣ ط دار الكتب العلمية، بيروت.

فلا ينبغى للإنسان أن يشق على نفسه، ويجنح بها إلى التضييق، والحرج، والعنت، والمشقة، ويمنعها من المباح، (يحبس عنها الطيبات التى أحل الله).

إن نفس الإنسان مطيته، إذا أحسن استخدامها، وأخذها باليسر، وعدم إعناتها، والمشقة عليها، سلمت وبقيت له تؤدى مهامها، المنوطة بها، والغايات المتوخاة منها.

ما أجل الإسلام وما أعظمه من دين، وهو يوجّه الدعاة والمصلحين، أن يحتكموا فى عملهم، ومهمتهم إلى أدب الدعوة، ومنهجها من الحكمة والموعظة الحسنة، والجدل بالتى هى أحسن، وأن يشكل الرفق والهواد واللين، إطاراً يدور هذا المنهج الربانى فى فلكه، ويلتزم به.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١].

فهذه الآية نزلت بمكة المكرمة، فى وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة[٢].

فالله سبحانه وتعالى ـ كما ترى، يأمر نبيه الكريم ﷺ بأن تكون دعوته قائمة على المنهج، الذى يمثل الكمال كله، فى غرس المعارف وتربية النفوس، ومن الدعوة بالحكمة: مراعاة مقتضى الحال، ومخاطبة كل قوم بما يعرفون، وأخذهم بالرفق، والتيسير، والسماحة، والتلطف. واختيار الوقت المناسب، للموعظة التى يراد وعظهم بها، حتى تتقبلها النفوس، وتنتفع بما فيها من خير... إن الرسول ﷺ طبيب يحمل الدواء إلى العقول والقلوب والأرواح. ومن هنا كانت مهمته عسيرة شاقة، يحتاج معها إلى بصيرة نافذة، تتدسس إلى خفايا النفس الإنسانية، وتضع يدها على موضع الداء، ثم تختار من الدواء ما يشفى العلة، ويذهب الداء[٣].

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ٤ ص ٣٨١٦.

(٣) عبدالكريم الخطيب، التفسير القرآنى للقرآن، جـ١٤ ص ٣٩٨.

وإذا كان منهج الدعوة ليس إلا من صنيع الحق - تبارك وتعالى - ومن تنزيله، فلقد كان الوحى يوجه الرسول ﷺ إلى أحكم آدابه، وأمثل أساليبه مع المدعوين، وذلك بأن يفتحوا لهذا الدين قلوبهم، ويجيلوا فيه عقولهم، ويستلهموها صواب الفكر، ورشاد الموقف، وحيدة النفس، فى روية وأناة، من غير انغلاق، ولاتحجر، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾[١].

وإنما طلب منهم التفكير، وهم متفرقون اثنين اثنين، أو واحداً واحداً، لأن فى الازدحام تهويش الخاطر، والمنع من أطالة التفكير وتخليط الكلام، وقلة الإنصاف[٢].

والآية الكريمة تكشف عن أسلوب الدعوة الإسلامية، القائم على مواجهة العقل ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، وإعطائه حقه فى طلب الدليل المقنع، والبرهان الواضح ثم الاعتراف له بما يقتضى به بعد النظر السليم، المجرد من الهوى، المبرأ من التحدى والعناد.

فهذه رسالة الإسلام فى الإنسانية، أنها تريد أولاً وقبل كل شىء: أن تحرر العقل من العادات الفاسدة، والمعتقدات الباطلة، التى استولت عليه، وشلّت إرادة التفكير فيه، فإذا تحرر العقل من هذه الآفات، وتخلص من القيود، فقد كسب نصف المعركة فى صراعه مع الباطل، ثم كان عليه بعد هذا: أن يكسب النصف الآخر، حتى يتخلص من الضلال ويخرج من عالم الظلام على عالم الهدى والنور وهو أن يدير عقله على هذا الوجود، وإن ينظر فيه بعقله المتحرر، فإنه إن فعل، فلا بد أن يهتدى إلى الله، ويتعرف إليه، ويؤمن به[٣].

قال تعالى: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مسلمون**﴾[٤].

---

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) مصطفى المراغى، تفسير القرآن، جـ ٣٢ ص٩٦.

(٣) عبدالكريم الخطيب، التفسير القرآنى للقرآن، جـ٢١ ص٨٣٨.

(٤) العنكبوت: ٤٦.

والمعنى - كما يقول الآلوسى -: ولا تجادلوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، إلا بالتى هى أحسن، أى بالخصلة التى هى أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، والتسرع بالأناة[1] فلا تجادلوا من أراد الاستبصار فى الدين، إلا باللين والرفق[2].

ولقد كان رسول الله ﷺ أحرص الناس على تبليغ الإسلام، وأحناهم على تبليغ الدعوة، ببذل قصارى جهده فى الدعوة إلى الله، ونشر دينه فى الآفاق، رغبة فى هدايتهم وإيمانهم، وكان يتوسل إلى ذلك بشتى صنوف القول، الذى يتفجر بالرفق، ويفيض باللين، ويشع بالحرص ويتألق بالرغبة الأكيدة فى هدايتهم.

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: لما أنزل الله - عز وجل - ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾[3]. أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه، ثم نادى: ياصباحاه[4]. فأجتمع الناس اليه بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يابنى عبدالمطلب، يابنى فهر، يابنى لؤى: أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى؟» قالوا: نعم قال: «فأنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد»[5].

ولقد كان رسول الله ﷺ ثاقب النظرة، بعيد الأفق وهو يرسل أول مبعوث فى الإسلام، وأول داعية له، وسفير إلى المدينة المنورة، عقيب إسلام أول طلائعها، إذ تحرى أن يكون هذا الموقف على مستوى الدعوة، وكان مصعب بن عمير خير من وقع عليه هذا الاختيار النبوى الأمثل، الذى صادف أهله وقام بمهمته فى الدعوة خير قيام، متوسلاً إليها برفقه، وتحمله، وأناته.

---

(١) الآلوسى، روح المعانى، جـ٦ ص ٤١٦، ط، دار الفكر العربى ببيروت، مصطفى المراغى، تفسير القرآن جـ ٢١ ص٥.

(٢) مصطفى المراغى، تفسير القرآن جـ ٢١ ص٥.

(٣) الشعراء: ٢١٤.

(٤) ياصباحاه: كلمة تقولها العرب إذا صاحوا للغارة، لأنهم أكثر مايغيرون عند الصباح، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح، كما يقولونها عند وقوع أمر عظيم، ليجتمعوا ويتأهبوا له. وانظر شرح النووى على صحيح مسلم، جـ٣ ص ٨٢. وابن منظور، لسان العرب، جـ٢ ص ٥٠٥ مادة (صبح).

(٥) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب التفسير، باب: «وانذر عشيرتك الأقربين» جـ ٨ ص ٥٠١.

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير، يريد به دار بنى عبد الأشهل، ودار بنى ظفر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد ابن زرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر، فجلس فى الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلموا، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل ـ وكلاهما مشرك على دين قومه- فلما سمعا به، قال سعد ابن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا، ليسفه ضعفاءنا، فازجرهما، وأنههما عن أن يأتيا دارينا، فأنه لولا أن سعد ابن زرارة، منى حيثما قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدماً. فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلمّا رآه سعد بن زرارة، قال لمصعب: أن يجلس أكلمه، فوقف عليهما، فقال: ماجاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا، إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وأن كرهته كف عنك ماتكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا: والله لقد عرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن نتكلم، فى إشراقه، وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام، وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر، وتطّهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى، فقام واغتسل، وطهر ثوبه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين. ثم قال لهما: إن ورائى رجلاً إن تبعكما، لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته، وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: نفعل ما أحببت. وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى سعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، فقام سعد مغضباً مبادراً، تخوفا للذى ذكره له من بنى حارثه، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لسعد بن زرارة: يا أبا أمامة: أما والله لولا مابينى وبينك من القرابة مارمت هذا منى، أتغشانا فى ديارنا بما نكره؟ ـ وقد قال سعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب جاءك والله سيد

من وراؤه من قومه أن يتبعك لايتخلف عنك منهم اثنان - فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه، قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ماتكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة، وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتهم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، فقام فاغتسل وطهر ثوبه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادى قومه، ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يابنى عبدالأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم، قالوا: سيدنا وأوصلنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قالا: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبدالأشهل رجل وأمرأة إلا مسلماً ومسلمة ورجع سعد ومصعب إلى منزل سعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[1].

وهكذا يفعل الدين الإسلامى إذا تغلغل فى الأرواح، ونفذ سلطانه فى أعماق النفوس، وامتلك القلوب[2].

ومن هذا يتبين لنا سرّ سرعة انتشار الإسلام ودخول الناس فيه، فقد وضح ما ذكره ابن هشام فى سيرته: أن الناس كانوا يأتمرون بأمر رسول الله ﷺ ويدعون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، فاستجاب لهم الناس، وتفتحت قلوبهم لهذا الدين القيم، الذى جاء من عند الله.

التيسير فى التقوى:

علّم الإسلام الناس: أن من حق النفس على صاحبها: ألا يرهقها، ولا يكلفها من أمرها عسراً، وألا يضطرها إلى الشطط، والتجاوز والخروج عن الجادة بتكليفها ما لا تطيق وما ليس فى وسعها.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ٣ ص ٤٣-٤٦.

(٢) عائض القرنى، شباب عادوا إلى الله ص ١٣ ط الأولى، مطبعة سفير، بالرياض سنة ١٤١٠هـ-١٩٨٩ الناشر: مؤسسة الجريسى.

ومن الصعب الباهر: أن الإسلام يلتقى بتشريعاته، وتكاليفه مع هذا الحق، فرغب فى تلبيته، وحذّر من مخالفته، ونهى عن كل ما لايستجيب له، ولو كان هذا فى نطاق الطاعة والعبادة.

فالإسلام دين اليسر والسماحة، لا يمكن أن تلمس معه حرجاً، أو مشقة فى أى جانب من جوانبه، عقيدة وشريعة، وعبادات، ومعاملات. قال تعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[١].

فاتقوا الله فى حدود ماتحمل أنفسكم، وماتتسع طاقتكم له، لأن هذا الدين سهل سمح، لاينتفع به، إلا إذا أخذ سمحاً سهلاً، تتقبله النفوس، وتنشرح له الصدور، شأنه فى هذا شأن الطعام، لايفيد منه الجسم، إلا إذا طابت له النفس، واشتهته، واستساغت طعمه، واستطابت مضغه وبلعه[٢].

فالإسلام دين واقع، ودين رحمة، وعدل وإحسان وتيسير وسماحة، لايرى إلا أنهم بشر تتحكم فيهم نوازع وعواطف، وتعرض لهم عوارض الضعف ويلحهم ما يلحق الكائن الحى.

فقوله تعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ هو الميزان الذى يقيم عليه المؤمن أمر دينه كله، وأن يتقى هذه الفتن التى تهب عليه من كل جهة يتقيها بقدر ما يملك من قوة، ومايتحمل من جهد، لأن كل نفس لها طاقة من الاحتمال، ولها قدر من القوة، وأنه على طاقتها وقوتها تحاسب، فتجزى بما كسبت، وعلى ما أكتسبت[٣].

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهمًا ما لم يكن أثماً، كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله ﷺ إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها»[٤].

---

(١) التغابن: ١٦.

(٢) عبدالكريم الخطيب، التفسير القرآنى للقرآن جـ ١٧ ص ١١٠٥.

(٣) المصدر السابق، جـ ٢٨ ص ٩٩٢.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب المناقب، باب صفة النبى ﷺ جـ ٦ ص ٥٦٦.

يقول ابن حجر شارح الحديث: فيه الحث على ترك الأخذ بالشيء المعسر والاقتناع بالميّسر، وترك الإلحاح فيما لايضطر إليه، ويؤخذ من ذلك الندب إلى الأخذ بالرخص، ما لم يظهر الخطأ(١).

ولقد كان صلوات الله وسلامة عليه، القدوة فى التوجيه والتربية، على القصد، والتيسير، والتوسط، والاعتدال، فما أعرض عن أمر إلا لحكمة، تتمثل فى رغبته فى أن يرفق وييسر على أمته فى كل أمورهم.

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «دعونى ماتركتم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه وما أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم»(٢).

قال ابن حجر: قال النووى: هذا من جوامع الكلم، وقواعد الإسلام، ويدخل فيه كثير من الأحكام كالصلاة لمن عجز عن ركن أو شرط، فيأتى بالمقدور، وكذلك الوضوء، وستر العورة، وحفظ بعض الفاتحة، وإخراج بعض زكاة الفطر لمن لم يقدر على الكل.

وكان ﷺ كثيراً ما يركز على أن خير الطاعة، وأكثرها قبولاً، ما كانت يسيرة، سهلة، سمحة، لاحرج فيها، ولامشقة، ولاتزمت، وإن القصد والتوسط ينبغى أن يكون هدف المسلم، وغايته. قال رسول الله ﷺ: «إن خير دينكم أيسره».

وبعد هذا الذى عرضنا له فى إيجاز: نجد أن مجالات السماحة واليسر فى الإسلام تتصل بكل أمورنا، وفى جميع مايتصل بنا: فى الدين، والدعوة، والعادة، والعبادة، والحكم، والعمل، والنفس، والأسرة، والمجتمع، والسلم، والحرب، وغير ذلك مما له بنا اتصال.

حقا إن الإسلام دين السماحة واليسر، لايشق على الناس، ولايكلفهم من أمرهم عسراً، فى مطعمهم ومشربهم، وعباداتهم، وسائر أساليب حياتهم.. إنه ـ دائماً ـ يضفى على الداخلين فيه هالة، قوامها النبل، والسمّو والترفع، والعطاء،

(١) ابن حجر، فتح البارى، جـ٦ ص ٥٦٧.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ جـ١٣ ص ٢٥١.

والتسامح، واليسر والرحمة.. وأن تكون نفوسهم فى الذرا، وأيديهم فى العليا يوثقون عراهم بمجتمعهم، وينقلون على متون سلوكهم وواقعيتهم موارث دينهم، وتبعات تكاليفهم، ومقاليد مابين أيديهم من أمانة الحق، إلى من خلفهم حتى تظل كلمة الله موصولة فى البشر.

* * *

الوضــوح

الوضوح سمة من سمات الإسلام، دفعت الناس إلى إدراك مزايا هذا الدين، الذى جاء بالمنهاج الربانى، الذى أنزله الله ـ سبحانه وتعالى ـ على رسوله محمد ﷺ، ليبلغه للناس أجمعين، وليبينه لهم، ولتختم به الرسالات.

وهذا المنهاج هو من عند الله وحده، وهو إما وحى يتنزل على الرسول محمد ﷺ بالمعنى والنص، أو الهام من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله ونبيه بالمعنى، يصوغ الرسول ﷺ هذا المعنى بأسلوبه النبوى.

وبذلك يكون المنهاج الربانى هو القرآن الكريم، وماصح من حديث الرسول ﷺ.

وهذا المنهاج ـ على هذه الصفة ـ يتميز عن كل مايمكن أن يضعه البشر من مناهج وضعية بصفات تبرز علوه وربانيته[1].

ومن هنا كان الوضوح فى هذا المنهاج صفة أساسية فى هذا المنهاج، الذى جاء به الخالق لإصلاح حال الخلق. ولهذا سمى الله ـ عز وجل ـ القرآن الكريم: تبيانا وبينات لأن فى القرآن العزيز الهدى والشفاء والبيان البين الجلى.

فى القرآن بيان لكل مايحتاجه بنو الإنسان، فى حياتهم الاجتماعية، بأروع عبارة، وأجمل أسلوب، وأبين بيان.

وفى القرآن بيان كل شىء من البداية إلى النهاية، حتى يستقر أهل الجنة بنعيمهم، وأهل النار فى جحيمهم[2].

فمعرفة الله، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومايجب له -تعالى-، وما لايجب والعقيدة الإسلامية، وأحكام العبادات والمعاملات، وجميع الشؤون الاجتماعية، والأحوال الشخصية، وكل ماتحتاجه المجموعة البشرية، فى كل زمان ومكان، وأحكام المعاد والبعث، والنشور، والحساب والجزاء، والعقاب وغير ذلك هو موضوع ومبين فى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ[3].

---

(١) عدنان النحوى، دور المنهج الربانى فى الدعوة الإسلامية، ص٢٧ ط: دار الاصلاح السعودية.

(٢) صالح بن إبراهيم البليهى، الهدى والبيان فى أسماء القرآن، جـ١ ص: ٢٠٠، ط: المطابع الأهلية بالرياض.

(٣) المرجع السابق، نفس الجزء ص ٢٠٠-٢٠١.

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الآيات البينات، والمبينة، مما يشير صراحة وضمنا، وجملة وتفصيلاً إلى أهمية الوضوح، ودوره فى الإسلام بين الناس.

ويقال: بان، واستبان، وتبين، وقد بينته. قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ ...وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ... ﴾[1].

﴿ ...وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ... ﴾[2].

﴿ ...قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ... ﴾[3].

﴿ ...قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَات... ﴾[4].

﴿ ...وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ... ﴾[5].

﴿ ...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ... ﴾[6].

﴿ ...لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ... ﴾[7].

﴿ ...فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَات... ﴾[8].

﴿ ...هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ... ﴾[9].

﴿ ...وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ... ﴾[10].

ويقال آية مبيَّنة ـ بتشديد الياء مع فتحها ـ وآية مبيِّنة ـ بتشديد الياء مع كسرها ـ وآيات مبينات، ومبينات. والبينة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسومة. والبيان: الكشف عن الشىء، وهو أعم من النطق، مختص بالإنسان، ويسمى ما بين به بيانا[11].

---

(١) العنكبوت: ٣٨.
(٢) الأنعام: ٥٥.
(٣) البقرة: ٢٥٦.
(٤) آل عمران: ١١٨.
(٥) إبراهيم: ٤٥.
(٦) النحل: ٤٤.
(٧) النحل: ٣٩.
(٨) آل عمران: ٩٧.
(٩) البقرة: ١٨٥.
(١٠) الزخرف: ٦٣.
(١١) الراغب الأصفهانى، المفردات فى غريب القرآن ص ٦٨-٦٩.

قال بعضهم: البيان يكون على ضربين:

أحدهما: بالتنجيز، وهو الأشياء التى تدل على حال من الأحوال، من آثار صنعه.

وثانيهما: بالاختيار، وذلك إما أن يكون منطقاً، أو كتابة، أو إشارة[1].

وتستعمل البينة فيما يبين الشىء ويوضحه حسياً كان الشىء أم عقلياً، والمبين تارة من (أبان) اللازم، بمعنى: الظاهر الواضح، وذلك فى كل ما هو صالح لأن يوصف بالظهور والوضوح فى نفسه. وتارة من (أبان) المتعدى، بمعنى مظهر وموضح، وذلك فى كل مايصلح أن يوصف بأنه مظهر لغيره، وموضع له[2].

وسمى الكلام بياناً، لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره نحو قوله تعالى: ﴿ . . .هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ. . . ﴾[3].

وسمى مايشرح به المجمل والمبهم من الكلام بياناً، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[4].

ويقال بينته وأبنته: إذا جعلت له بياناً تكشفه[5]. نحو قوله تعالى: ﴿ . . .لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ. . . ﴾[6].

ومادة (بان) باشتقاقاتها، وتصريفاتها، وأسمائها، وأفعالها، تمتد فتشمل الكثير من الآيات البينات[7]، مما يبين لنا أن الوضوح خصيصة من الخصائص العامة للإسلام، وفى إمكان الباحث أن يتبين الوضوح فى كل ماجاء به الإسلام، ومن شأن الإنسان أن يدركه.

ومن هنا: كان علينا أن نعرض للوضوح فى الأصول، والقواعد، والمصادر والمنابع، والمناهج، والوسائل، والأهداف، والغايات، وتلك أمور تغطى حاجة الانسان وحركته فى الحياة.

---

(١) كذا بالأصل.
(٢) مجمع اللغة العربية، معجم الفاظ القرآن الكريم، جـ١ ص١٤٠-١٤٣ ط: دار المعارف بمصر.
(٣) سورة آل عمران الآية رقم ١٣٨.
(٤) سورة القيامة الآية ١٩.
(٥) الراغب الأصفهانى المفردات فى غريب القرآن ص ٦٩ باختصار.
(٦) سورة النحل الآية ٤٤.
(٧) محمد فؤاد عبدالباقى، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ١٤١-١٤٥.

وضوح الأصول والقواعد:

إن أصول الإسلام ودعائمه الكبرى واضحة بينة لكل الناس، وقد تضمن القرآن الكريم حقائق أساسية كبرى، عرضها الناس، وأيدها بالأدلة والشواهد ودعا إلى تصديقها، والإيمان بها، وكرر ذكرها بأساليب شتى، وطرق متعددة[١].

وضوح التوحيد:

توحيد الله ـ تعالى ـ وهو أصل الأصول، لايجهله مسلم أيا كان جنسه أو لونه، أو طبقته، أو حظه من التعليم، فقد عرف من كلمة التوحيد، وأولى الشهادتين، أن لامكان فى الإسلام لتأليه بشر أو حجر، أو شىء فى الأرض أو فى السماء، بل لله من فى السموات ومن فى الأرض، وما فى السموات وما فى الأرض[٢].

ولهذه كانت رسالة محمد ﷺ إلى ملوك الأرض وزعمائها: ﴿ **تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ...** ﴾[٣].

إن قضية التثنية فى الألوهية: آله الخير، وآله الشر والظلمة، وقضية التثليث فى الوثنيات القديمة، أو فى المسيحية المتأثرة بها، لاتتمتع واحدة منها بالوضوح لدى المؤمنين بها[٤]. وأنظر وتأمل قول أحد علماء النصرانية: «تجمع عقيدتنا المسيحية بين التثليث والتوحيد، ولذلك فإننا نؤمن بوحدانية ذات الله وأنه تعالى ثلاثة أقانيم»[٥].

«نعم يحار المسيحيون فى هذا السر العظيم عند محاولتهم إدراكه، ولكنهم بنعمة الإيمان يخضعون عقولهم المحدودة، لاعلاناته السامية، ولايجرؤون على اخضاع السر نفسه لمستوى العقل الضعيف، وليس هذا بغريب، فقد قال أحد علماء المسيحية: لماذا أقلق من جهة أسرار المسيحية؟ ونحن محاطون بالأسرار،

---

(١) محمد المبارك، العقيدة فى القرآن الكريم ص٩ ط: دار الفكر العربى ببيروت سنة ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

(٢) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام، ص ١٧٧.

(٣) سورة آل عمران الآية ٦٤.

(٤) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام، ص ١٨٧ باختصار.

(٥) القس صموئيل مشرقى، الإلهيات، ص ٨٤، ط. الثانية، الكنيسة المركزية بمصر، سنة ١٩٨٧م.

وكل واحد منا يؤمن بأمور كثيرة لايفهمها، فالتثليث والتجسيد والصليب والقيامة، بل العناية الإلهية والأبدية نفسها، كل هذا من أعمق الأسرار ولايتعبنى مطلقاً عدم اقتدارى حل هذه الغوامض»[1].

أرأيت الغموض الذى يلف عقائد النصرانية، أنه غموض يتنافى مع أبسط مبادىء العقل، وهذا بخلاف قضية التوحيد، فهى فى الإسلام تستند إلى العقل، وتعتمد على البرهان، قال تعالى: ﴿ ...أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]. ﴿ ...وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3]. ﴿ ...لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا...﴾[4]. ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً...﴾[5].

والاسلام جاء بالتوحيد، الذى هو أسمى العقائد الإلهية وأجدرها إدراكاً من قبل الإنسان المتمتع بأرفع حالاته العقلية، وكان على الإسلام حين ظهوره: أن يصحح أفكاراً كثيرة عن الذات الإلهية، ناجمة عن أخلاط شتى من مؤثرات العبادات الوثنية والكتابية، وما رافقها من تأويل، فتضمنت آياته تصحيح العقول وتوجيهها الوجهة السليمة، لتقرير ماينبغى للذات الإلهية من كمال موزون بقسطاس الإيمان، وقسطاس النظر والقياس[6].

لقد جاء القرآن الكريم فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ماسبقه من الكتب المقدسة، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه، ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه[7].

فالتوحيد ـ فى حد ذاته ـ قضية واضحة فى ضمير كل مسلم، ودليلها ـ أيضاً ـ واضح فى فكره، كما أن أثر هذه واضح فى حياته[8].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٠.
(٢) النحل: ٦٤.
(٣) المؤمنون: ٩١.
(٤) الأنبياء: ٢٢.
(٥) الإسراء: ٤٢.
(٦) مؤيد الكيلانى، كيف انتشر الإسلام؟ ص ٢٧٦.
(٧) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام، ص ١٧٨.
(٨) المرجع السابق، ص ١٨١ بتصرف.

لذا جاءت عقيدة الإسلام -كما بينها القرآن الكريم- واضحة بينة مما دعا الناس إلى تفهمها بوضوح، لقد دعا القرآن الكريم، الإنسان إلى الإيمان بالله، منطلقاً من الإنسان وبيئته بالمعنى الواسع، أى: من الطبيعة التى يعيش فيها، والكون الذى يحيط به، وعلى هذا احتوى القرآن الكريم على آيات كثيرة جداً فى كثير من سوره، تضمنت صوراً من الطبيعة، ومشاهد الكون ليطرح قضيتين كبيرتين:

القضية الأولى : قضية بداية الخلق، أو الخلق الأول، أو النشأة الأولى وقد عبر القرآن الكريم بكل هذه التعابير، وطرح هذه القضية فى مواطن كثيرة.

القضية الثانية : قضية التنظيم والتقدير، أى: ربط أجزاء الكون بعضها ببعض، وتسييرها وفقاً لخطط مقدرة، وسنن مطردة(١).

ومن مظاهر ووضح الأصول والقواعد فى الإسلام: أن أركان الإسلام العملية وشعائره التعبدية، واضحة للخاص والعام، وذلك أن الإسلام يسلك بالناس أسهل السبل وأهداها، وأدناها، إلى فطرة الإنسان وأقربها إلى طبيعته وأحواله.

فالصلاة ـ وهى الفريضة اليومية ـ معروفة بعددها، ومواقيتها، وأعداد ركعاتها، وأركانها، وشروطها، ومجمل هيئاتها، من بدء افتتاحها بالتكبير إلى اختتامها بالتسليم، ثم ماوراء هذه الفرائض من نوافل، ومكملات فى الليل والنهار، وما شرع لها من آذان وجماعة، يزداد ثوابها كلما كثر أفرادها، لتعمر بها بيوت أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه(٢).

وكما فرض الإسلام الصلاة، كصلة متكررة دائمة، كذلك نظم الإسلام فريضة الزكاة، كصلة بالله، وجعلها عبادة مادية، روحية، يؤديها المسلم من ماله الخاص، وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ﴾(٣).

---

(١) محمد المبارك، العقيدة فى القرآن الكريم ص١١.

(٢) محمد المبارك، العقيدة فى القرآن الكريم ص١٨. وفى كلام المؤلف: مايشير إلى قول الله -عز وجل- فى النور: ٣٦ ﴿ **فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** ﴾. ولم يذكر المؤلف نص الآية على المنهج البلاغى التضمين والاقتباس فى الآيات والأحاديث والحكم، دون تنصيص عليها وهناك من يسميه: ترصيع الأسلوب.
ابن الاثير، المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، جـ٣ ص٢٠٠-٢٠٥ قدم له وحققه وعلق عليه د. أحمد الحوفى، د. بدوى طبانة، ط: نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.

(٣) المعارج: ٢٤، ٢٥.

وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[1].

وفريضة الزكاة واضحة بينه لدى كل من دخل الإسلام.

وصيام رمضان ـ وهو الفريضة السنوية الدورية ـ معلوم لكل المسلمين، فهو شهر قمرى، محدود البداية والنهاية، ووقت الصيام كل يوم معلوم من بين الفجر إلى غروب الشمس[2]. والصوم هو الإمساك عن الطعام والشراب، والمعانى الجنسية[3]. ومع مظهر الصيام المادى الذى يبدو فى الإمساك عن الطعام والشراب والشهوات، هو: عبادة روحية لها آثارها المعنوية[4]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ...﴾[5].

وفريضة الحج واضحة، معلومة شعائرها للمسلمين: من التجرد من المخيط، والمفصل، والطواف ببيت الله الحرام، ورمى الجمار، وذبح الهدايا[6].

فالعبادات من صلاة وزكاة وحج وصوم، وإن اختلفت صورها ومقاديرها وأوقاتها، تلتقى عند غاية واحدة، وهى تحقيق معنى العبودية لله[7]... وهى جميعها واضحة تمام الوضوح فى ذهن المسلم بتركيز وإجمال[8].

ومن مظاهر الوضوح فى الإسلام: أن له مصادر محدودة بينة، كانت منبع الهداية والإرشاد، ومصدر التشريع والأحكام، فى العقائد والأخلاق والآداب والفضائل.

والمصدر الأول: هو كتاب الله القرآن الكريم، الذى ﴿...فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[9].

---

(١) الذاريات: ١٩.
(٢) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام ص ١٨١.
(٣) محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام ص ٣٤٧.
(٤) نفس المصدر ص ٣٥٩.
(٥) البقرة: ١٨٣، ١٨٤.
(٦) محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام ص ٣٨٥.
(٧) نفس المصدر ص ٣٨٧.
(٨) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام ص ١٨٢.
(٩) فصلت: ٣.

ومن سمات هذا القرآن: أنه فصلت آياته، وأنه مفصل.

«والتفصيل هو التوضيح والتبيين. فالقرآن سور محكمات، والسور آيات، والآيات حروف وكلمات، والجميع مفصل، فصله الله ـ جل شأنه ـ آيات القرآن فصلها ـ تعالى ـ تفصيلاً متقناً، بينا، واضحاً، جليا، فلا غموض ولاخفاء، ولا لبس فيها، آيات بينات الدلالة، واضحات المعانى، فليس بألغاز، ولا رموز ولا أحاجى، آيات مفصلات، هى مصادر الحكم والأحكام، وينبوع العلوم والعرفان»[1].

قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ ...**وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[5].

وقال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[6].

ومن سمات القرآن الكريم: أنه نور «ينير الطريق للسالكين» نور يهتدى به كل تائه وحيران، أشعته مترامية فوق دنيا البشر، نور وهاج يضمحل به اللجاج والحجاج»[7].

---

(١) صالح بن إبراهيم البليهى، الهدى والبيان جـ١ ص ٢٠٦.
(٢) الأنعام: ٩٧.
(٣) الأنعام: ٩٨.
(٤) الأعراف: ٥٢.
(٥) التوبة: ١١.
(٦) الأعراف: ١٧٤.
(٧) صالح البليهى، الهدى والبيان فى أسماء القرآن، جـ١ ص ٢١٦.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾[1]. يقول القرطبى: النور المنزل هو القرآن، وسماه نورا، لأن به تتبين الأحكام، ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أى: واضح بين[2] ومن سمات القرآن: أنه برهان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3]. والبرهان: مايبرهن به عن المطلوب، وهى الحجة الواضحة الصحيحة[4] وجاء فى معظم ألفاظ القرآن الكريم: أن البرهان الحجة الفاصلة البينة[5] ويقول العلماء: أن البرهان أوكد الأدلة، وهو الذى يقتضى الصدق أبداً لا محالة[6].

ومن سمات القرآن الكريم: أنه مبين، وبينة، وتبيان، وما ذلك إلا لشدة وضوحه، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[7].

ومن سمات القرآن الكريم: أنه فرقان، لأنه ـ جلا وعلا ـ فرق به بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين الغى والرشاد، وبين الحلال والحرام، وبين الخير والشر، وبين السعادة والشقاوة، وبين المؤمنين والكافرين وبين الصادقين والكاذبين، وبين العادلين والظالمين، بأدلة القرآن وحججه وبراهينه[8].

والمصدر الثانى من المصادر البينة الواضحة: هو السنة النبوية والسنة هى: ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف[9]، وهى مبينة للقرآن الكريم وشارحة له، تفصل مجمله وتوضح مشكلة، وتقيد مطلقه، وتخصص عامه، وتبسط مافيه من إيجاز[10].

---

(١) النساء: ١٧٤.
(٢) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، جـ٢ ص٢٠٢٣.
(٣) النساء: ١٧٤.
(٤) صالح البليهى، الهدى والبيان فى أسماء القرآن، جـ٢ ص٦٠.
(٥) مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم جـ١، ص٩٤.
(٦) الراغب الأصفهانى، المفردات فى غريب القرآن، ص٤٥.
(٧) النحل: ٨٩.
(٨) صالح البليهى، الهدى والبيان فى أسماء القرآن، جـ٢ ص ٣٧.
(٩) محمد على أحمدين، مقدمة ضوء القمر على نخبة الفكر لابن حجر، ص ١٤ ط. وزارة المعارف بمصر، سنة ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م.
(١٠) د. محمد أبو شهبة، دفاع عن السنة، ص١١، ط. الأزهر.

قال تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2]. فالبيان خاص به ﷺ يبين تارة بالقول، وتارة بالفعل، وتارة بهما[3].

ومن خصائص الإسلام: وضوح مناهجه ووسائله وطرقه التى توصل إلى غاياته المثلى، وأهدافه العليا، ولهذا كانت عبادة الله فوق ماتقوم به من صقل النفس، فإنها تعمل على التأصيل لجوهر الفطرة، ومتابعة بعثها لضمان استمرار حركتها، وعملها، وسعيها مع الله. كل ذلك فى إطار ما يحتوى الطاعة من منهج يومى وقويم، بصفة دائمة من غبش الفجر، إلى غسق الليل، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[4]. فى أول النهار وآخره، بكرة وأصيلا، وفى ساعات الليل المتداخلة فى النهار، وساعات النهار المتداخلة فى الليل[5].

وقال تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[6]. صدقة بمقدار معين فى الزكاة المفروضة، أو بمقدار معين فى زكاة التطوع، تطهرهم من دنس البخل والطمع والقسوة على الفقراء والبائسين[7].

فالعبادات من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، تزكى النفس، وتربى الإرادة، وتوحد الاتجاه، وتدرب الإنسان على كمال العبودية لربه الأعلى، الذى خلق فسوى، وهى عبادات محددة، لا تقبل الابتداع، ميسرة لاتقبل التزمت، معتدلة لا

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) النحل: ٦٤.

(٣) د. محمد أبو شهبة، دفاع عن السنة، ص١١.

(٤) هود: ١١٤.

(٥) محمد القاسمى، محاسن التأويل، جـ٩، ص ٤٣٩٤، ط. عيسى البابى الحلبى بمصر، سنة ١٣٧٦هـ-١٩٥٨م.

(٦) التوبة: ١٠٣.

(٧) مصطفى المراغى، تفسير القرآن، جـ١١، ص ١٦، بتصرف، ط. مصطفى الحلبى بمصر، القاهرة سنة ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.

تقبل التطرف، عميقة تهتم بالجوهر قبل المظهر، وقد نوع الإسلام فيها، فبعضها بدنى، كالصلاة والصيام، وبعضها مالى كالزكاة، وبعضها يجمع بينهما كالحج والعمرة[1].

ومن هذه العبادات: مايتكرر كل يوم، كالصلاة، ومنها مايتكرر كل سنة كالصيام والزكاة، ومنها ما لايفرض فى العمر إلا مرة واحدة كالحج.

ومن هذه العبادات: ماهو فعل إيجابى، كالصلاة، والزكاة، والحج ومنها ما هو مجرد ترك وكف وامتناع مثل الصيام[2].

وفى ميدان المبادىء والأخلاق نجد أن المنهج الإسلامى واضح فى أن الأخلاق السامية، والمبادىء القويمة التى جاء بها الإسلام، وأمر المسلمين أن يتخلقوا بها، كلها تعمل من قريب أو من بعيد على وحدة المسلمين وتنمية مشاعر الأخوة بينهم، قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾** ﴾[3].
ومن هنا كانت القيم الإسلامية هى: مجموعة الأخلاق، التى تصنع نسيج الشخصية الإسلامية، وتجعلها متكاملة، قادرة على التفاعل الحى مع المجتمع، وعلى التوافق مع أعضائه، وعلى العمل من أجل النفس والأسرة والعقيدة[4].

ولقد أفادتنا البحوث أن القيم الإسلامية فى مجموعها نوعان:

١ - القيم السلبية، أو قيم التخلى، وتتجلى فى هجر ما نهى الله عنه من شرور وموبقات.

٢ - القيم الإيجابية : وهى: القيم التى كلف المسلم بالتحلى بها، وأخذ نفسه بمقتضياتها مثل: الصدق، والأمانة، والرحمة، وصلة الرحم، والمروءة والنخوة، والكرم، وحُسن الجوار[5].

(١، ٢) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام، ص: ١٩٥.

(٣) الرعد: ١٩ - ٢١.

(٤) د. جابر قميحة، المدخل إلى القيم الإسلامية، ص ٤١، ط. دار الكتاب اللبنانى بمصر وبيروت، سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٥) المصدر السابق ص ٤١.

وفى ميدان الآداب والتقاليد: نجد أن هناك فى المنهج الإسلامى آداب تصحب المسلم فى حياته كلها، فى مأكله ومشربه وملبسه ومركبه ويقظته ونومه وسفره وحضره، وخلوته وجلسته، وهى آداب تحرص على ربط المسلم بالله ـ تعالى ـ فى كل أحواله، وكل أحيانه، فهو ينام على ذكر الله، ويستيقظ على ذكر الله ويبدأ الأكل باسم الله، ويختم بحمد الله، وكذلك لبسه الثوب، وركوبه الدابة وسفره وعودته، وهو إذا هنأ أو عزى أو شمت عاطساً أو رد على مشمت أو سافر أو ودع مسافراً، أو غير ذلك لم ينس الله ـ سبحانه وتعالى ـ بل لسانه رطب بذكر الله حامداً أو داعياً، أو مسمياً أو مثنياً عليه بما هو أهل له[1].

ومن مظاهر الوضوح فى نظام الإسلام: وضوح الأهداف والغايات، إذ أن غايات الإسلام وأهدافه: إخراج الناس من الظلمات إلى النور. قال تعالى: **﴿ ...كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾**[2].

يقول الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ: لتخرج البشرية من الظلمات ظلمات الجهل، والوهم، والخرافة، وظلمات الأوضاع، والتقاليد، وظلمات الحيرة فى تيه الأرباب المتفرقة، وفى اضطراب التصورات والقيم والموازين... لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور، النور الذى يكشف هذه الظلمات يكشفها فى عالم الضمير، وفى دنيا التفكير، ثم يكشفها فى واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد[3].

والإيمان بالله نور يشرق فى القلب، فيشرق به هذا الكيان البشرى، والإيمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق، ترى الطريق واضحة إلى الله، لايشوبها غبش، ولايحجبها ضباب. غبش الأوهام، وضباب الخرافات، أو غبش الشهوات، وضباب الأطماع، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لاتتعثر، ولاتضطرب، ولا تتردد، ولا تحتار[4].

(١) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام، ص١٩٦.
(٢) إبراهيم: ١.
(٣، ٤) سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ٤ ص ٢٠٨٥.

قال تعالى: ﴿...قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

يقول المفسرون: وكتاب مبين: يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولا يأتيه ما كان خافياً على الناس من الحق[٢].

وفي تفسير المنار: أن الله ـ عز وجل ـ ذكر للنور ثلاث فوائد:

الأولى : أنه يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، أى أن من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالإيمان، يهديه الطريق التى يسلم بها فى الدنيا والآخرة من كل ما يرديه ويشقيه، فيقوم فى الدنيا بحقوق الله ـ تعالى ـ وحقوق نفسه الروحية والجسدية، وحقوق الناس، فيكون متمتعًا بالطيبات متجنباً للخبائث، تقياً مخلصاً، صالحاً، مصلحاً، ويكون فى الآخرة سعيداً منعماً جامعاً بين النعيم الحسى الجسدى، والنعيم الروحى القلبى والعقلى.

الثانية : الإخراج من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور التوحيد الخالص، إذ يصبح الإنسان حراً كريماً بين الخلق، عبداً خاضعاً بين يدى الخالق وحده.

الثالثة : الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الموصل إلى القصد والغاية من الدين فى أقرب وقت، لأنه طريق لاعوج فيه ولا انحراف[٣].

وكان هدف الرسل جميعا ﴿...لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ...﴾[٤]. أى: يهلك الهالكون عن حجة بينة بالمشاهدة وهى: هزيمة الكثرة الكافرة، ويحيا المؤمنون عن حجة بينة، وهى: نصر الله للقلة المؤمنة[٥]، فالتزام الرسل بالوضوح أبعدهم عن مهادنة الخرافات ومسالمة الأفاكين.

---

(١) المائدة: ١٥، ١٦.

(٢) القاسمى، محاسن التأويل، جـ٦ ص١٩٢١.

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، جـ٦ ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٤) الأنفال: ٤٢.

(٥) لجنة القرآن، المنتخب من التفسير، ص٢٤٩، ط. الحادى عشرة ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، شهر محرم، سنة ١٤٠٦ الموافق نوفمبر سنة ١٩٨٣م.

ومن غايات الإسلام وأهدافه: ترسيخ معنى العبودية لله، وإفراده بالربوبية، وتوحيده دون شرك، وهدف التربية والبناء فى الدعوة الإسلامية هو ترسيخ هذه القاعدة فى ضمير الإنسان، لتصبح حقيقة ويقينا فى القلب، وعقيدة وتصوراً فى الفكر، ونشاطاً وحركة فى الحياة، لتشمل الحياة كلها، فتصدر عنها العبادات والأحكام والتشريع، ولتنطلق منها التصورات فتعطى المنهج والتخطيط[1].

قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾[2].

فهذه الغايات والأهداف وغيرها مما جاءنا به القرآن الكريم واضحة بينة لا غموض فيها ولا إبهام.

ومن الوضوح فى الإسلام: أن الدعوة كانت تنزل منجمة، حتى يفهم السائل ويقتنع المجادل، وتنمحى الشبه، وتستقر الدعوة، على أسس ثابتة مؤكدة[3]. قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا**﴾[4]. فالقرآن جاء ليربى أمة، وينشىء مجتمعاً، ويقيم نظاماً، والتربية تحتاج إلى زمن، والى تأثر وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع، والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب شامل للمنهج الجديد إنما تتأثر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج، وتتدرج فى مراقبة رويداً رويداً وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً، وهى تنمو فى كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح فى اليوم الثانى أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها، والتذاذاً بها، ولقد جاء القرآن الكريم بمنهاج كامل شامل للحياة كلها، وجاء فى الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية لذلك جاء منجماً، وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة[5].

---

(١) عدنان النحوى، دور المنهج الربانى فى الدعوة الإسلامية، ص١١٩-١٢٠، بتصرف، ط. دار الإصلاح بالدمام.

(٢) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٣) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ١٥١.

(٤) الفرقان: ٣٢.

(٥) سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ٥ ص ٢٥٦٢.

فالحكمة من نزول القرآن مفرقاً: أن يتقوى بتفريقه فؤاد النبى ﷺ حتى يعيه ويحفظه، لأن المتلقن إنما يتقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شىء، وجزءاً عقيب جزء، ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل[1] به وتعيا بحفظه، والرسول ﷺ فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى - عليهم السلام - إذ كان أمياً لايقرأ ولا يكتب، وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن بد من التلقن والتحفظ، فأنزل عليه القرآن منجماً فى عشرين سنة، وقيل: فى ثلاث وعشرين سنة، وأيضاً: فقد كان ينزل حسب الحوادث، وجواباً للسائلين، ولأن بعضه منسوخ، وبعضه ناسخ ولايتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقاً[2].

وقد ختمت الآية بقوله: ﴿...وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا﴾ والترتيل - كما يقول الزمخشرى -: أن قدره آية بعد آية، ووقفة عقيب وقفة، ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته... وذلك مثل قوله تعالى: ﴿...وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[3]. أى: اقرأه بترتل وتثبت[4]. ومنه حديث عائشة - رضى الله عنها - فى صفة قراءاته ﷺ: «لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه يعدها»[5].

فالأمر بالقراءة أمر بيان. قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾[6]. فالقرآن هدى وشفاء تشريع وتكليف، نزل على الرسول ﷺ ليقود على هديه البشر ويداوى به أمراضهم الاجتماعية، ويمدهم بطاقة روحية ومادية، وهو ليس بالقصير الذى يمكن قراءته فى جلسة، أو حفظه فى يوم، ولهذا كان من حكمة الله - سبحانه وتعالى - أن نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ مفرقاً، حتى يتمكن الرسول ﷺ وصحابته من حفظه[7]... ويرى كثير من العلماء: أن لنزول القرآن الكريم منجماً حكماً جليلة، وأسراراً عديدة، عرفها العالمون، وغفل عنها الجاهلون، ونستطيع أن نجملها فيما يأتى:

---

(١) بعل الرجل: أى دهش.
حاشية المرزوقى على الكشاف، جـ٣ ص٩٦، ط. دار المعرفة.

(٢) الزمخشرى، الكشاف جـ٣، ص ٩٦.

(٣) المزمل: ٤.

(٤) الزمخشرى الكشاف، جـ٣ ص ٩٧، بتصرف.

(٥) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، باب المناقب، باب صفة النبى ﷺ جـ٦، ص ٥٦٧.

(٦) الإسراء: ١٠٦.

(٧) د. عبدالمنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ٨٢، ط. الثانية، دار الكتاب اللبنانى ببيروت، سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

أولاً : تثبيت قلب النبى ﷺ أمام أذى المشركين.

ثانيا : التلطف بالنبى ﷺ عند نزول الوحى.

ثالثاً : التدرج فى تشريع الأحكام السماوية.

رابعاً : تسهيل حفظ القرآن الكريم، وفهمه على المسلمين.

خامساً : مسايرة الحوادث والوقائع، والتنبيه عليها فى حينها.

سادساً : الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل الحكيم الحميد[١].

لقد تضمن القرآن الكريم حقائق أساسية كبرى، عرضها على الناس، وأيدها بالأدلة والشواهد، ودعا إلى تصديقها، والإيمان بها، وكرر ذكرها بأساليب شتى، وطرق متعددة وهى التى تؤلف جو القرآن العام، والأساس الذى تتفرع منه قواعده الأخلاقية، وأحكامه التشريعية، لا تنفصل عنه أبداً، وهى القاعدة الفكرية النفسية، التى أراد الله أن يقيم عليها بناء الإنسان وتكوينه[٢].

جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله ـ تعالى ـ فى ذاته وأفعاله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً، متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه، من الصفات، كالعلم، والإرادة، والقدرة، وغيرها، وعلى أنه لايشبهه شيء من خلقه، وأنه لانسبة بينه وبينهم، إلا أنه موجودهم[٣].

فالإسلام ـ كما ترى ـ جاء بالحق فى العقائد، وأقام الحجج والأدلة عليه بما يتفق هو والفطرة البشرية، والحق إذا قامت الأدلة عليه وظهر، انقادت له العقول، وكانت له السيطرة على النفوس، وتصرف فى الضمائر، وتحكم فى السرائر[٤].

ولقد شاءت حكمة الله ـ وهو أحكم الحاكمين ـ: أن يمد الإنسان بما يساعده على تحقيق الغاية التى خلق من أجلها، وهى معرفته وعبادته والانتظام فى سلك عبادته. من هنا فلقد أنعم الله على الإنسان بالعقل أداة فهم وآلة معرفة، ولكن العقل لايستطيع العمل فى فراغ دون شاهد أو دليل[٥].

---

(١) الصابونى، التبيان فى علوم القرآن، ص ٤٠-٤١.

(٢) محمد المبارك، العقيدة فى القرآن الكريم، ص٩ بتصرف.

(٣) محمد عبده، رسالة التوحيد ص ٢٠٤.

(٤) محمد أحمد عرفة، السر فى انتشار الإسلام ص٦ ط: نهضة مصر.

(٥) د. محمود مزروعة، أضواء على المنهج النقدى عند ابن رشد، ص ٢٠٠، ط: دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

والوجود كله شاهد حق، ودليل صدق على وجود الله -جل جلاله- الوجود كله شاهد حق، ينطق بكل لسان، ويفهم بأوضح بيان، ويخاطب الحس والجنان.

يخاطب العين بلغتها، والأذن بلغتها، والذوق واللمس بلغته يخاطب العين بلغة البصر، فتبصر فى الألوان قدرة الله، وتبصر فى المخلوقات، وشؤون تصريفها عظمة الله، وتبصر فى الوجود كله حكمة الله[1].

ومن يتتبع قضية الوضوح فى الإسلام، يجدها فى كليات الإسلام وجزئياته وفى بيانه لوحدة الأصل الإنسانى، ووحدة العقيدة المصدر وفى ميدان التعاليم، وفى ميدان العبادات، وفى ميدان الأخلاق والمبادىء وفى كل شىء.

* * *

(١) المصدر هسابق، ص ٢٠١.

الكمـــــال

الكمال هو : التمام الذى تجزأ منه أجزاؤه. وقيل: كمال الشىء حصول ما فيه الغرض منه[1].

والكمال عامل هام من العوامل الذاتية فى الإسلام، التى ساعدت وعملت فى قوة على انتشار الإسلام، والإسلام لابد وأن يكون كاملاً، لأنه خاتم الشرائع ومكمل الرسالات، والمعبر عن لطف الله سبحانه وتعالى، ورحمته بخلقه. . . وقد شاء الله -سبحانه- أن يكون الإسلام هو الدين الذى يلازم البشرية فى مسيرتها، ويستوعب مظاهر التجدد والنمو فى حياتها، لأنه الدين المؤهل لإنارة الطريق أمام الإنسان، وقيادته نحو الخير والصلاح.

ومن يراجع أحكام الشريعة الإسلامية: يجد أنها كاملة لانقص فيها، ولا قصور، شاملة لأمور الأفراد، والجماعات والدول، إذ صيغت نصوص الشريعة، بحيث لايؤثر على نصوصها مرور الزمن، ولاتبلى جدتها، ولا يقتضى تغيير قواعدها العامة، ونظرياتها الأساسية، فجاءت نصوصها من العموم والمرونة، بحيث تحكم كل حالة[2].

لقد جاءت الشريعة الإسلامية وافية بحاجات الناس، لانقص فيها ولاقصور، ففى السنة العاشرة من الهجرة، حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، وبينما هو قائم يدعو ربه، يوم عرفة، والمسلمون حوله يؤمنون على دعائه، ويدعون معه فى كثرة وعزة، نزل قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[3]. أى: اليوم وقد قضيتم على مظاهر الشرك، وبلغتهم ما أنتم فيه، من عزة وكثرة، واجتمعتم فى مناسك الحج، ليس معكم مشرك بالله ـ تعالى ـ، الآن يئس الذين كفروا من الوقوف أمام دعوتكم إلى الله ـ تعالى ـ، ومن إلحاق الأذى بكم، فلا

---

(١) الفيروز ابادى، بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ٤ ص٣٨٨.

(٢) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية ص١٦٨-١٦٩ ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة: ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٣) المائدة: ٣.

تخشوهم واخشون، وفى هذا اليوم الذى بلغتم فيه ما بلغتم، أكملت لكم ما أردت أن أشرعه لكم من أحكام الحلال والحرام، وبيّنت لكم الطريق فى جميع ماتحتاجون إليه من أمر دينكم، فلا زيادة فى شىء من ذلك بعد اليوم[١].

وجاء فى تفسير المنار: اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون فرائضى عليكم، وحدودى وأمرى إياكم، ونهيى، وحلالى، وحرامى، وتنزيلى. من ذلك ما أنزلت منه فى كتابى، وتبيانى ما بيّنت لكم منه بوحى على لسان رسولى، والأدلة التى نصبتها لكم على جميع مابكم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتممت لكم جميع ذلك، فلا زيادة فيه بعد اليوم[٢].

وقال أصحاب الآثار: أنه لمّا نزلت هذه الآية على النبى ﷺ لم يعمّر بعد نزولها إلا واحداً وثمانين يوماً، أو اثنين وثمانين يوماً، ولم يحصل فى الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ، ولا تبديل البتة[٣].

وروى ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه فلا ينقص أبداً، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً.

إكمال الدين: خلص البيت الحرام للمسلمين، وإجلاء المشركين عنه، حتى حجه المسلمون وهم لا يخالطهم المشركون، ولا يمكّن الكافر من دخول حرم مكة سواء مساجدها أو غيرها[٤].

وإكمال الدين: الإظهار، واستيعاب عظم الفرائض، والتحليل والتحريم[٥].

وإكمال الدين: يكون بشمول الشريعة لحاجات من شرعت له، وتحقيقها لمصالحه، التى تقتضيها حياته، والذى جاءت الشريعة لتحقيق مصالحه، ورفع شأنه[٦].

---

(١) د. السيد عبداللطيف كساب، نظرات فى عموم الشريعة الإسلامية، ص ٢٧٠ من مجلة (هذه سبيلى) العدد الخامس، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٢) محمد رشيد رضا تفسير المنار جـ٦ ص ١٢٩.

(٣) الفخر الرازى، التفسير الكبير جـ٦ ص ١٤٢.

(٤) الزركشى: إعلام الساجد بأحكام المساجد ص١٧٣ ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٥) ابن عطية: المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز جـ٥ ص٢٩ ط المغرب سنة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

(٦) د. السيد عبداللطيف كساب، نظرات فى عموم الشريعة الإسلامية ص ٢٧١.

فالله سبحانه وتعالى -أكرم الإنسان، وفضّله على كثير مما خلق، وميّزه بالعقل، والإرادة، والاستعداد لاكتساب العلوم والمعارف، وخلق له ماظهر على وجه الأرض وما بطن، وجعله خليفة فيها، ومكّنه من ارتياد أرجائها، والسير فى برّها وبحرها، وأمره بالنظر فى الكون والكشف عن أسراره، والانتفاع بخيراته[1].

قال تعالى: ﴿ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ والْبَحْرِ ورَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2].

والإنسان الذى كرّمه الله ـ تعالى ـ وفضله على كثير من خلقه، مستعد بفطرته للخير والشر، وفى طبيعته البشرية، حب النفس والميل مع الهوى، وهذا قد يؤدى به إلى طغيان المادية، الذى يقطع الروابط الإنسانية اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة فلا يستقيم أمره، إلا بوازع ذاتى، يقوم على قاعدة من الإيمان، بوجود خالق الكون، ومدبّره أمره، والإيمان بأنه كما أحكم نظام الكون أكمل نقص الإنسان، وتعرضه للانحراف عن الصراط المستقيم، وذلك بإرسال الرسل، وإنزال الشرائع، ولهذا اهتمت الشريعة الإسلامية بوضع الأساس الصحيح فى هذه الناحية، فعرّفت الناس بخالق الكون، ومدبر أمره، ودعتهم إلى التقرب إليه، بإخلاص النية له، وأداء أعمال تصلح من النفوس وتقوّى روابط الألفة والمحبة بين الجميع[3].

وإكمال الدين: يكون بالإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرع، وقوانين الاجتهاد[4].

وعلى هذا تكون كلمة الدين شاملة لما يدخل فى باب العقيدة، ومايدخل فى باب العمل[5].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[7].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧١.

(٢) الإسراء: ٧٠.

(٣) د. السيد عطية كساب، نظرات فى عموم الشريعة الإسلامية ص ٢٧٢.

(٤) البيضاوى، أنوار التنزيل ص١١٢ ط البابى الحلبى سنة ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.

(٥) د. السيد عطية كساب، نظرات فى عموم الشريعة الإسلامية ص٢٧٠.

(٦) آل عمران: ١٩.

(٧) الشورى: ١٣.

فالدين عند الله الإسلام، بكل ما اشتمل عليه من أحكام تنظم حياة الناس، وتحقق مصالحهم فى غير فرق بين ما يتصل بالعقيدة، وما يتصل بالعمل، فالناس ملزمون بامتثال أوامر الله ـ تعالى ـ واجتناب نواهيه فى كل الجوانب[1].

إن المؤمن يقف أولاً أمام إكمال هذا الدين، يستعرض موكب الإيمان، وموكب الرسالات، وموكب الرسل، منذ فجر البشرية، ومنذ أول رسول بعث ـ وهو آدم عليه السلام ـ إلى هذه الرسالة الأخيرة رسالة النبى الأمى محمد ﷺ إلى البشر أجمعين[2]. الذى أرسل إلى الناس كافة، رسولاً خاتم النبيين، برسالة للإنسان، لا لمجموعة من الأناسى فى بيئة مخصوصة، فى زمن خاص، فى ظروف مخصوصة، رسالة تخاطب الإنسان من وراء الظروف والبيئات، والأزمنة، لأنها تخاطب فطرة الإنسان التى لا تتبدل، ولا تتحوّر، ولا ينالها التغيير: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[3]. وفصل فى هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها، وفى كل جوانب نشاطها، وتضع له المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطوّر فيها، ويتحوّر بتغير الزمان والمكان، وتضع لها الأحكام التفصيلية، والنظم الجزئية فيما لا يتطوّر ولا يتحور بتغير الزمان والمكان، وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية، وأحكامها التفصيلية، محتوية كل ماتحتاج إليه الإنسان من تلك الرسالة إلى آخر الزمان[4].

ولاشك أن هذه الوقفة التى يقفها المؤمن، تكشف له عن كمال الإسلام فى وضوح، وإذا كنا عرضنا لهذه فى إيجاز، فإنما نمضى مع الشهيد سيد قطب -رحمه الله- فى الوقفة الثانية، فنجده يقول: ويقف المؤمن ثانياً: أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين بإكمال هذا الدين، وهى النعمة التامة الضخمة الهائلة، النعمة التى تمثل مولد الإنسان فى الحقيقة كما تمثل نشأته واكتماله... فالإنسان لاوجود له قبل أن يعرف إلهه، كما يعرفه هذا الدين له، وقبل أن يعرف الوجود الذى يعيش فيه كما يعرفه هذا الدين، وقبل أن يعرف نفسه ودوره فى هذا الوجود،

(١) د. عطية كساب، نظرات فى عموم الشريعة الإسلامية ص٢٧١.
(٢) سيد قطب، فى ظلال القرآن جـ٢ ص ٨٤٢.
(٣) الروم: ٣٠.
(٤) سيد قطب، فى ظلال القرآن جـ٢ ص ٨٤٢-٨٤٣.

وكرامته على ربه، كما يعرف ذلك كله من دينه الذى رضيه له ربه... والإنسان لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد، بعبادة الله وحده، وقبل أن ينال المساواة الحقيقة بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه، لا من صنع أحد، ولابسلطانه[1].

وكمال الدين: مراعاة طبيعة الإنسان، إذ ناسب الإسلام الإنسان، واتفق مع فطرته، وذلك أن الإنسان كائن يحس بما حوله، ويرغب فى الاتصال به، والتعاون معه، وهو فى إحساسه هذا يشعر بقوى غيبية لا يدركها، فيتسنى أن يحيط بها. ومن هنا تأتى الدعوة الإسلامية محققة كافة مطالب الإنسان ورغباته، فتوضح له هذه القوى الغيبية، وتركزها فى عقيدة تعرف بالله وعبادته، وتدعو إلى الإيمان بالرسل، والملائكة، والكتب، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وتصنع شريعة تمكن من الاتصال بالناس، والتعاون معهم، وتتم مكارم الأخلاق التى تبين الحسن فى كل شيء، وتحتمه. وهكذا ناسبت الدعوة الإسلامية حقيقة الإنسان فى سائر تعاليمها[2].

وإن الباحث ـ وهو يتابع كمال الدين الإسلامى ـ سوف يتضح له هذا الكمال فى كل ما يتصل بالإنسان، أو يمس جانباً من حياته، كإنسان يعيش فى هذه الحياة الدنيا لرسالة يؤديها.

* * *

(١) سيد قطب، فى ظلال القرآن جـ٢ ص ٨٤٢-٨٤٣.

(٢) أنور الجندى، الثقافة العربية، إسلامية أصولها وانتماؤها ص ٧٠، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت سنة ١٤٠٢هـ-١٩٨٣م.

الفهرست

رقم الإيداع ٩٧/٤٤٦٧
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-294-021-3

طـــبع آمـــون
٤ عطفة فيروز - متفرع من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى
تليفون: ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦